

اللّهار الكاملة (٨)

علي شريعتي



العن
الفريضة الفاسدة

كارالأمير

الجـ الفريـحة الخامـسة

اسم الكتاب : الحج - الفريضة الخامسة

اسم المؤلف : د. علي شريعتي

اسم المترجم : عباس أمير زادة

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-09-8

الطبعة الأولى : ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٣ م

الطبعة الثانية : ٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

كافحة الحقوق محفوظة ومسجلة قانونياً للناشر بالاتفاق مع ورثة المؤلف

التوزيع في العراق:

دار الباقي - النجف الاشرف هـ: 07801263579



**مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي**

تلفاكس: +98 21 2232729

ص.ب: 6516 - 19395 طهران

www.shariati.com



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتراث، والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: 49 27 64 49 +
هـ.ب: 113/5555 - الحمرا - بيروت - لبنان

Website: http://www.daralameer.com

E-mail: daralameer@daralameer.com

سلسلة الآثار الكاملة - ٧.

الحج الفريضة الخامسة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

عباس أمير زادة

دار الأمير

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي ، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية ، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول ؟ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي ؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل .

وقد وع特 دار الأمير هذه المسؤلية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م ، وحملتها بأمانة ، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود ، ورغم الدمار الكلي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م ، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية ؛ حين دكت مقر دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل ، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوجهة ،وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودة من العدوان ، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز ، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات ، والنهضة ، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها : إلهي علمني كيف أحيا .. ، أمّا كيف أموت ، فإني سأعرفه . والحمد لله الذي نصر عبده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَدْرِي عَزِيزِي الْقارِئُ مِنْ أَينْ أَبْدَأْ؟
وَلَا أَدْرِي بِمَاذَا أَبْدَأْ؟

وأنا على هذه الحال قررت أن أشخص قصتي مع هذا الكتاب، وهي من شقيقي :

الأول : الدافع الحقيقي وال المباشر للتعرف على الكتاب ، وهو بفضل صديقي الدكتور «المغربي» الذي يعمل حالياً مدرساً في جامعات إيطاليا .

الثاني : الدافع الحقيقي وال المباشر لنشر هذا الكتاب .
وحتى لا أطيل عليك عزيزي القارئ أبدأ هذه القصة مع شقيقها الأول :

في النصف الأول من العام الميلادي الحالي (٢٠٠٢) كنت مشاركاً بصفتي كناشر في أحد المعارض التي تنظمها دولة عربية خليجية ، وأثناء وجودي في الجناح المخصص لي من المعرض حضر شخص تبني ملامحه عن نقاء سريرة وصفاء نفس ، سلم بتحية الإسلام وقال : هنا دار الأمير أليس كذلك ؟ فأجبته : نعم . قال : أنتم الذين تقومون بنشر مؤلفات د. شريعتي ؟ فأجبته بالإيجاب ، ثم سأله عن كتاب الحج . قلت : حتى الآن لم ننشره ولكننا سنقوم بنشره ضمن «مجموعة الآثار الكاملة» .. فتنهدت تنهيدة قد سمعها من هم على بعد بضعة أمتار منا ، ما دعاني لأسأله لماذا كتاب الحج تحديدًا ؟ قال يا أخي دعك من هذا وهم ليسوا عن كتاب آخر للدكتور ، فلم أنتظر حتى يكمل سؤاله ، فقاطعته مؤكداً على استفساري ، فتكرّم مجيئاً وبابتسامة لطيفة ارتسمت على محياه ، لكن نظرة

سارة ابتعدت به عنى، غير أنه سرعان ما قال: يا أخي لقد أعددت بي المذكرة لعشرين سنة أو يزيد.. لا بأس دكتور تكلم.. وهنا قال: في العام الذي انتصرت فيه الثورة الإسلامية في إيران أو العام الذي يليه جئت إلى مكة لأداء فريضة الحج، وهناك التقى بالدكتور الشهيد مفتح^(١) - ولا أدرى إن كان يعرفه من قبل - وكان يحمل معه كتاب الحج للدكتور شريعتي، وعندما بدأنا بمناسك الحج أخذ الشهيد مفتح يترجم لي بعض الفقرات التي تتعلق بهذا المنسك وفلسفته، وهكذا فعل مع كافة المناسك، وما زالت دموع مفتح وهو يترجم تلك الفقرات أمام عيني حتى الآن - وهنا بكى صديقنا المغربي . . . هذه يا أخي خلاصة القصة، مما كان مني إلا أن عانقته واعداً بالبحث عن الكتاب، متسائلاً في نفسي أي كتاب هذا الذي يجعل مفتح الشخصية العملاقة تجهش بالبكاء على هذا التحول، وبعد جهد متواصل توصلت إلى الكتاب وقرأته مرة.. مرتين.. ثلثاً، حينئذ عذررت الدكتور «المغربي» في إلحاحه على الكتاب، وفهمت حينها دموع الدكتور مفتح (رضوان الله عليه).

وهنا عزيزي القارئ وصلت إلى الشق الثاني من القصة وهو: إنني وبعد قراءتي لهذا الكتاب خلت نفسي وكأنني لم أحج، لذا ارتأيت أن أقدمه للقارئ الكريم ليفهم فلسفة الحج كما رأها الدكتور شريعتي والله من وراء القصد. والحمد لله رب العالمين.

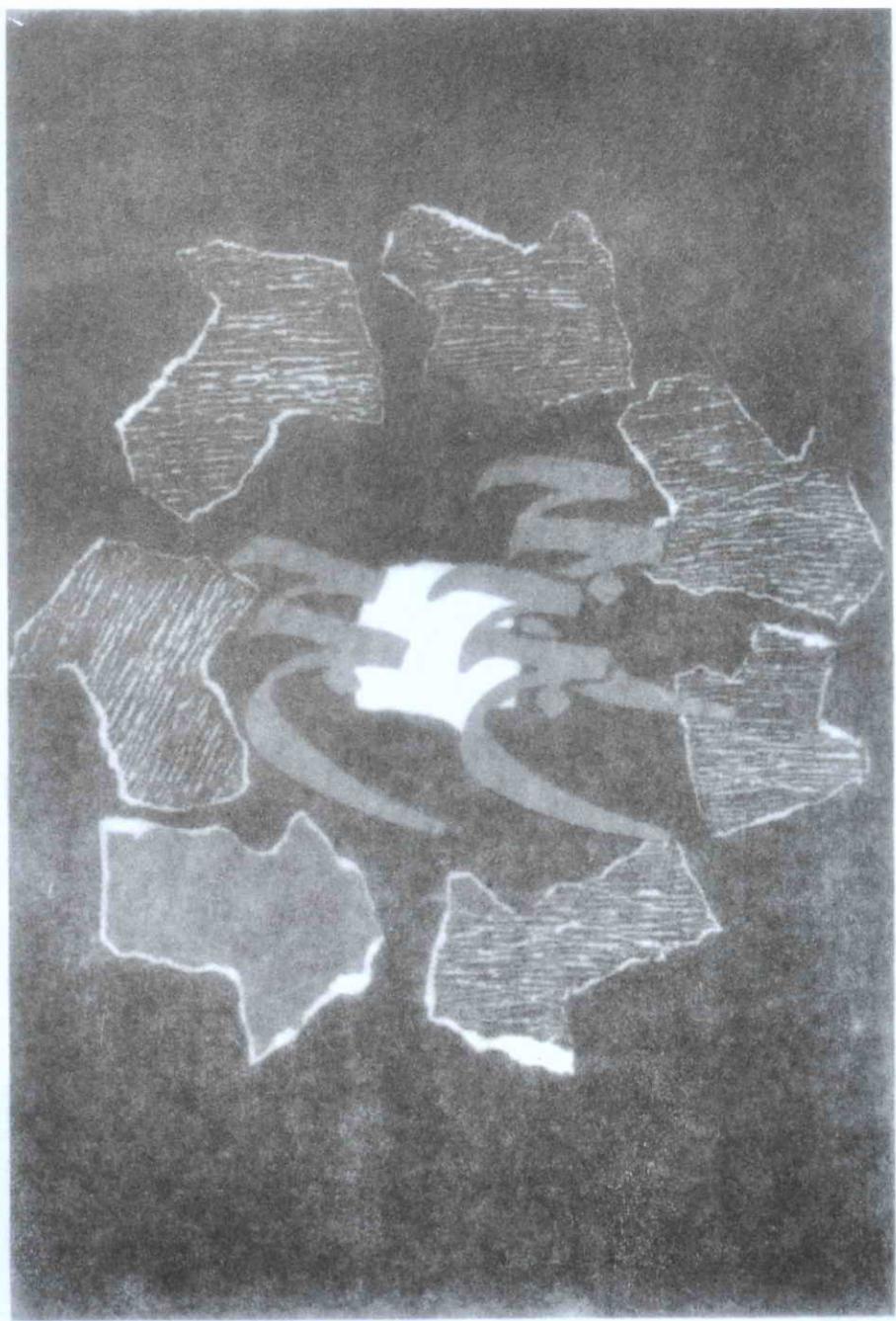
محمد حسين بزي

بيروت في ٢٧/١٢/٢٠٠٢

(١) أحد قادة الثورة الإسلامية البارزين، وعميد كلية الإلهيات في طهران، والمؤسس للوحدة بين الجامعة الحوزة العلمية. استشهد على يد منظمة «الفرقان» على مدخل الجامعة في بداية الثمانينيات، أطلق الإمام الخميني هذا اليوم «يوم الوحدة بين الجامعة والحوزة» تخليداً لذكره.



الدكتور شريعتي أثناء أدائه لفريضة الحج عام ١٣٨٩ هـ ويبعد إلى اليسار الشهيد مطهري



رسم الغلاف كما اقترحه الدكتور الشهيد:
الكل يطوف في الاتجاه الخطأ، والحسين وحده يغادر الطواف لتلبية دعوة الشهادة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكُ مِنْ حُظْيَكَ
مِيرَةً إِرْشَادٍ

جَعَلَ اللَّهُ أَنْتَ بَنْتَ الْبَيْتِ الْعَرَامِ بِمِنْهَا ...

تحليل لمناسك
الحج

تحليلي لمناسك
حج

نارين - شهر ماه ١٣٥٠

جَابَ أَوَّلَ

صفحة تجديد نظر شدة عنوان كتاب

الطبعة الأولى ١٩٧١ م

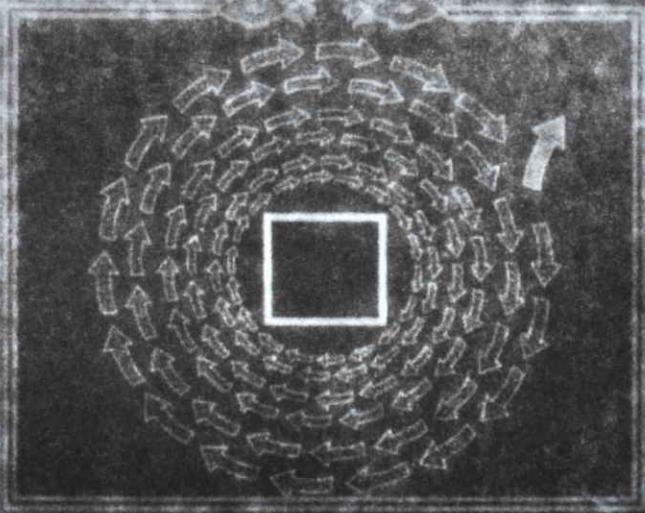
الصورة المعدلة لعنوان الكتاب

الطبعة الأولى من الكتاب باللغة الفارسية - ١٩٧١ م

حج

دکتر علی شریعتی

مجموعه افشار



آخر إصدار للكتاب باللغة الفارسية



ولله على الناس بيع الشت من اصطلاحاته سلا



متاسک فکری حج

هدیه هدیه حجاج بیت الله الحرام

وزارت اسلام و مذهب ایران رسماً من حج و زیارت
متاسک فکری کتابخانه شهید دکتر علی شریعت
سرپوش - استخارات مدنو سهیان مذهب اسلام ایران
پایه شیرکت سهیان است (سینما خان)

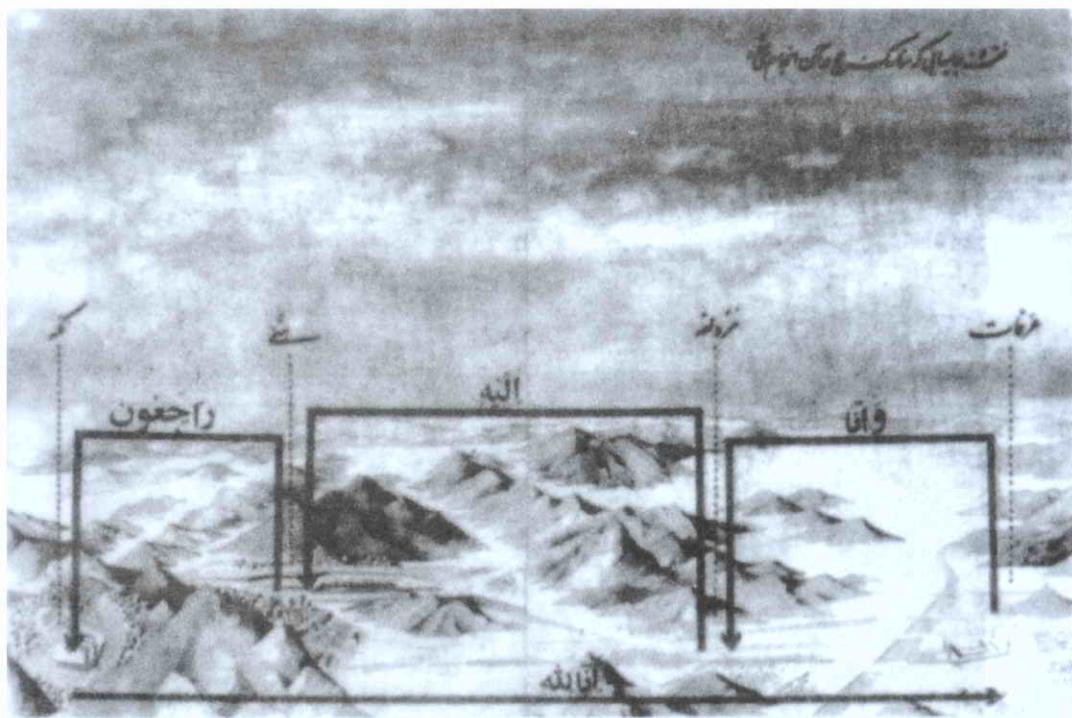


۱۳۵۹

الطبعة الأولى من ملخص الكتاب

الذي طبعته وزارة الإرشاد في إيران عام ۱۹۸۰م و وزعته على حجاج بيت الله الحرام

لله الحمد والصلوة والحمد لله



إحدى الرسومات التوضيحية

مأخوذة من الكتاب الذي نشرته وزارة الإرشاد الإسلامي عام ١٩٨٠ م

بايد با اوس سکردو، آفریام حضرت محمد کو، بزم کر کي، پنجم جمادی، آیا - ۱۰ - ۱۴ - ۲۰۰۶ - مکد المرات
 هون صالح، اور از اما آفعت و می ته رفته، اما هر دو تمہ سکلکھ، اما زدک، هر دوی با فتنه، ۳۰ - ۳۱ - ۳۲
 ناه، آنکه، صدر عین را محنت شد که پایا و میداد، آنکه، هر دوی فتنه نزدیکی، اینکه، هر دوی و حضیر
 آتش و عاشق، آنکه خود را ب ای سین فردیان ~~خواسته~~ خواسته هسته عیرت داعلر خلنه که را رسیم
 که ای سرب آن سر سید ویس سپردم، ۱۱ - اور ای هر سکر میتریست سپردم، ۱۲ - هر دوی پایام میدادیم،
 پایی باییں میدادیم، ۱۳ - بیهی که هر چون ممکن ازان طلبدار صداه ~~خواسته~~ کشیده شد، هر دوی مصلحته
 پاسیل ۱۴ - فرد میشند و بیش تسبیب دنیا، در تمام احوال ستر تکرار، هر دوی میشند و مصلحته میزدیم، که
 می دین، بیبه میشند و بیهی هر که سرخرازان شده سیان میکنند و میکنند و شکنند ... بزرگ که، که
 هنون حیوج از لئین ای دارکاره لسته آنها، بعد مان هم اتفاق دارد، آن پیشانسته و پنگنکه دلخواه دارد، او کسر
 راه درست یکوقت در میان خلت سیام در بـ المـکـ صـحـبـ سـکـرـ کـشـیدـ وـ مـرـنـدـ کـهـ کـهـ بـ کـهـ
 چرا درسیم ای خود میخود، دیگر کو ما، ای سـرـ لـرـانـ رـاـ کـهـ، هـجـعـ هـرـوـنـ نـزـ، جـنـیـ بـعدـ، مـایـ وـلـرـهـ هـرـوـ
 هـکـارـ، هـتـرـ، هـدـوـ هـجـمـ شـیـزـ بـیـزـ لـهـ، هـتـکـهـ، آـنـ هـدـنـهـ هـتـرـ شـدـ، دـیـگـرـ وـلـرـ اـخـرـ مـیـشـیدـ، دـوـ جـعـ حـصـبـ
 وـ دـوـ فـطـرـ هـدـلـ بـکـنـهـ وـ دـوـ سـتـهـ اـعـیـبـ سـیـانـ مـیـکـنـدـ وـ دـوـ دـهـهـ «! سـاـبـ لـرـانـ هـرـ کـهـ « مـسـنـ » بـیـشـ عـزـ اـدـ
 بعدـ سـهـ » اـنـدـ کـهـ شـیـزـ، آـنـشـ اـهـلـهـ دـهـ بـیـکـهـ دـهـ عـذـ وـ ذـنـ وـ آـنـ، بـارـ اـسـمـیـلـ اـنـدـ کـهـ دـهـ بـیـکـهـ » وـ

سـمـ بـایـ سـطـلـهـ لـهـ، سـمـ بـایـ سـرـ دـهـ لـهـ . دـوـ لـشـ صـدـلـ دـمـ اـنـهـ لـهـ بـرـ، بـرـ.

بـیـشـ، بـیـشـ جـهـنـ، بـایـ دـیـلـ کـهـ اوـ، رـاهـ رـلـشـ شـلـ سـیـهـ لـهـ، جـهـنـ هـهـ
 هـتـقـ، ~~جـهـنـ هـهـ~~ سـیـلـبـ مـیـلـبـ مـیـلـبـ خـدـهـ رـابـهـ اـوـ رـانـهـ کـهـ بـلـهـ . بـایـ هـیـثـ مـیـدـ بـهـ کـهـ
 آـنـ لـهـدـاـ رـغـلـتـ سـکـرـ، لـهـارـ، قـنـاـ یـچـپـ مـیـالـتـ وـ بـاـ بـخـدـتـ چـهـ بـیـکـهـ اـنـهـ عـتـبـ
 سـ سـیـانـ دـادـ، بـتـ بـرـ جـهـنـ بـیـکـتـ . اـصـةـ اوـ رـاهـ زـنـفـتـ، تـمـ نـزـ، هـرـ دـوـ مـیـکـدـ !
 کـرـیـ مـیـهـ قـشـ اـخـرـشـ هـجـمـ کـرـیـ کـرـتـ کـهـ حـوـادـ، مـعـلـمـ بـعـدـ مـیـلـ مـیـلـ بـیـکـهـ بـوـ تـدـبـیـتـ هـاـ
 وـ مـرـدـتـ » سـیـلـهـ دـمـیدـ وـ دـهـدـ کـرـ . آـبـ مـیـلـبـ؛ دـ اـبـ، نـتـهـ کـهـ دـهـهـ بـعـدـ . دـایـ بـلـکـرـ
 دـوـعـ، آـنـهـ بـ سـمـ کـهـ بـلـهـ بـلـهـ هـتـتـ سـهـ « فـنـ دـرـیـتـاتـ ». شـرـ بـ سـمـ کـهـ بـلـهـ دـکـسـ دـهـ .
 سـیـاـزـ مـیـنـدـ وـ دـهـتـتـ هـتـتـ بـلـهـ بـلـهـ جـهـنـهـ دـیـ » اـنـتـنـهـ دـاـکـنـ نـادـیـنـ بـتـ ~~کـهـ~~ مـیـنـدـ وـ حـلـیـتـ
 بـیـکـهـ :

نماذج من إضافات وتعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الأولى

ای که در "مقام ابراهیم" استاده ای و "خاتمه وحی" ، بارستگی
"رسالت" را برداشی و پنهان کرده است ، ای که باشد
ای انسان آگاه ! جانشین خدا ، وارت پیامران ای که باشد
رسول "را نعویه" خود گیری تا خلق تورا نعویه "خوش گفربند" ،
ای مسئول بنای "امت" ، بهو مذهب "کتاب" ، "ترانو" و
"آهن" !

ای "قائم به قسط" در زمین ، ای خصم ستگر ، بار مظلوم ، ای
مجاهد مسلمان !

دموت پل لشکر المحتل " مستضعفان زمین و فیضان
الملکی های آگاه جهان مارا بشنو " که چگونه از شر " و سوسختن " می بالند :
تاین هی " تهدید " پیشی را در تهدید " دشمنان داخل " می بینند :
همجوم دیوانه وار " مصرف و مصرف " !
مارکوز اعلام خطر کرده است که انسان " یک بعدی " شده است ،
معجون ابزار .

انش لیوں دیوشن وار ، "با چراغ خاموش" ، گرد این شهر من گردید
و " انسان به خود " رئیس لشکر کامو فریاد برآورد . است که در شهر
" اران " که " طاعون " آمده است ، و در " معبد " این صنیع ، اطفال
مقصوم ، بس آنکه بد آند چرا ، از بیماری مرموز و هوتلانک مختلطند و -

زان اینلوه از "شاهزاده ای سلح" سخن م گوید که " سرا با غرقه در سلاح
و طلا است ، اما از درد جانکاه و ناشاخته ای ریح می بود که درمانی ندارد " !
هر چند که این شریعه نسبتی نباشد ، این شریعه میتواند در اینجا این شریعه را در اینجا
آن می بینیم ... در اینجا در اینجا در اینجا ... در اینجا در اینجا ... در اینجا در اینجا ... در اینجا

لمحات من حياة الدكتور علي شريعتي

﴿وَلَا تَخْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْرًا بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرَزَّقُونَ﴾

«قرآن كريم»

«في مغبة الفرار إلى التاريخ، خوفاً من انزواء الحال، التقيت أخي (عين القضاة) الذي خفت نوره في الثالثة والثلاثين من عمره، مع بدء تفتحه، لارتكابه جريمة - الوعي والشعور وضراوة الفكر - إذ كانت الذات والشعور والتأملات، أيام الجهل المطبق، جنحة خاصة إذا كان موقعها وسط جمهرة المستضعفين وزبائن سوق الباحثين عن ارتقاء الروح وعزّة النفس وثبات القلب، أو وسط أرض الغدير، فعلى حد تعبير بوذا: «من وطأت قدمه (جزرة الغدير) ارتكب جريمة لن تغتفر».

علي شريعتي

من مقدمة كتاب (كوير)

أجل ، كان الوعي والاحساس المرهف وجرأة الفكر وتعالي الروح وشجاعة القلب ، من السمات الإنسانية النبيلة التي اشتراك بها شريعتني مع (عين القضاة) . ولما كان قد استلهم أفكاره الراسخة فإنه سيلقى بلا شك المصير نفسه ، الذي يرسم لمن ينهج هذا النهج ، ليواجه في عنفوان شبابه الموت الزؤام والمباغت .. ولا داع للعجب ، لأن من يتمتع بمثل هذه الرؤية يمكنه أن يتنبأ بكل شيء ، ولا يخشى أن يبوح ما في مكنونات قلبه . ولكنـه كان يعلم بأنه يعيش في المجتمع القائم على الظلم والتحقيق ، في عصر الجهل ووادي الأغفال - ومن الأفضل أن نقول في عصر يغض النظر فيه عن الحقيقة - ولا يمكن للوعي والاحساس العميق أن يرافق جرأة التفكير وبسالة القلب ، بل على العكس فإن مقاييس بروز المفكرين أصبحت تبحصـرـ بالمال والجاه والأعمال العسـجدـية لتولـيـ المناصب ، وعلى هذه الشـاكـلةـ صـارـ المـفـكـرـ بـحدـ ذاتـهـ أـدـاةـ عـلـةـ الـظـلـمـ وـالـتـحـقـيقـ الـذـيـ لـحـقـ بالـوـعـيـ .

انه كان يسخر منـعـنـدـاـ أنـفـسـهـمـ فيـ عـدـادـ المـفـكـرـينـ الـذـينـ لمـ يـتـجـرـأـواـ أـنـ يـشـتـرـكـواـ حـتـىـ فـيـ الـفـسـادـ ، وـظـلـواـ فـيـ حـيـرـةـ مـنـ أـمـرـهـمـ يـحـتـرـزـونـ أـنـ يـعـمـلـواـ شـيـئـاـ خـشـيـةـ الـأـيـرـواـ وـجـهـ الـهـزـيمـةـ .

كان ينظر إلى مسألة (اختيار الطريق) بأنها ليست الخطوة الأولى فحسب ، بل معنى الحياة برمتها ، معتبراً التراث والشك والتردد على أنها من نتائج العبودية الفكرية ، وهو ما يسميه بـ(المـفـكـرـينـ الـمـتـشـبـهـينـ وـالـمـقـلـدـينـ) . وفي مجلـلـ حـيـاتـهـ القـصـيرـةـ والـزـاخـرـةـ بـالـتـجـارـبـ الـمـثـمـرـةـ ، نـاضـلـ بـكـلـ مـاـ اـمـتـلـكـ مـنـ حـولـ وـقـوةـ ،

ضد أمثال أولئك الأعداء المعروفين، ومن لحق بركاب الفكر في آخر الأوان بخطاهم الحثيثة ومواقفهم المتحفظة.

كان في نفس الوقت الذي يحارب فيه السذاجة في التفكير، وتقبل الواقع والأحداث كبديل للأساس والأهداف المرسومة، كان يحارب اللاجدوائية واللامبالاة، والحياة التي تخلو من هدف، والفساد والابتذال والفراغ الفكري، وكبت دوافع المقاومة لدى شرائح المجتمع المختلفة، وحتى لدى المناهضين لهذه الآفات والوعكات الاجتماعية الذين يرون أنفسهم حراساً لأركان مجتمعهم الصالح في حين كانت حالتهم أشبه إلى النوم منه إلى اليقظة، فوصلوا إلى حد من اللامبالاة بحيث أصبحوا غافلين عن رؤية طريق الصواب، التي يستلزم فيها الإيمان والعزم الثابت والفكر динамики والوعي المتيقظ لضمان عدم انحرافها، فحدا به أن يشرع بإعلان محاربته ورفضه الدائم للقيم الفاسدة التي تسللت لمجتمعنا للأسف، وكان يؤمن بأن جذور المجتمع التي جفت يمكن اراؤها مرة أخرى باتباع نهج واحد، شرط أن نغض النظر عن كل شيء، حتى الحياة، وهو أن نسلك درب الشهادة:

«لا يمكننا أن نمضي في هذا الصمت ونتحمله، كما لا يمكننا أن نقول شيئاً، ولكننا سوف نظل صامتين. إنني تغمرني أحاسيس من يحتضر ويفارق الحياة وهو على يقين بأن ثمة راحة وطمأنينة ونجاة، بعد عذاب الحياة المضني الذي لا يختلف على طول العمر المديد عن (الاحتضار الذي يؤلمه في معاناته لسكرات الموت) ... إنه لشهيد! ألا ترى كيف يرحل بطمأنينة وراحة بال؟

لقد هجر أولئك حياتهم اليومية، وظللت أرواحهم خالدة، فالموت فاجعة أليمة، وهو شؤم الزوال والضلال في الالا وجود، إذ أن نغمات الهجرة عن الذات تبدأ من خلال الموت. يا لهم من عظماء أولئك الرجال الذين استمعوا لهذا الأمر من الله سبحانه وتعالى فأتبعوه».

(عن كتاب كوير)

إن من تعرف على الدكتور علي شريعتي من خلال مؤلفاته، يدرك جيداً بأن ليست مؤلفاته وأفكاره البناءة وحدها مدعاه للوعي، بل طريقة حياته تعد أيضاً انعكاساً لاستنتاج صحيح وعميق حول كنه العالم، ذلك الاستنتاج الناشيء من إيمانه الراسخ.

وعليه عمدنا هنا أن نعرض وصفاً لحياته الملائمة بالعمل والنشاط والإيمان والعشق والمسؤولية، أي وصف حياة إنسان واع وموضح، مفعمة بنكران الذات، ونعتذر منه ومن زملائه فيما لو ظهرت نقية في هذا العرض.

وصف لحياته

في الواقع، لم تكن حياته سوى كيف ولماذا ولأجل من؟ . . . وعليه فإنه لم يشغل ليعط معنى للحياة وشكلًا خاصاً لها فحسب، بل كان يشعر بالعبء الثقيل للأمانة الصالحة التي ورثها عن آبائه وأجداده. كان يأمل أن يصل بها إلى مقصدتها بالسرعة الممكنة كما ورد في نهاية رسالته التي قال فيها بأنه لم يكن ليفرط حتى بلحظة واحدة من حياته في اللامبالاة واللامجدوائية:

«بِلْطَفٍ وَتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِينَ يَجْعَلُنِي خَجْلًا أَمَامَ
مَظَاهِرِ الْمُحْبَةِ الْمُشْفُوعَةِ بِالْمَعْجَزَاتِ مَا تَأْلِمُ قَلْبِي فَكَانَتْ رَحْمَتُهُ
قَدْ سَبَبَتْ لِي الْانْفِجَارَ بَعْدَ الْهِيجَانِ، وَدُونَ أَنْ أَكُونَ أَهْلًا لِسَلْكَتْ
طَرِيقًا لَمْ أَفْرَطْ فِيهَا حَتَّى بِلْحُوْزَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ عُمْرِي لِأَرْتَكِبْ حَرَامًا،
فَوَفَقْنِي اللَّهُ لِكَيْ أَعْالِجَ مَا أَحْسَتْ بِهِ مِنْ ضَعْفٍ، وَلَا تَعْلُوهَا لَذَّةٌ
عِنْدَمَا يَمْضِي الْعَمَرُ الْقَصِيرُ بِهَذَا الشَّكْلِ».

(من كتاب مع معارفنا المخاطبين)

لم يحمل على أكتافه عبء أمانة أجداده والصالحين منبني البشر فحسب، بل حمل عبء المسؤولية الكبرى في البحث وتقصي الحقائق والعدالة، التي فرضت على كاهل المستضعفين والمظلومين على مر العصور، كان يشعر بها كأنها الأمانة ذاتها التي وضعت على كاهل (الحسين وارث آدم) ونفسها التي حملتها السيدة زينب عليها السلام في قصر يزيد، الأمانة بعينها التي يحس بثقلها عباد الله في الأرض :

«مَنْ هَذَا؟ شَبَحُ الْاَنْزُوَاءِ وَالْغَرْبَةِ وَالْهَزِيمَةِ وَخَيْبَةِ الْأَمْلِ
وَالآَلَامِ، فِي صَحْرَاءِ مَغْطَأَةِ الْبَلْدَمِ، وَمِنْ بَحْرِ الشَّهَادَةِ الْأَحْمَرِ رُفِعَ
هَامَتْهُ وَظَلَّ وَاقِفًا وَأَطْبَقَ الصَّمْتَ».

(من كتاب الحسين وارث آدم)

كان يؤمن بأن الوراثة هي أصل فلسفتي وعقائدي في الإسلام، وبين على أساس ذلك الواقع والحوادث الماضية، الحاضر والمستقبل، في مختلف الظروف والأحوال، بمثابة مسيرة

هادفة. فيحصل أن تجد هذه الحوادث والوقائع الهدافة تتفاعل مع بعضها لتؤول إلى ترابط موضوعي فيما بينها، وقد يجد تفاصلاً أو يؤثر بعضها على البعض الآخر، ويعود كل منها حلقة من سلسلة طويلة تمتد منذ بدء ظهور المجتمع البشري وظهور سيدنا آدم عليه السلام إلى آخر حلقة من نظام التضاد والصراع في آخر الزمان. إن هذا الاستمرار المنطقي والتطور الحتمي يسمى بالتاريخ.

ولعل هذا العباء الثقيل لأمانة التاريخ، الذي لم يكن لينساه حتى ولو للحظة، فقد ورثه من أجداده والصالحين الأقربين مما أنار له كل حياته التي بدأها في الصحراء.

وعندما وفاه الأجل، كانت العقيدة التاريخية والإجتماعية تشكل منهاجاً للإرشاد الفكري لجيل الشباب، واكتشافه «الطريق الوسط» التي تلائم منطلقات عصرنا، قد عمّت أرجاء شتى من البسيطة. وقد خلف وراءه الطريق الحتمي لصالح المظلومين، بعد أن تبوا لنفسه موقع شهداء التاريخ وشهوده.

وليست ثمة صدفة أن يكون (علي شريعتي) كمن سبقه من العلماء والمؤرخين والباحثين الكبار في أصول الدين، منتسباً إلى عائلة قروية، إذ كان يفتخر بالصالحين وأجداده الذين كانوا في عداد علماء الدين الكبار في زمانهم، وكان يفتخر بأنه ينتمي إلى الصحراء بعيداً عن الضجيج والتشتت، اللذين أصبحا من الصفات الملازمة للمدن، فكتب حول هذا الموضوع يقول:

«منذ حوالي الثمانين عاماً، قدم إلى هذه القرية رجل، كان

فبليسوفاً وفقهاً قد نهل العلم من مدرسة المرحوم (ال الحاج هادي الأسرار) آخر فلاسفة سلسلة الحكماء الكبار في الإسلام، وكان تقىاً ورعاً متميز الشخصية، اختار أن يقضي أواخر أيام عمره في اطراف الصحراء وحيداً فيكون بعدها نسياً منسياً.

وكما قال المرحوم (الحكيم السبزواري الكبير) لم يكن في محاضرات (الأسرار) تلميذاً كباقي زملائه التلاميذ، إذ كان قد درس الحكمة قبل قدومه إلى قريتنا عند أحد اخواه وهو (العلامة بهمن آبادى) الذي كان استاذًا في المنطق والحكمة والفقه. كان يتداول مع (الحكيم) اموراً في اسرار الحكمة، وحسب رأي بعض أصحاب الشأن كان يرجع عليه. وبخلاف من أن ينزو في قريته (بهمن آباد) الواقع على مقربة من قرية (مزينان) ذاع صيته في مدارس وحوارات طهران، مشهد، أصفهان، بخارى والنجف. وانتشرت اصداء نبوغه وحكمته في طهران لدى ملك القاجار، فحدا به أن يدعوه ليزور العاصمة، فحصل أن اشغل في مدرسة (سبه سalar) في تدريس الفلسفة.

ولكن كان ما يراوده من حب العزلة والوحدة وولعه بالخلوة بنفسه مع الله، وهو أمر كان يدور في دماء أجدادنا، ادى لأن يقفل إلى (بهمن آباد) راجعاً، دون أن يأبه بما ينتظره من منزلة اجتماعية ومكانة دينية ومقام علمي مرموق، يوصله لزعامة الخلق والمرجعية الدينية، ومن ثم شهرة ذاتعة الصيت».

تعلم شريعتي أشياء كثيرة من حياة أجداده الطاهرين، سيمانا فلسفه البقاء على إنسانية الإنسان في زمن اتسم بالفسق والفساد، يصعب فيه البقاء عليها، في زمن نحن في أمس الحاجة فيه يوماً بعد آخر إلى الجهاد إلا أننا لم نجد إليه سبيلاً.

«كان الحكم الآخوند جد والدي، وكثيراً ما كنت استمتع فيما يحكى لي عنه. كنت أجد في هذه الحكايات المنبع الطبيعي للكثير من جذور احساساتي الكامنة في أعماق نفسي . . .

منذ ثمانين سنة، خمسين سنة، ومن قبل مجبيء إلى هذا العالم كنت أحس وجودي في وجوده . . .وها أنا الآن في غاية الامتنان لما كان عليه وما حققه».

(من كتاب كوير)

كان عم والده، واحداً من أبرز التلاميذ لدى المفكر المعروف (أديب نيشابوري) إلا أنه بعد أن درس الفقه والفلسفة والأداب، اتبع طريق أجداده ورجع إلى (مزينان). وكان شريعتي يرث تركة أجداده العلمية والإنسانية عن عمه هذا بالذات. كان يرى روحه الخالدة في نفسه، ويرى في تلك الروح الضوء الوهاج الذي أضاء له طريق حياته.

وقبل كل ذلك، كان والده استاذه المعنوي والروحي، بحيث أصبح الإبن النور المنعكس من جواهرة الأب:

«اما والدي فقد خالف سنت حياننا، حيث بعد انتهاء درسه لم يعد من المدينة، قاسى الوبيلات ولم يعد، وظل في المدينة إلى أن

حدا به أن يقرر مقارعة سكون مستنقع المدينة، فنذر عمره كله للعلم والمحبة والجهاد... وبناء على ذلك فقد خرج ببدعة - حسب سنن الأولين عندنا - فاختار أن يبقى في المدينة، وأنه ربيب هذا القرار، وورث كل الضياع والعقار التي ترك في مملكة الفقر.. لأصبح حاملاً لتلك الأمانة الغالية».

(عن كتاب كوير)

فالسيد محمد تقى شريعتي استاذ ومجاهد كبير، مؤسس (مركز نشر الحقائق الإسلامية) في مشهد، وواحد من بناء الحركة الفكرية الإسلامية في إيران. وقدم على مدى أربعين عاماً خدمات جليلة في الدعوة والإرشاد المنطقي والعلمي للدين بشكل يواكب التقدم العصري. وكان في مقدمة صفوف الذين دأبوا لتوسيعة الشباب الخريجين الجدد، للعدول عن المفاهيم الغربية الخاوية والمادية الجوفاء، والتمسك بالإسلام الذي يضمن نور الحياة.

يقول علي شريعتي بهذا الصدد:

«لعل فكرة تعيين القرآن والرجوع إليه كمحور أصلي للبلاغ والبحوث الإسلامية والشيعية، وإيجاد مذهب خاص في تفسير القرآن، في السنوات الأخيرة، مرهونة إليه إلى حد كبير».

إنَّ التأكيد على تأثير الأب (محمد تقى) على الدكتور شريعتي يأتي من هنا، وهذا يساعدنا للتعرف على الأبعاد المختلفة لحياة شريعتي. وكل من تعرف على ذلك الرجل النجيب والعالم البارز يتفق مع هذا الرأي.

ويؤكد هذا الأمر حقيقة الإنسان الذكي الصادق عندما يعتمد على معلم ماهر فإنه بلا شك سوف يشق دربه ويجتاز الموانع والحواجز الموضوعة أمامه ويسبق عصره، وبدلأ من التأثر بالقضايا يصبح بذاته منبعاً للتأثير على الآخرين بشكل فاعل ودون الخوض في الإنفعالات.

إن من عرف شريعتي - الأب - عن كثب، واطلع على أبعاد حياته المختلفة الدينية منها والعلمية، الإجتماعية، السياسية والإنسانية، يدرك عمق التضحية والمقدرة والصمود والمعرفة عنده. وأيضاً من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته الفلسفية ومن ضمنها: (الخلافة والولاية في القرآن والسنة)، (الوحى والنبوة)، (علي، شاهد الرسالة)، (موعد الأمم)، (فائدة واقتضاء الدين)، (الاقتصاد الإسلامي)، والأهم من ذلك (التفسير الجديد).

ونتيجة لذلك يعرف جيداً مدى نضاله الشجاع ضد كل العناصر التي تحول دون تفجير الطاقات الخلاقة لا بل كبحها في كل مكان، وحتى في الجامعات والأوساط الدينية، كما يدرك الدور البارز في تحليل طرق الإجابة على التساؤلات التي تراود أذهان الآخرين حول الإسلام، و اختيار طريق الصواب في خضم القضايا والتناقضات الموجودة في عصمنا، العصر الذي قلما تجد فيه أباً وإبناً على ذلك النسق:

«كان أبي أول من وضع لبيات الآفاق القيمة لروحه! إنه علمني منذ البداية فن التفكير وفن الإنسانية (أي كيف أكون إنساناً)

طعم الحرية، الشرف، العفة، عفة الروح، الإباء، ثبات الإيمان، استقلالية القلب وعدم التردد. كما علمني كيف آنس بقراءة كتبه، لقد كبرت، نشأت وترعرعت منذ السنين الأولى للطفولة والصبا بين كتب والدي وأصدقائه واكتسبت تربتي بهذا النحو.

لهذا عندما كنت انتقل من صف إلى صف خلال سنتي دراستي كنت متقدماً على زملائي الطلبة بقدر (مائة درس) وعن أغلب معلمي بقدر (تسعة وتسعين درساً) كان قد أهدى إليَّ آراءه ونظراته في الطفولة والصبا، تلك الآراء التي يمكن أن يتعظ بها الكبار في سنتي حياتهم المتقدمة بعد خوضهم أنواع شتى من الصراعات والمساعي المتواصلة خلال تلك السنوات الطوال، وتعد مكتبة والدي من أعز الخواطر التي تتملكني، وللي مع كل كتاب من كتبه حكاية، حتى أغلفة الكتب قد تركت أثراً في قلبي، وان غرفته لمقدسة، تلك التي تضم مجموعة من الماضي البعيد والوديع والصالح، فيتحقق لها قلبي حباً بها».

(عن كتاب كوير)

أما النبوغ والذكاء، فانهما يزيلان كل قيود المحيط وأغلاله، و يجعلان المرء يسبق عصره. فلو أراد الإنسان أن يستخدم قدرته للتأثير على الآخرين فيستلزمه أن يحرك الأسس الموجودة لتفوز هذه الأسس إلى الأمام وبأخلاقية تامة، ويحرر نفسه من وثاق المحيط فلا يوحى إلى نفسه بأنه مكبل بقيوده.

لقد فك الدكتور شريعتي وثاق المحيط وتعقيدات التقاليد

وقرر بعزم راسخ وإرادة ثابتة ألاً يتبع هذه القوالب الجامدة، بل يسخرها خدمة لأهدافه، فأفلح في تعامله مع الإرادة وشواخص الطبيعة. وفي الوقت الذي كان منهمكاً بالبحث والدراسة، شرع في مهمة التعليم، وشمل عمله نطاقاً واسعاً وأفاقاً متعددة من الوعي والمعرفة، مما جعل اقرانه يعرفونه بأنه قد سبقهم ومحيطة والزمن الذي عاش فيه.

فالذكاء، المحيط الملائم، والأهم منهما العقيدة الراسخة الحقة بالإسلام وشعوره العميق بتعلقه بهذه الأمور، إضافة إلى تحلية بشخصية صادقة ومتقدمة في طبيعة تفكيره وسلوكه، مكتنثه من استخدام الإمكانيات المتاحة على أحسن وجه للوصول إلى الأهداف السامية التي يروم تحقيقها، فوصف المحيط العام لتعليميه كما يلي :

«كم من النعم منها الله تعالى عليّ، وللأسف أنا أنكرها - دون جدوئي - فلم يكن أحد اجتماعياً بقدر ما كنت عليه، لقد جعلتني الأرواح غير العادية العظيمة والجميلة البناء والمفعمة بالإيثار، أن أجلس إلى جانبها وأن أوقفها لأكلمها أو أتحدث إليها. فحصل أن أنسابت تلك الأرواح في جسدي وتواجدت فيه بشكل فاعل ومؤثر، وأناأشعر في الوقت الحاضر بأنني أعيش معها، وأنها حية تعيش معي».

(عن كتاب كوير)

فيإضافة إلى كون الأرواح العظيمة - والتي تمثلت بمعلميه وأساتذته والآخرين الذين علموه الحقائق المختلفة عن الجهاد في

الإسلام - قد ألهته أشياء كثيرة، وكان بدوره النبع الفياض التواق للتعرف على الحقيقة، فسلك طريق التأمل والإلتزام والمسؤولية، وسعى للوصول إلى الكمال؛ فتخلد ذكره عند الجميع، واحتفظ بعلاقته وحنينه إلى منزله الأول وإلى عائلته وخلانه، ولم ينس الصحراء التي عاش فيها، وعندما كان يذكر اسم (مزينان) قريته، يتبسم، وتدل كل سحنات وجهه عن الرضى وعن لذة الذكرى.

كان في صباح وبدء شبابه، كالكثير من الناس، طالباً اعتمادياً، ويؤدي امتحاناته كالآخرين ويرتفقي صفاً بعد صف في كل عام بشكل اعتمادي منذ أن بدأ الدراسة الإبتدائية ثم الثانوية. وكان أثناء ذلك يتعلم اللغة العربية والعلوم الدينية. وبعد إتمامه للدراسة الثانوية دخل معهد اعداد المعلمين وذلك لشغفه بحرف التعليم، حيث كثيراً ما يوجد من لم يت السن له أن يدخل الجامعة على الرغم من كونه مؤسسة تعليمية بحد ذاته، وقد بدأ خلال تلك الفترة كتابة مؤلفات عديدة مثل: (المذهب الوسيط) في فلسفة التاريخ، وأخذ بألقائه الخطاب في (مركز نشر الحقائق الإسلامية) في مدينة مشهد.

لم يكن يحلم بالاستمرار في الدراسة التقليدية والدراسات العليا في الخارج بقدر ما كان ولو عاً بالتأمل والإلتزام والتعلم، فصار ولعه مؤثراً في تكوين شخصيته وتوجيهها الوجهة الفكرية الحسنة، فأكسبه إيماناً عميقاً وقاطعاً بالدين الإسلامي، وتعلقاً دائماً بمحیطه ومنزله الأول الذي رأى فيه منبع نبوغه.

كان لمركز نشر الحقائق الإسلامية في مشهد دوراً زاخراً

بالنشاط على طول السنوات الثلاثين، ومؤثراً في حياة الملتزمين والمثقفين لتلك المدينة. وكان له دور كبير جداً في بلورة أفكار الدكتور شريعتي، كما كان لشريعتي دور كبير بالمقابل في توسيع نشاطات ذلك المركز عن طريق القاء المحاضرات والخطب، والرد على الأسئلة وترأس الجلسات التي تعقد في مناسبات عديدة في المركز المذكور.

ومنذ ذلك الحين، عرج الدكتور شريعتي إلى الكتابة والخطابة بصفتهما الوسيلة لضمان التحول الفكري وتعزيز الإيمان، مما حدا به أن يتبع هذه الطريقة دوماً باستخدام قلمه ولسانه الفصيح.

كان لإتقانه اللغة العربية والفرنسية قبل دخوله الجامعة أثراً بالغاً، حيث مكتنأه من ترجمة بعض الكتب من هاتين اللغتين إلى اللغة الفارسية، ومن هذه الكتب: (أبي ذر الغفاري) من اللغة العربية و(الدعاء) من اللغة الفرنسية، إضافة إلى المقدمات القيمة والبلية التي وضعها لترجمته تلك مما يبين صراحة فكره الإسلامي وصدقه.

كان يرى في الإسلام بين المذاهب الفلسفية المختلفة وبين الإشتراكية والرأسمالية، مذهبًا وسيطًا، فضمن تعامله مع الجوانب الإيجابية والمميزات الخاصة لبعض المذاهب الفكرية الأخرى، كان يعرج إلى تفنيد بعض ما ورد في تلك المذاهب.

كان يبعث الأمل في الحركات العقائدية المناهضة للإمبريالية في رقعة واسعة من العالم الإسلامي من شمال أفريقيا إلى

أندونيسيا، فكان يحس الآلام التي يعيشها المسلمون هناك ، وكانت ترجمته لكتاب (أبي ذر) و(الدعاء) - على الرغم من صغر حجمهما - وهي من نتاجات عصر شبابه ، ما جعله يتوجه للمراجع الأصيلة في الإسلام ليستنبط منها الجديد من الحكم والمواعظ حول سيرة النبي الأكرم ﷺ والوجوه الدينية الأخرى على مز التاريخ الإسلامي . وقد ترك الكتابان المذكوران أثراً كبيراً على أفكار شريعتي الشاب .

وعندما تأسست كلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٩٥٦ في جامعة مشهد ، تمكّن شريعتي من الانضمام إليها ، والإستمرار بتحصيل العلم إلى جانب عمله التعليمي . وكثيراً ما كان يبحث في القضايا ويناقش أساتذته في مجالات الفكر المتعددة ، فاكتسب تجربة شُقّ بواسطتها طرقه في النهج الفكري وتابعه أكثر فأكثر . وحتى في الدروس التي كان يحضرها كتلميذ لم يكن يقتنع أن يمضي الدرس دون اشتراكه في نقاشات موضوعية تهديه والآخرين سواء السبيل .

لقد أثارت له هذه الأمور آفاقاً في البحث وتقضي الحقائق وشغفًا متزايداً للتتبع تاريخ الأديان وتاريخ الإسلام وفلسفة التاريخ ، وطرح الكثير فيما يخص فلسفة التاريخ لدى (تويني) وله انتقادات على موارد عديدة منها .

لقد أبدى شريعتي دفاعاً مستميتاً عن الحقيقة والعدالة ، وأغار أهمية خاصة للواقع والأحداث الدينية والإجتماعية والسياسية المؤثرة في مصير الناس ، معبراً بذلك عن استقلاله الفكري والعقائدي .

لم يستطع أن يغض النظر أو أن يختار الصمت القاتل مقابل الاجراءات التعسفية التي اتخذها الحكام الجائرون في إيران، وخاصة بعد المؤامرة التي أطاحت بمصدق عام ١٩٥٣م، فقام بمحاربتها والنضال ضدها، على الصعيدين السياسي والإجتماعي، إذ سلك طريق توعية الجماهير وتبيين الحق عن الباطل وتعبيتها بهذه المواجهة، وذلك عبر خطبه وكتاباته ونشاطاته الأخرى التي لاحقها بسببها أزلام النظام الشاهنشاهي.

كان يحارب على جبهتين في آن واحد، الأولى ضد المتقوقيين والتقليديين من المسلمين الذين أنزروا في زاوية من زوايا المسجد، وعزلوا الإسلام عن المجتمع، وأبدوا ردود فعلهم السلبية إزاء أية حركة فكرية حرة تبرز في المجتمع، وذلك لكونهم قد أسدوا ستاراً مظلماً على وجه الإسلام المشرق، واختاروا لأنفسهم مخيطاً خلف ذلك ستار.

أما الجبهة الثانية التي كان يحاربها شريعتي فهي التي يشكلها المثقفون الذين اغترروا عن ذواتهم، فقدوا من سبقوهم ممن تمسكوا بنزعنة العلمية الجديدة - العلمانية - فاستبدلوا خندقهم الأصلي بذلك الموضع، وكانوا يبدون تواضعهم أمام تباهي العصر الذي ملاً فساداً وغروراً وعنجهية.

في جامعة السوربون

لقد سنت الفرصة لشريعتي عندما كان في جامعة السوربون - باريس - مدة خمسة أعوام، ليتخلص من وسوسة وقلق ما كان يرواده من احتمال أفال رغبته في الاستمرار بالبحث والدراسة،

ومن ثم الاطلاع على مراجع وكتب لم تكن موجودة في إيران أو على أقل تقدير لم تكن في متناول يده. لقد استطاع أن يتعرف على المذاهب الفكرية المختلفة، الإجتماعية منها والفلسفية، وأن يتصل بروادها، ويدرس الأبحاث التي كتبها الفلاسفة والعلماء والكتاب أمثال: (هنري برغسن)، (البير كامو)، (جان بول سارتر)، (شوارتس) وعلماء الإجتماع: (غورفيج)، (جان بيرك)، والمستشرقين مثل: (لويس ماسينيون).

لقد اتجه نحو الدراسات الإسلامية وعلم الإجتماع بصورة خاصة، وشرع بها بشكل رسمي ومنظم. وقد ترك النهج التحليلي والإنتقادي لعلم الإجتماع الفرنسي تأثيره عليه، ولكن وبالرغم من اتجاهه لهذا الضرب من علم الإجتماع، أصبح يواكب بحوثه بحيث جمع بين علم الإجتماع والرؤية الإجتماعية المستنبطة من فكره وعمله.

فلم يكن مقتنعاً بما جاءت به (البوزتينية) التي تنظر إلى علم الإجتماع نظرة علم مطلق، ولم يرض بالاستنتاجات الممحضة للماركسية، على أن أيّاً من هذه الطرق لم تكن لتدرك أو تحلل الحقائق في البلدان غير الصناعية أو ما يسمى بالعالم الثالث.

كان شريعتي منهمكاً دوماً في البحث عن نوع من علم الإجتماع دون الاعتماد على التحوّلات التي تحصل في بيان المجتمع الرأسمالي أو النظام الشيوعي، بحيث يتمكن علم الإجتماع هذا من أن يعبر عن تحليل حقائق الحياة للأفراد والمرتبطين بالإمبريالية والتي تقبلها الأطراف الشيوعية في أوروبا الشرقية. ولكن

مع وجود هذه الحالة ، دأب أولئك الأفراد مراراً لخوض نضال دائم في سبيل تحقيق أهدافهم في نيل الشرف والاستقلال .

كانت فترة إقامة شريعتي في فرنسا متزامنة مع هيجانات الثورة الجزائرية ، التي اتخذت خلالها الأحزاب والتكتلات السياسية المختلفة في فرنسا ، وحتى المفكرين وعلماء الإجتماع ، اتخذوا مواقف مختلفة ، سلبية وايجابية من مصير الشعب المسلم الذي استبدته قوة رأسمالية غاشمة ، ذلك الشعب المسلم الذي رزح لمدة قرن كامل تحت نير تلك القوة ، فقرر أن يعمم حربه الجهادية القاهرة ومعركة الموت والحياة بمفهومها الواضح إلى داخل فرنسا . وكان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري يخلص إلى الحقائق الجماهير بفرنسا ومعارضتهم للثورة الجزائرية ، موقفاً يدعو للتأمل ، إذ أنَّ فيه الكثير من الدرس والعظة .

لقد اهتم شريعتي بما يجري في الجزائر اهتماماً بالغاً ، لأنَّه لم يجد نفسه بعيداً عن نضال الشعب المسلم هناك ، بل يرى نفسه شريكاً مع المصير الذي يناضلون من أجله . كانت الثورة الجزائرية الدامية يُنظر إليها من زاوية أخرى ، وهي اعتراف العدو قبل الصديق بكونها نموذجاً للكفاح ضد الإمبريالية ، فقد دخل عشرة ملايين مسلم من القرى والأرياف والجبال ليواجهوا عدواً يعد من أشرس المدافعين عن القيم الرأسمالية ، جند قوة مؤلفة من خمسين ألف جندي مستخدماً تقنية عسكرية عالية ، فضحى الشعب المسلم بمليون شهيد مجرداً العدو على الإنسحاب والإنسبياع لمطالب الشعب الجزائري المكافح .

إن القضية المهمة التي يجب أن أتطرق إليها هنا هي عدالة مطالب المسلمين، سواء كانت على صعيد العالم العربي أو ما وراءه، الذين ساندوا الحركة الجزائرية بصفتها قضيتهم. وبأمر من الجبهة الشعبية لتحرير الجزائر ترك الكثير من الطلبة المسلمين دراستهم، كان من بينهم طلبة في السنة الأخيرة من مرحلتهم الجامعية في فروع الطب والهندسة، والتحقوا بصفوف المجاهدين الجزائريين وتولوا واجبات ومسؤوليات مختلفة في التصدي للعدو وتحرير البلاد.

إن بعد الآخر للنضال هو تبلور الأفكار والنظريات الحاصلة من ذلك النضال. وان التحليلات الفلسفية، علم الاجتماع وعلم النفس كانت مطروحة على بساط بحث القضية الجزائرية لأجل فهم وتوضيح الجذور العميقة لتلك القضية.

إن هذا النشاط النظري الذي شهدته الساحة الجزائرية - إضافة إلى العمليات الفدائية - قد انعكس في مقالات عديدة وبلغات مختلفة في كل أرجاء العالم، وكانت الصحفة الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير الجزائر تقوم بدور فعال في شرح أبعاد القضية الجزائرية، وان للمقالات والتحليلات التي كتبها المفكرون حول النضال التحرري الذي قام به الشعب، أصداء في كل البلدان. ولا يخفى بأن كان لبعض المفكرين الفرنسيين موقف إيجابي في هذا العمل الإعلامي.

كانت لمقالات (فرانس فانون) أهمية خاصة والذي كسب من

خلالها اهتمام الآخرين. كان (فانون) هذا من أهالي مدينة (مارتينك) الواقعة في جزر (انتيل) وقد اكتسب التبعية الجزائرية، وهو من علماء النفس المعروفيين. انضم إلى صفوف الثورة الجزائرية وكتب مؤلفات مهمة مثل : (معدبو الأرض) و(السنة الخامسة من الثورة الجزائرية).

لقد اكتشف (فانون) من قبل (جان بول سارتر) فعرفه للمجتمع الأوروبي . وفي الواقع أن الدكتور شريعتي كتب مقالة عنه عام ١٩٦٢م نشرتها احدى المنشورات السياسية - الإجتماعية للطلبة الجامعيين الإيرانيين في أوروبا ، وشملت مقالته بحثاً مهماً عن (فانون) إذ عرف من خلالها كتاب فانون (معدبو الأرض) بأنه تحليل عميق عن الحالة الإجتماعية والنفسية للثورة الجزائرية ورأى فيه هدية للمناضلين الإيرانيين . وبعد أن أوضح شريعتي بعضًا من نظريات (فانون) الذي لم يكن معروفاً لدى أحد من قبل ، وترجم بعض الأقسام من كتبه ، استطاع بها أن يوصل إلى الحركة التحريرية للشعب الإيراني اصداء فكر (فانون) في الثورة ، إذ كتب عبارات تجلئ فيها تأثيره بفانون :

«لنذهب أيها الأصدقاء ونبحث عن ساحل آخر ، ونخترق جدران الليل الظلماء ، وتسلل حثيثاً من الظلمة التي عتمت حياتنا لنخرج منها دون رجعة ، وعندها يجب أن نجد سبيلاً للوصول إلى ذلك اليوم الجديد الذي سنرفع فيه رؤوسنا شامخة فخرًا بالمقاومة والصلابة التي أبديناها ، ذلكم يوم الوعي والفكر الجريء الدائم التحدى».

لقد قام الدكتور شريعتي بتعريف أفكار (فانون) للملأ، فأصبح الأخير صديقاً فكريأً له، يفهم دعواته الصادرة من أعماق روحه، فأصبح معروفاً في إيران، وبعدها قام أفراد آخرون بترجمة أعماله ومؤلفاته في إيران، فاشتهر بين الإيرانيين أيضاً.

ولشريعتي دور كبير آخر في التعريف بأفكار الثوريين من القارة الأفريقية، ومنهم: (عمر او زغان) الذي كتب (أفضل الجهاد). كما قام بتعريف عدد آخر من المفكرين والشعراء غير المسلمين، وذلك لإيمانه بأن الأفكار المتبلورة التي جاءت بهاحركات التحررية الشعبية، الإسلامية منها وغير الإسلامية، يمكن أن تكون حالة مرنة من الفكر الجديد يستلهم منها المسلمون الإيرانيون في نضالهم الاجتماعي السياسي. وفي الواقع كان ينصح أصدقائه وتلامذته لأن يقوموا بدورهم باكتساب الفائدة القصوى من الحركات الصحيحة والصادقة للنضال الإسلامي.

لم يكن شريعتي في دراسته لآثار وأفكار الباحثين والكتاب الملزمين الأجانب في أوروبا، واتصاله الشخصي مع بعض أولئك، ليتأثر بأفكارهم السلبية (كما حصل لبعض المفكرين) بل خلص إلى أفكار جديدة، خلاقة وأصيلة أخذ يعرضها على الناس.

لقد صبَّ شريعتي جهوده في دراسة علم الاجتماع وتأثيره على الحركة والظواهر الواقعية للمجتمع أكثر من علم الاجتماع الرسمي الصرف. لم تكن دراسته للحقائق والظواهر الواقعية تخلو من النقد. وخلال مدة إقامته في باريس، التي انتهت بنيله شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، كان منهما في إقامة النشاطات

الإجتماعية التي تصوغه إنساناً واعياً ومجاهداً بارزاً، بدلاً من أن يقضى أوقاته منكباً على مطالعة الكتب فقط.

يمكننا أن نتبين مزيته عن اقرانه وزملائه الطلبة، بتشخيص ثلاثة أنواع من نشاطاته، وهي : نضاله الفكري ، نضاله العلمي ، ونضاله لرسم طريق متكامل لنظام تعليمي حقيقي . وكانت كل هذه النواحي الثلاث تخدم المصالح الشعبية ، أو بالأحرى مصالح الأمة ، بدلاً من افتعال الضجيج الذي يشوب النشاط السياسي للطلبة ، إذ أنه اختار أن يرسم الطريق القيم والأمثل للشعب بما يتضمنه ذلك الطريق من مقومات ديمومته . فانصب كتاباته ومساعيه في ذلك الطريق ، وكان يدرك أكثر من غيره حركات القواعد الشعبية كمؤشر يهتدي به قبل غيره .

لقد تزامنت فترة إقامة شريعتي في باريس مع مرحلة حياتية جديدة في تحول الجناح التقديمي للحركة الدينية داخل إيران . ولم تمر فترة طويلة حتى هبَّ نسيم الحرية على إيران ، فحدا بالسلطة الحاكمة أن تعتقل وتختطف وتلاحق رواد الحرية في البلاد ، وحاكمت المعتقلين وزجتهم في السجون ، وقامت بتعذيبهم بوحشية متناهية ، هادفة من وراء ذلك اجهاض وتدمير الوعي الوطني والديني ، وخاصة الأفراد الملتزمين من أعضاء (حركة تحرير إيران) المجموعة الوحيدة التي قدمت عقيدة وسياسة واضحة ، وخططها عملية لتنتهجها ضد السلطة الحاكمة في وثبتها يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٣ م (١٢ محرم عام ١٣٨٣ هـ) فأعطت للحركة الإسلامية في إيران بعداً جديداً ميزت فيه

المجاهدين الحقيقيين عن المحتججين الفصليين .

كان شريعتي شغوفاً بأفكار هذه الحركة ويراهما نابعة من ذاته ، ولهذا لم يتخلى ولو للحظة واحدة عن كتابة وتبين وتحليل حقيقة الحركة الإسلامية المقتدرة التي قادها الإمام الخميني ، في زمن كانت اغلب المنشورات الصادرة باللغة الفارسية تحمل في طياتها لحناً غير ديني أو حتى منافياً للدين ، رغم تجلّي الحقيقة المبنية على وجود حركة إسلامية مستندة على عقيدة دينية تقدمية .

ولا يخفى ، من أن مفكرين إيرانيين خارج البلاد أطبقوا الصمت ، سواء لجهلهم وعدم استيعابهم لأفاق الحركة الإسلامية ، أو متعمدين للوقوف بوجه الصحوة الإسلامية ، فغضوا النظر عن الحقائق الاجتماعية في إيران ، وأنكروا جوهر الواقعية للنضال الشعبي فيها . فعرضوا زوايا ضيقة من الأحداث ، بل لم تسلم الصحوة من انتقاداتهم في كثير من الأحيان .

ولحسن الحظ استطاع شريعتي وبالتعاون مع بعض زملائه الذين يتفقون معه في الفكر ، أن يؤسسوا أكثر الصحف الإيرانية انتشاراً باللغة الفارسية في أوروبا . فجعل من تلك الصحيفة لسان حال الحركة الشعبية في إيران ، ومساندتها وعرض حقائقها ، وذلك بتنسيق الأفكار المطروحة من قبل المثقفين خارج البلاد حول نضال الشعب الإيراني في الداخل .

وبكلمة واحدة ، إن الفترة الزمنية التي قضتها شريعتي في فرنسا لمواصلة تحصيله الدراسي كانت مقرونة بنشاط دائم جسد فيه

نفوذه وموقعه بين الإيرانيين في الخارج. وعلى الرغم من أهمية المجالات المختلفة لنشاطه، فإنه لا يمكننا أن نعرض جزئياتها الكاملة هنا، وإنما أرتأينا أن نلخص بعضًا من أعمال هذا المفكر والمناضل الكبير.

العودة إلى إيران

نشرت صحيفة كيهان - وهي شبه رسمية تصدر باللغة الفارسية في إيران - مقالاً بمناسبة وفاة الدكتور شريعتي جاء فيه:

«بعد أن ارتأى شريعتي عام ١٩٦٥م العودة إلى الوطن والعيش بين الناس، وخدمة وطنه وشعبه وتعاليم دينه الحنيف، توجه إلى إيران برفقة زوجته وطفليه...»

وللمرحوم الدكتور شريعتي نظرات قيمة بالنسبة للمجتمع الإيراني، إذ أوجد نهجاً جديداً لمعرفة الدين، وحارب ضمن تواجده في خندق الإسلام الأصيل، كل القيم الداعية للخرافة وزرع الفرقة والفتنة والتشتت بين صفوف المسلمين، والتي تضر بأهداف الشعب وتحرف نضاله... وب مجرد مجئه إلى إيران زاول المرحوم الدكتور شريعتي عمله كأستاذ في جامعة مشهد!»

(عن صحيفة كيهان ٢٣/٦/١٩٧٨)

(٤/٤/١٣٥٦ هـ ش)

إذا قبلنا ما جاء في الجملتين الأولى والثانية من مقال الصحيفة، فإن الجملة الثالثة ستكون عين المنطق. فلو كان شريعتي

قد جلب معه مثل هذه الهوية القيمة إلى إيران، فيستلزم أن يكون عمله مناسباً كأستاذ في الجامعة. ولكن هذا ليس كل ما حدث. فمجرد أن دخل الدكتور شريعتي إيران عن طريق المنطقة الحدودية (بازركان) - بين تركيا وإيران - بعد خمسة أعوام من الفراق، اعتقل أمام عيون زوجته وطفليه وأودع السجن فوراً. ومن ثم حرم من رؤية أبيه مدة طويلة. حتى بعد أن أطلق سراحه عين معلماً في الثانويات المختلفة والمعهد الزراعي، وهو المستوى الذي كان يعمل فيه قبل سفره إلى الخارج، رغم حصوله على شهادة الدكتوراه، وهكذا «كان تواجهه قياماً وسط المجتمع الإيراني».

أجل، فلدي عودته إلى إيران، هكذا تم استقباله. لقد كان وطنه في كل فترة حياته سجناً له، تعرض فيه إلى كافة أنواع الضغوط وقاسى أنواع العذاب والمحن. إلا أن كل هذا جعله أكثر صلابة في مواصلة نضاله.

وبعد عدة سنوات أصبح استاذاً في جامعة مشهد، دون أن يتبع طلبه للإشتغال استاذاً في جامعة مشهد، فكانت حالة أقرب للالتباس منه إلى الصدفة، وعندها نذر نفسه لتعليم وارشاد جيل الشباب، وأصبح الطلبة الذين تلمندوا على يديه فخورين به، وتهافت الكثير على سماع خطبه وحضور دروسه ومحاضراته بشكل أقلق مسؤولي الجامعة. وبسبب ضيق أفق، وحسد وتعنت وحقد المسؤولين أولئك، حالوا دون قيامه بألقاء المحاضرات، فلم يعد مسؤولاً لو الجامعة يتحملون خطبه ومحاضراته، مما حدا بشريعتي أن يرجح التدريس بشكل حر على الشكل التقليدي، لأنه لم يجد ثمة تفاوت

بين الحرية والمعرفة. على أية حال نال فخر التقاعد الإجباري ! .

لقد منحه التقاعد من التدريس في جامعة مشهد فرصة ليدخل مرحلة جديدة من النشاط الدؤوب، حيث أخذ بكتابة التحليلات وإلقاء الخطب والمحاضرات حول أمور اجتماعية ودينية يفيد جيل الشباب ويلائم التيار الفكري الجديد وكل شرائح المجتمع . فكان عاقبة هذا العمل أن قضى خمسماة يوم في زنزانة انفرادية دون محاكمة ، وبالتالي استشهاده في المنفى !

لقد كان شريعتي مؤمناً بالتوحيد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وتفكيرأ يشعر بالمسؤولية الاجتماعية ، ولم يتخلّ عن مسؤوليته هذه أبداً . وقد استطاع أن يبرهن ، رغم تفشي الجهل ، كيف أنه سخر كل من : حياته ، ومطالعاته ، وعمله ، وحتى عائلته ، لخدمة هدفه وابلاغ دعوته .

لقد منح كل وقته للجهاد والنضال والإرشاد على أمل أن يحرز هذا الجيل المنسي واللاوعي من الحيرة والهذيان الذي يرفل فيه .

على الرغم من وجود العقبات والمشكلات ، وعلى الرغم من المساعي الكبيرة التي بذلت لمصادرة جهوده وأثاره من قبل العناصر الفاسدة والوضيعة ؛ استطاع أن يترك الأثر الذي أراده للمجتمع الإيراني بفضل منطقه القوي ومنهجه العقلاني في فضح مرامي أعداء الشعب ، فوجه ضربات ماحقة لموقع الأيديولوجية الرجعية والإمبريالية الأجنبية . وأصبحت آثاره المتعددة مشعلاً ينير الدرب للجيل الجديد . طاب ثراه .

أفكاره ومؤلفاته

لم تكن لشخصية ونشاط شريعتي أهمية بقدر ما كانت لمؤلفاته وأفكاره، تلك المؤلفات التي سجلت على أشرطة تسجيل لكونه قد ألقاها ضمن محاضراته، أو ملاحظاته التي كتبها أثناء التدريس، فتم طبع ونشر عشرات الآلاف من النسخ من كتاباته ومقالاته، تلقتها الأيدي الشابة لتابع باشتياق ولهمة الإطلاع عليها، مما تركت أعمق الأثر في قلوبهم. إن كل ما كتب أو قيل من قبل الدكتور شريعتي كان نابعاً من الصدق والإيمان، لذا تراه يحظى بالإقبال الكبير لدى الجميع.

«الرجل الصالح لا يتركه الزمن ولا تتركه الحياة لوحده، فحياته تدافع عنه، والزمن يبرئه، ولا يمكن الأنذال من أن ينسوا الطاهر من الرجال مهما رموه بحجر أو اطلقوا عليه من كلام».

(عن كتاب كوير)

في نظرة عابرة لمؤلفاته المثمرة والعميقة الأصلة، يتبيّن لنا بأن شريعتي لم يكن يؤمن بالأعمال السطحية والظاهيرية. ومن هنا فقد تمكّن بواسطة قلمه المقتدر وأسلوب بيانه الفصيح أن يعبر عن أعمق الأفكار الفلسفية وأعقد الموضوعات العلمية والاجتماعية فيصوّغها مفهومه للسامع والقاريء. أما الإنسان المتعصب فهو وحده الذي لا يقبلها. ولكن قد يكون هناك شيء من الإبهام في بعض كتاباته، من خلال استفاداته من التمثيل والإستعارة واللغة الرمزية، والتعمق في الكلمات، ومثل هذا يولد الريبة والشك لدى

بعض الأفراد ممن يفكرون بصورة سطحية وهامشية، ومثل هذا الأمر جعل بعض الأفراد - ضيق الأفق - يواجهون كتابات الدكتور شريعتي باعتراضاتهم. لقد اعتناد مثل هؤلاء أن يطرحو انتقاداتهم الواهية عندما يتعاملون مع فكر أو بحث مرن وحيوي، وإن ما كان يرمي إليه أولئك الناقدون ينطوي على أذواقهم المنحرفة، وقد نسوا قوله تعالى: ﴿وَجَدَلُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحَسَنٌ﴾.

على الرغم من أن نظريات شريعتي تتسم بطابع الدعوة للتمسك بالدين، إلا أن كتاباته تضمنت سبل المعرفة والأسس الفلسفية والتاريخية، وأسس علم الاجتماع بصورة واضحة، مستعيناً على ذلك بالعمل والانعكاسات الدائمة للياليكتيكية.

نستطيع القول طبقاً لوجهة نظر شريعتي، أن التفكير الصحيح مقدمة للمعرفة الصحيحة، والمعرفة الصحيحة مقدمة للإعتقداد، وأن توفر هذه الميزات الثلاث في الضمير الوعي واليقظ، وفي آية حركة، من الناحيتين العملية والنظرية، يوصل إلى الكمال.

عندما تكون العقيدة سطحية ويكون الإيمان سطحياً أيضاً دون وعي، فسرعان ما تتحول هاتين المزietين إلى ضيق الأفق وتبعية عمباء للخرافة، وتصبحان حجر عثرة أمام بناء المجتمع. في بدون التحول العقائدي لا يمكن أن يحدث أي تحول عميق في المجتمع، ففي عصرنا الجديد الذي ظهرت فيه تحولات عديدة يستلزم أن نوجd تحولاً فكريأً وعقائدياً.

و قبل أن يظهر هذا التحول بهيئة حركة عامة، ينبغي أن

يترسخ في أعماق وجود المرء، وهذا يستدعي أن تبعث روح الحركة والنشاط في المؤسسات (المقدسة) التي مضى عليها زمان طويل من السبات والسكون، وذلك لكي تؤدي دورها الأساس في حركة وجود المجتمع.

إن المعرفة الصحيحة للإسلام تأتي على طريق فهم فلسفة التاريخ، وتنتسب إلى التوحيد وعلم الاجتماع حول الشرك، وهي مؤشر للحقائق الاجتماعية.

إن التحليل التاريخي الذي اتبته الدكتور شريعتي في كتابه (الحسين وارث آدم) يبين بأن الإسلام لم يكن عقيدة إنسانية تقتصر على زمان ومكان معينين، بل هو تيار يسري في كل تاريخ البشرية، نشأ من ينابيع جبلية بعيدة جداً، وقبل وصوله إلى البحر مز بالصخور الموجودة في طريقه. ولا يمكن لهذا التيار أن ينقطع أبداً، وفي بعض الأحيان يظهر الأنبياء والأولياء ليُسرّعوا بحركة هذا التيار. وما شهدته التاريخ من حروب فإنها كانت تدور بين الحق والباطل، بين التوحيد والشرك، بين المستكبر والمُستضعف، والغاصب والمحروم. وهذه الحروب والمنازعات جسّدت في قصة هابيل و Cain، وبشكل مبسط أكثر في كفاح موسى وهارون ضد فرعون، إذ مثل الأخير الجبروت والثروة وتزوير التاريخ بصورته المثلثة.

لقد شكلت رهبة الملائكة من جهة، وظهور أفراد أقوى منهم وأكثر حيلة (طبقة المترفين) من جهة أخرى شكلتا معاً طبقة

مستثمرة (بكسر الميم) تنازعت مع الأنبياء، في حين وقف المحرومون والمستضعفون والمؤمنون إلى جانب الأنبياء والشهداء. فالإيمان بالتوحيد يعدّ من مسؤولية التزام أولئك الذين يقرّون به وهو أمر غير قابل للتشتت، وعلى هذا المنوال ينبغي على المجتمع الذي يؤمن بالتوحيد أن يستعين بالجهاد بشكله العملي، إذ يرجع عهد النضال المستمر إلى فجر ظهور التاريخ الإجتماعي لبني البشر في زمن آدم، وإن حملة أعلام النضال في سبيل تحقيق العدالة كانوا دائماً من الأنبياء والصالحين، وعليه فالحركة الاجتماعية للبشر تقترب وتتناسق مع النظرة التوحيدية للعالم.

لقد وضع عبء أمانة التوحيد بعد الأنبياء على كاهل الأئمة، أي على علي عليه السلام ومن خلفه. فعلى مر الزمن تأصل التشيع بفعل رفض علي والحسين ثم زينب. ومن ثم استبدل في العهد الصفوي وما بعده، حيث استخدموه كأدلة لفرض سيطرتهم وإغباء ثرواتهم. وعلى رغم إرشاد الأئمة ظل وجه الشيعة الواقعي مخفياً تحت غبار الانتهازيين والشكاكين والأزدواجيين. فأخذ شريعتي على عاتقه توضيح الحقائق في محاضراته ومؤلفاته من مثل: (الحسين وارث آدم)، (التشيع العلوى والتشيع الصفوي)، (أبو ذر الغفارى)، (سلمان الفارسي)، (الشهادة) و(مسؤولية التشيع) و(الحج).

وتمكن ملاحظة انعكاس صوت شريعتي في هذه المؤلفات من خلال دفاعه عن الحقيقة وأحقية الإسلام. إن هذه المؤلفات بصورة عامة، تبين المحصلة الفكرية والتحليلية العميقه للتاريخ

والدين لدى الدكتور شريعتي الذي استخلصها من المجتمع بالنهج الذي عرف به.

هناك جانب آخر من اهتمامات الدكتور شريعتي الفكرية، اختص بـ(علم الاجتماع حول الشرك) «دراسة تأثير الشرك في المجتمع» الذي يتضمن تحليلًا واقعياً وانتقادياً لمجتمعات العصر الحاضر. وفي هذا المجال، سلط شريعتي الأضواء على دور المجموعات والطبقات المختلفة في المجتمع، خاصة المفكرين والمثقفين والعقائد المتنافسة، والمذاهب الفكرية الموجودة في العالم، ودور الحضارات، والثقافات المتفاوتة التي تشتراك بصفة واحدة وهي كونها عارية من الإعتقداد بالتوحيد.

كان شريعتي يؤمن بأن الإنسان المعاصر - إذا لم يكن معتقداً بالتوحد - فإنه لا يتعدى عن كونه «موجود غريب عن نفسه» وإن عمله، بنفس الوقت الذي يفقد فيه ضميره، يتحول إلى نوع من التعلم الجديد، مدعياً فيه بأنه قد حل محل المثقفين الواقعيين. انظر مؤلفاته التالية:

«العلم والمدارس الجديدة، الحضارة والتجدد، الإنسان الغريب عن نفسه، علم الاجتماع حول الشرك، المثقف ومسؤوليته في المجتمع، الوجودية والفراغ الفكري».

ووفقاً لوجهة نظر علم الاجتماع الصرف، يمكننا أن نقول بأن عدداً قليلاً جداً من المفكرين الإيرانيين نهجوا نهج شريعتي في البحث عن الحقائق الاجتماعية في مجتمعنا المعاصر. كانت

المفاهيم الإنزاعية والمجربة لا جدوى فيها حسب رأيه، وإنما كان يصب جل اهتماماته في الواقع الموجدة، والقيم، وطرق العمل والفكر، والكيان العقائدي الموجود في المجتمع الإسلامي.

ولأجل عرض مثل هذا التحليل، لم يكن شريعي يكتفي بمعرفة التيارات الفكرية في أوروبا من جهة، والحقائق الاجتماعية لمجتمعه من جهة أخرى. وفي الواقع فإن معرفة كهذه تذهب بصاحبها إلى الضلال، وتکمن في طياتها نتائج غير واقعية.

ان تحليل الحقائق الاجتماعية الموجدة يمكن تقبله فقط عن طريق المراجعة واستخدام الإصطلاحات، والتعابير والمفاهيم الموجدة في الفلسفة، والثقافة، والدين، والأدب، التي توفر بشكل كبير ودقيق في اللغات الأجنبية أكثر من النماذج التي توجد في اللغة المحلية.

إن ترجمة وتكرار مفاهيم وكلائش علم الاجتماع الغربي، والتي تعبر عن نتاج لتحليل المجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر في أوروبا والمجتمع الرأسمالي في النصف الأول من القرن العشرين، تبقى دون قيمة بالنسبة لنا، وذلك لعدم تضمنها أوجه الشبه مع حياتنا المعاصرة. ينبغي أن نحلل القيم وال العلاقات الخاصة التي تبلورت في مجتمعنا، والتي تتطابق مع جوهر الحياة والسلوك الاجتماعي والحقائق الموجدة في المجتمع وردود الفعل النفسية للأفراد ازاء كل هذه الحقائق. وعليه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار صورة المجتمع الإيراني التي تشكلت في التاريخ الإسلامي. ومع

تقديم نظام جامع للإصطلاحات والمفاهيم المتعلقة بعلم الاجتماع يمكننا أن نحلل الأمور. ومن هذا المنطلق فمصطلحات مثل: الإمامة، العدالة، الشهادة، التقوى، التقليد، الحج، الصبر، الغيبة، الشفاعة، الهجرة، الفكر، الشرك والتوحيد وأمثالها هي ناطقة أكثر من الإصطلاحات الأوروبية.

كان شريعتي يضع الواقعية والحقائق نصب عينيه، ويتجنب التفكير المجرد والانتزاعي. كان واحداً من علماء الاجتماع الواقعيين والملتزمين، إذ تمكن - باستخدام نهج خاص وفكراً إسلامياً أصيلاً - أن يذهب أبعد مما ذهبت إليه الماركسية في البحث عن القضايا الاجتماعية. كما تمكن من تطبيق نهج تاريخي ديني عميق لعلم الاجتماع المعاصر في الإسلام، وثبت أسسه وفق آفاق جديدة.

لقد قام الدكتور شريعتي بتحليل واقعي لتلك الآفاق، إذ أخذ بنظر الإعتبار الأبعاد الاستاتيكية للمجتمع، أي كيانه الحالي من حيث العمل، والقيم وعقائد المجموعات الدينية وغير الدينية المتفاوتة. والأبعاد الديناميكية للمجتمع التي تعني التغيرات والتحولات التاريخية للأمة الإسلامية والمجتمع الإيراني في فترات مختلفة.

أما ظاهرة (الحياد) في علم الاجتماع فإن شريعتي لم يكن ليقبل بها. كما لم يكن يحبذ في عقيدته أن يكون الباحث الاجتماعي مشرفاً اجتماعياً فقط، حيث شهد عالم اليوم أخيراً

فقدان مفهوم الحياد العلمي بشكل كبير، وقد حل الإلتزام والإشتراك الاجتماعي محل المشاهدة والوصف.

بناءً على هذا، فمن الأفضل أن تدرس مؤلفات وأفكار شريعتي وفق وجهة نظر علم الاجتماع.

لقد أسس الدكتور شريعتي أسس علم اجتماع اسلامي واقعي ذا ابعاد مختلفة، وكان رائداً في ذلك.

والشيء المهم لنا هو أن بحثه للتاريخ، وفلسفة التاريخ، الدين، والشريعة وعلم الاجتماع كان ضمن إطار النظرة التوحيدية للعالم. وعليه فإن مسألة التوحيد ذاتها تعد أساساً فكريأً وعقائديأً لفلسفة التاريخ، إذ أنها تكشف عن ماضي الإنسان والمجتمع البشري، وهي المسؤولة عن تنبؤ المصير الذي ينتظر الإنسان في المستقبل.

إن كل تحليلاته الفلسفية، والتاريخية والعقائدية - على حد تعبيره بكل صراحة - ناجمة عن إيمانه بالتوحيد :

«التوحيد برمتة منزل من السماء إلى الأرض ، وهو يقترب في المجالات التعليمية والتحليلية والبحث والجدل الفلسفية والكلامية والعلمي ، ليتنازع مع بقية المفاهيم الاجتماعية ، ويطرح نفسه وما تنتهي من قضايا في ثناياه ، ليعين العلاقة بين المجموعات الاجتماعية ، والعلاقة بين الطبقات ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ، والأبعاد الاجتماعية المختلفة ، والبنية الفوقيـة والتحتـية للمجتمع ، والمؤسسات الاجتماعية ، والعائلة ، السياسة ، السلوك وال العلاقات

الإجتماعية والعائلية والفردية والطبقية والمسؤوليات الفردية والجماعية ازاء المجتمع، لتصبح لهذه المجتمعات الإجتماعية ركائز فكرية في التوحيد. وبصورة عامة، فالتوحيد - وفق ما ذكرنا - يعد حجر الأساس للعقيدة، والترسانة الفكرية لبناء المجتمع التوحيدى، ذلك المجتمع الذى نمت بنيته التحتية المادية والإقتصادية دون تضاد (التوحيد الإجتماعي) كما يتضمن البنية التحتية الفكرية دون تضاد (التوحيد العالمي) أيضاً.

(عن كتاب معرفة الإسلام)

فأصبح لهذا النهج الجديد الذى طرح فكرة التوحيد بأرضية اجتماعية، وربط بين فهم المجتمع ومفهوم التوحيد، مؤشراً لمرحلة ما وراء التضاد والتناقض.

إن علم الاجتماع لدى شريعتي هو انعكاس لنظرته للعالم التي أعطت نتائج طيبة للمجتمع. كان يرى في علم المجتمع حرباً مستمرة بين التوحيد الإجتماعي والشرك الإجتماعي، على طول التاريخ. وكانت تحليلاته الديناميكية في هذا المضمار على الشكل التالي:

«كما هو في النظرة التوحيدية للعالم، التي تعني التوحيد في العالم، فإنه بتحليل الوحدوية في الوجود، يقوم في المجتمع هذا النوع من التحليل للتجمع البشري، وبالشكل الذي يطرح التوحيد نفسه في ساحة الوجود للنظام العالمي، وهو عامل للنضال ضد القوى الداعية للتفرقة والتضاد، وأرباب الأنوار، والقوى الغيبية وما وراء الطبيعة، المؤثرة في تقرير مصير الإنسان والمجتمع».

عرف التوحيد في المجتمع البشري أيضاً، بصفته عاملاً مفتداً للأرباب الموجودين على وجه الأرض، والسيطرتين على مصائر الناس والغاصبين لقدراتهم، الذين يعيثون النظم الإجتماعية وشكل حياة الأفراد، والطبقات والعلاقات الإجتماعية، وبعبارة واحدة عامة هو الشرك الإنساني».

(عن كتاب معرفة الإنسان)

ومن وجهة نظر الدكتور شريعتي، فإن كل من الإسلام المدرسي والإسلام الشعبي العام، لم يكونا ذات قيمة، وإنما أصبحت القيمة الكبيرة (للإسلام الوعي اليقظ). إذ أنه يرجح المسلمين الراعون والمثقفون على المسلمين التقليديين. حيث أن بناء الذات وايجاد التحولات الداخلية مقتضان مع بعضهما في الإسلام. وعليه فإن فهم عبارة (ان الحياة عقيدة وجihad) - والتي كان شريعتي يعتز بها - ميسّر وقابل للتطبيق.

إنها لدعوة حياتية وفورية للمسلمين الوعيين واليقظين في عصرنا، وإن خطابه كان موجهاً بشكل خاص إلى الشباب المثقف، فقد أشار عندما قال : «عندما يتثبت الشباب بالعقيدة والإيمان فإنهم ينهمكون فيها بشكل كامل، وسوف يمكن أن نبني منهم عنصراً فاعلاً للكفاح في سبيل تحقيق الإسلام».

وقد تركت مؤلفات الدكتور علي شريعتي تأثيراً واضحاً بهذا الصدد لا يمكن نكرانه .

الدكتور غلام عباس توسلی

الفرو المقلوب

كخبير بالعلوم الدينية . .

و خاصة أن ميدان دراستي هو : « تاريخ الأديان » . . !

وعبر تبعي وبحثي للتطور التاريخي للأديان^(١) توصلت إلى بعض النتائج ، واستطعت أن أقارن بين كيفية الاعتقاد في الماضي وكيفيته اليوم . .

وبالقدر نفسه استطعت أن أستشرف المقارنة التي توضح أوجه الاختلاف بين العقيدة في حقيقتها وبين واقعها^(٢) .

(١) إن مصطلح الأديان الذي أورده هنا كمصطلح تاريخي واجتماعي ، واستخدمته كلغة لعلم الأديان ، والذي يطلق على كل رسالة ودعوة ذات جوانب دينية ، في مقابل الرسالات والدعوات الفلسفية والعلمية والسياسية والأدبية والفنية وغير ذلك إن كان لها جذور ما ورائية أو لم يكن لها . ذلك لأن البحث في حقيقة الأديان وعدم حقаниتها من مهام الحكمة الإلهية وعلم الكلام لدى كل دين . ولا أترى هنا الخوض في ذلك .

(٢) أرجو التأمل في كل كلمة .

ومن ثم فإن نتائج دراستي هذه ليست قائمة على تجربة أو شعور ديني شخصي - وبالقدر نفسه - ليست قائمة على تحيز أو غرض ..

فإذا تستنى لي القيام بدراسة وتقدير لمدى تأثير كل دين على أساس مدى إسهامه في سعادة الإنسان وتطوره، فسوف نكتشف أن نبوة الأنبياء السابقين للنبي الخاتم محمد ﷺ لم تصل في تقدميتها وقوتها وفاعليتها ووعيها لنبوة محمد ﷺ، ولم تصل بتأثيرها في التطور الاجتماعي للإنسان، وفي وعيه الذاتي، وفي حركته وإحساسه بالمسؤولية وطموحه البشري وجهاده في سبيل العدل، ولا في واقعيتها وملاءمتها لفطرة الإنسان ودفعه للإبداع والتكييف مع التقدم العلمي والاقتصادي، والتوجه نحو الرقي الحضاري والاجتماعي مثل رسالة التوحيد الإبراهيمية في رسالة النبي محمد ﷺ الإسلامية .

وفي الوقت نفسه لا أعرف رسالة وديناً من الأديان السابقة قد تعرض لحملات الإفساد ومحاولات التحرير إلى ما يناقض طبيعته الحقيقة كما تعرضت له دعوة النبي الخاتم ﷺ !! ..

فلو قارنت بين الإسلام الحالي مع سائر الأديان المنحوطة العالمية لعلك تعتبر رأيي غير سديد، لكن هذه المقارنة خطأ، فيجب قياس انحراف أي حقيقة بالنظر إلى ماضي تلك الحقيقة، ورسم مؤشر بين وضعها الحالي وما كانت عليه عند نقطة البدء .

وإذا قمنا بتلك المقارنة بين المذاهب الإسلامية، وأجرينا

بحثاً وتقييماً سنجد أن وضع التشيع في الإسلام كوضع الإسلام بين الأديان .

ويا للعجب !

ففي المقارنة بين الحقيقة والواقع لدى الأديان الأخرى يمكن استعمال الكلمة (اختلاف) لكن هذه الكلمة لا تعبّر عن المصير التاريخي للإسلام والتشيع في المقابلة مع سيرتهما، ولا يمكن التعبير عن تلك الحالة إلا بالتضاد أو التناقض^(١) .

(١) والتعبير الأكثر دقة هو ما قاله أعرف الناس بالإسلام وأخبر علماء العلوم الاجتماعية وأدراهم بالمصير التاريخي للإسلام، وخبر من تكلم وغير وتفتن وهو (علي) الذي عبر بجملة واحدة عن كل ما أرأى: من التعبير عنه متخصصو العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية وما طرحوه من تحليل علمي لتاريخ الإسلام وما أعدوه من كتب ومؤتمرات مطولة، وما قاموا به من مقارنات بين الحقيقة الأولى للإسلام وواقعه الفعلي ورسالته البناء، والدور الهدام الذي أذى، وما حارلوا إدراكه من فهم وإحساس الناس الواقعين والمفكرين المسؤولين في الماضي والحاضر عن الإسلام، والمقارنة بين ذلك كله. وبيان جمال الإسلام وجاذبيته، وقع ما مسخ منه، ومحاوله إثباتهم أن الإسلام دين مميز غير سائر الأديان، وأنه كان مميزاً في انحطاطه أيضاً، أو دفعه إلى الانحطاط، وأن الإسلام الأول كان أجمل رسالة ودعوة، وأنه أصبح في سيره التغيري نحو الانحطاط ليصبح أبغض رسالة. نعم لقد قلت إن أسمى رسالة فكرية وأكثر رسالة إنسانية تقدمية تحولت إلى أشذ الرسائل انحطاطاً، كل هذا الحديث بيته (علي) باستعارة بسيطة وطبيعية من حياة عامة الناس، وبشكل دقيق وكامل حين قال: «لبس الإسلام ليس الفرو مقلوباً». فالفرو لباس، لكنه مميز عن سائر الألبسة في الشكل والاستعمال، والفرو هو اللباس الوحيد الذي ظاهره جميل جداً، وباطنه قبيح وأسود، ظاهره ذو نقش بديع، وباطنه يخيف الأطفال، أوليس أطفالنا اليوم يرهبون من الإسلام؟ فالإنسان يلبس الفرو مقلوباً والخرف يلبسه ظاهراً.

والأعجب!

إنَّ الأمر يبدو وكأنَّ قوةً ما أعدت لها التسهيلات المادية والتوجيهات المعرفية، ظاهراً وباطناً، ثم استخدمت جمع من الأذكياء ذوي العلم الواسع من فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع وخبراء في مختلف العلوم الاجتماعية، بما فيها علم النفس الاجتماعي ودهاء السياسة وعلماء اللاهوت ومفسري القرآن ودارسين للغة العربية والأداب الإسلامية، بما فيها الشعر والنشر وعلوم الفقه ومتخصصين في الشؤون الاجتماعية للمسلمين: من عادات وتقاليد وأعراف، ومن العالمين بمواطن الضعف والقوة لدى المسلمين بعد دراسة متعمقة للشخصية المسلمة وسلوكها النفسي الاجتماعي والاقتصادي ..

كل هؤلاء التقوا في عملية التحرير الشاملة لعقيدة الإسلام من خلال متابعة حاذقة وعبر خطة علمية مدققة مستهدفة الإسلام والمسلمين ..

* * *

إنَّ المدى الذي بلغته معرفتي يؤكِّد لي من زاوية نظرية وعملية أن الدعائم الأساسية لعقيدة الإسلام (والتي تمثل الدوافع المحركة لأمة المسلمين، وتجعل الفرد المسلم حرّاً وواعياً وكميراً ومسؤلاً نحو المجتمع) هي: التوحيد والجهاد والحج.

ومن المؤسف أن ينحصر مفهوم التوحيد في مناهج المدارس الدينية داخل الجدل الفلسفـي وعلم الكلام الذي لا يتداول إلا بين

قلة من علماء الإسلام، والذي هو في حقيقته ليس إلاً جدل عقيم لا يمت بصلة إلى أي بعد تطبيقي عملي متعلق بحياة الناس ..

وبعبارة أخرى : إن الذي بقى من التوحيد هو مفهوم الإله الواحد ، وليس التوحيد بأبعاده الحقيقة ..

أما مفهوم الجهاد فقد تمت مصادرته تماماً ، ودفن في مقابر التاريخ ..

وقد حرف عمامده المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأصبح يعني أن تلوم صديقاً لك ! ..

فضاع معنى التصدي للفساد والانحراف ومظاهر الفسق في أشخاص مرتكبها ..

وأخيراً فقد صُورَ الحج كعمل مشوه مناقض للمنطق يقوم به المسلمون كل عام .. !

لقد أفلح أعداء الإسلام في أن يلحقوا بفرضية الإسلام الخامسة التحريف الذي يتغونه ، وذلك بانتهاج سياسة موحدة ..

فقد أضرمت الخلافات الفقهية في أبواب الطهارة والصلوة من كتب الفقه إلى حياة الناس ل تستهلك طاقة كل من يلجا إلى المسجد ! ..

وفي الوقت نفسه دُفع القرآن الكريم ليأخذ مجراه إلى الجالسين عند المقابر يتلونه على أرواح الموتى ! ..

أما في المدارس الدينية فقد نُحيَ القرآن الكريم عن حياتهم

بطريقة أخرى، ووضع على الرفوف لتحل محله كتب أصول الفقه وعلم الكلام (على أيدي المعلمين).

وواقع الحال الظاهر لكل عين سليمة يشهد على ما يؤول إليه حال المسلمين عندما يغيب القرآن عن حياتهم وعن مناهج الدارسين والمتعلمين منهم ..

ترى هل يستطيع المفكر المتجرد الذي يستشعر مسؤوليته تجاه شعبه، أو المسلم الذي يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه، أو المفكر المتجرد الإسلامي الذي يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه وأمته معاً.. وهو يقع ساكناً أن يحس بالراحة؟ ..

هل ترى كل واحد منهم حين يظن أنه باللجوء إلى أحد مذاهب الفكر الغربي سوف ينقذ أمنه ويحل مشاكلها؟!! ..

كلا يا صديقي المفكر ويا أخي المسلم!! ..

إن تكن تستشعر المسؤولية تجاه الله أو تجاه الشعب أو الأمة - سواء - فنحن في زورق واحد، ويناط بنا مسؤولية واحدة، وفي سبيل حريتنا واستعادة كرامتنا وعزتنا فالطريق الأمثل هو أن نسلك ذات السياسة التي يتهجّها عدونا، وأن نعود إلى الطريق التي ضللنا عنها:

فلا بد أن نعيد القرآن الكريم مرة ثانية من القبور والمآتم إلى الحياة وتفاعلاتها، وأن نقرأه على مسامع الأحياء لا الموتى، وأن نسحبه من على الرفوف ونفتحه أمام عيون الطلاب والدارسين بمختلف نوعيات دراستهم ومستوياتهما ..

فقد عجز عدونا عن القضاء على القرآن، ولكنه عمل على تحيته بعيداً، مغلاقاً في زاوية مهملة بعيدة، بعد أن أحاطه بهالة من الاحترام اللازم «للكتاب المقدس» الذي لا يمس! ..

وعلينا نحن أن نعيده «كتاباً للقراءة والدراسة والعمل» أي المعنى الذي يؤكده لفظ القرآن الذي سمي به^(١) ..

ترى هل يجيء اليوم الذي يصبح فيه القرآن الكريم هو الكتاب الأساسي ، والدستور الأعلى لمدارسنا الإسلامية ، ومصدر الإلهام في دروسنا الإسلامية؟ ..

هل يجيء اليوم الذي تكون فيه الدراسات القرآنية شرط للتأهل لدرجة الاجتهد؟ ..

إننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم، واهتدينا بهديه في حياتنا - عندها فقط - سوف يتتسى لنا أن ندرك جوهر عقيدة التوحيد..

وإذا اعتبرنا القرآن دستوراً أعلى لنظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فسوف ندرك الفعالية والإبداع اللذين تتضمنهما واجبات مثل: الحج، والجهاد، والإماماة، والشهادة... . وسوف ندرك معنى حياتنا نفسها!! ..

* * *

(١) من كثرة الآيات التي تبين هذا المعنى يضيق المجال عن ذكرها، وأجل إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب: قرأ، درس، كتاب.. وكذلك إلى لسان العرب.

وقد حان الوقت للنظر في أحد هذه الواجبات : «الحج»
انطلاقاً من وجهة نظر توحيدية ..

فهذا الكتاب هو ملخص تجربتي الشخصية وفهمي بعد أدائي
للعمرة ثلاث مرات ، وأدائي للحج الأكبر مرة ..

وهو لا يعدو كونه تعليقاً وتفسيراً لشعائر الحج من عبد
خاضع لمولاه ..

فهو ليس كتاباً عن مناسك الحج على أساس شخصي ، فهذا
لا يجوز شرعاً ..

وهو لا يتحدث في أبواب الفقه ، ولكنه أطروحة تدعوك
للتفكير ..

وكل ما فعلته هو محاولة لتفسير المناسك كما يفعل أي حاج
بعد عودته إلى بلاده ، ومحاولات تداول الأفكار والأراء مع
الآخرين .. وهذه سنة ..

ففي كل عام يتاح للأغلبية التي لم تجد فرصة للحج أن
تشارك الأقلية التي استطاعت الحج مشاعرها وانفعالاتها وخطوات
رحلتها وخلاصة ما جنته من هذه التجربة الفذة ..

ولو اضطاعت قيادة مسؤولة بمهمة توجيه وتعليم مليون مسلم
يأتون من كل فج عميق من البلاد المتختلفة ومن مستويات تعليمية
شبه أمية ، أو قل شبه متعلمة ..

ولو أعطي هذا العمل الاهتمام الذي يصرف للمأكولات والصحة

والهدايا التذكارية ومظاهر الرفاهية الأرستقراطية القبيحة ..

ولو أنها اهتمت قليلاً بتأمل معنى شعائر الحج بدلاً عن الانصراف إلى التفاصيل إلى درجة الإغراق فيها وغياب الوعي ..

لو حدث كل هذا لأمكننا أن نجعل من الحج، كل عام دورة دراسية تُشرح فيها عقيدة الإسلام نظرياً وعملياً لـ مليون حاج يمثلون كل مكان في العالم، ولادرك هؤلاء جميعاً ماذا تعني مقاصد الحج، وماذا تعني النبوة، ويدركون القيمة التي تنطوي عليها وحدة المسلمين ومصيرهم، ولأمكنهم أيضاً أن يعودوا بما حفظوا من المعارف والمعلومات إلى أوطانهم ومجتمعاتهم وأقوامهم وعشائرهم وأسرهم ..

خلاصة الأمر أن الحج بهذا الفهم كان سوف يصير مدى الحياة مرشدًا لهم في ظلام المجتمع كالشاعر الذي يضيء في دياجير الظلم ..

علي شريعتي

مدخل

ما الذي تعلنته من الحج؟

هذا التساؤل ينبغي أن يطرح إبتداءً . .

وما هي ماهية الحج؟

الحج في جوهره هو عملية ارتقاء الإنسان نحو الله . .

وهو المظاهر الرمزية لفلسفة خلق آدم . .

وبعبارة أوضح وأقرب : إن أداء شعائر الحج هو استعراض لعدة أشياء في وقت واحد؛ فهو : «عرض لقصة الخلق» وهو : «عرض للتاريخ» وهو : «عرض للوحدة» وهو : «عرض لعقيدة الإسلام» وأخيراً هو : «عرض للأمة» . .

الأركان الأساسية السائدة في وجه العرض هي :

* الله تعالى : وهو المدبر الذي يوجه الحركات على «خشبة المسرح»^(١) .

(١) يقصد بها المؤلف تشبيهاً مجازياً، ولا صلة لها بمفهوم المسرح الهزلي أو الفني السائد بداعياته المقبولة وغير المقبولة!

- * الموضوع الذي يُصور: هو حركة الأشخاص المشاركون في العرض.
- * الشخصيات الأساسية في هذا العرض هم: آدم، إبراهيم، هاجر، الشيطان.
- * المشاهد: هي المسجد الحرام، ومنطقة الحرم، والمسعى، وعرفات، والمشعر الحرام، ومنى.
- * الرموز الأساسية في العرض تشمل: الكعبة، والصفا والمروة، والنهار والليل، والشروق والغروب، والأصنام، وشعائر الأضحية ..
- * الملابس والمكياج: هي الإحرام، والحلق والتقصير ..
- * أخيراً فإنّ الذي سيؤدي جميع الأدوار في هذا العرض هو شخص واحد: أنت! ..
لا اعتبار لكونك رجلاً أو امرأة.. شاباً أو شيخاً.. أيضاً أو أسوداً.. فأنّت السمة الأساسية لهذا الأداء؛ فإنّ دور آدم، وإبراهيم، وهاجر وهم يواجهون الاختيار بين الله والشيطان ستؤديه أنت..
- خلاصة الأمر: أنك أنت بالذات بطل هذا العرض.

* * *

إنّ المسلمين في كل بقاع الأرض يدعون في كل عام للمشاركة في هذا العرض الجليل..

الكل سواسية كأسنان المشط، لا فرق ولا تمييز بينهم لاختلاف الجنس أو الأصل أو الطبقة الاجتماعية ..

ووفقاً لمبادئ الإسلام فإن الكل يساوي الفرد، والفرد يساوي الكل :

﴿... مَنْ قُتِلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانَمَا قُتِلَ النَّاسُ جَمِيعًا ... وَمَنْ أَخْيَاهَا فَكَانَهَا أَخْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ...﴾^(١).

* * *

وتستمر افتراءات أعداء الإسلام متمثلة في حملات تستهدف النيل من قيمه وتعاليمه، وخاصة ما يرمونه به من عدم احترام عقلية الإنسان وكيانه وحقوقه كإنسان! ..

وبالنسبة لفريضة الحج فقد جعلوها فريضة هامشية قليلة الأهمية ..

وكما يقول الإمام علي عليه السلام : «كأن الإسلام هو أن تلبس العباءة مقلوبة!»

ما الذي تعلمته أنا الباحث الشغوف من الحج «الركن الخامس للإسلام»؟

وإلى أي مدى أستطيع أن أستنبط ، وأن أدرك من معاني هذه التجربة؟ ..

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

إنَّ الصفحات الآتية تحوي جهدي المتواضع في محاولة
للإجابة عن هذين التساؤلين ..

وليس هدفي - بالطبع - وصف ما الذي يجب عليك أن
تفعله في الحج، فهذا الغرض يمكن تحصيله بالرجوع لأي كتاب
من كتب المنسك ..

لكن الذي أريده هو أن أشركك معي في المعاني التي
تجسدت لي من تلك المنسك، والتي ستعينك على أن تفهم
الحكمة التي من أجلها شرع الله الحج، أو على الأقل تدفعك
للتفكير في تلك المنسك.

* * *

الخروج عن مألفات حياتك

الحياة اليوم ليست هي الحياة كما ينبغي لها أن تكون؛ فهي لا تعود وكونها تدور في حلقة مفرغة، أو هي حركة لا تقصد إلى هدف ولا ترمي إلى غاية، أو هي كرقص الساعة يغدو ويروح بلا معنى... فيبدأ الإنسان دورته نهاراً لينهيها ليلاً، ويبدأها ليلاً لتنتهي مع خيوط الصباح. وبين هذا وذاك يجلس ليراقب لعبة الفأر الأبيض والفار الأسود وهم يمضغان نسيج حياته حتى يفضيان به إلى ال�لاك^(١).

فالحياة (حياة الإنسان) الآن أشبه ما تكون بقاعة مسرح، والإنسان مشاهد لتعاقب الليل والنهار حيث لا هدف ولا معنى... .
ويبقى السؤال: ما الذي ترمي إليه هذه المسرحية الضيقة الأفق؟

(١) راجع باب (برزويه المتطلب) من كتاب «كليله ودمنه». وهو كتاب في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق والإرشاد إلى حسن السياسة. جعلوه على ألسنة الحيوانات. نقله ابن المقفع عن الفهلوية. «المصحح».

إنَّ الإنسان إذا استشعر حاجته إلى شيءٍ ما، فإنه يكافح في سبيل الحصول عليه، وإذا توصل إليه، فإنه ينظر إلى هذا الشيء وما بذله من جهد للحصول عليه بشيءٍ من الاستخفاف! . فيا لها من حياة مادية لا معنى لها، نغرق أنفسنا فيها..

إنَّ افتقاد الإنسان للوجهة، وجعل هدفه من الحياة هي الحياة ذاتها، وسلوك سبيل المترج السلبي لتعاقب الأيام، يجعل منه روحًا ميتة في جسد حي.

وقد جاء الحج ليغير هذه الحياة السقيمة ..

عندما تقرر أن تؤدي فريضة الحج، وتبدأ الخطوات الازمة لذلك؛ تكون قد دخلت بالفعل في الحج ..

قبل الشروع في الذهاب إلى الحج تكون ساكناً في بيتك مستقراً هادئاً ..

وما أن تُهيء ذهنك للحج؛ فإنك تنھض وتحرك بعيداً عن أجوائك الرتيبة ..

الحج مضاد لحياة اللامعنى واللاهدف.

أداء الحج خلاص من شِبَاك الحيرة المعقدة ..

سافر من دارك ووطنك لتزور «بيت الله» أو «بيت الناس»^(١).

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَكْرَهُ مُبَارَّكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

إنك أنت - أيّاً من تكون - إنسان، وابن آدم، وخليفة الله في الأرض، ومن عيال الله (والناس عيال الله) ومحل أمانته، وسيد الطبيعة، والمتعلم من الله ..

لقد علمك سبحانه الأسماء كلها ﴿وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١)
ونفح فيك من روحه، وزودك بالخصائص المتميزة، وجعلك محل ثنائه ..

حتى ملائكته - سبحانه وتعالى - أسجدها لك، وسخر لك ما في الأرض جميماً، وأحاطك برعايته ..
وأينما تكون يراقب أعمالك ..

وهو - سبحانه - في عونك ..

* قلب المؤمن عرش الله أو عرش الرحمن^(٢).

* ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

* ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُ وَرَسُلَّمَ بِالْغَيْبِ﴾^(٤).

* ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِتَبْلُو هُنَّ أَحَسَنُ عَمَالِك﴾^(٥).

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) يقول المؤلف: جاء في حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأورده صاحب أسرار الحكمة، ص ١٦٦، ٢٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٧.

* ﴿الَّذِي خَلَقَ الْوَتَ وَالْحَيَاةَ يُبَلُّوْكُمْ أَيْكُنْ أَخْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(١).

ومع مضي الوقت وبتأثير قوى وعوامل مختلفة في النظام الاجتماعي الذي لا يقدر حقوق الإنسان ولا واجباته، فإن شخصيتك سيعترضها التغيير، وفطرك ستتصيّبها الآفات.

ومع تقلّبات الحياة وابتلاءاتها فإنك ستغدو مهملاً ومعزولاً ..

لكن الأصل في الإنسان - الذي يحمل نفحات من روح الله في أعماقه - أن يكون خليفة الله في الأرض، وموضع ثقته سبحانه ..

لقد ائتمنك الله على الوقت لأنّه وسيلتكم للوفاء بتلك الخلافة، ولكنك أخفقت لأنك أهملت نعمته ولم تحسن استغلالها ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَنَ لَنِي خَتِيرٌ﴾^(٢).

* * *

هذا هو معنى الحياة الذي من أجله كانت ..

لكن، ما الذي تحقق على أرض الواقع بالفعل؟! وكم مشروع تم إنجازه؟ ..

وما هو كسبك أنت بالذات؟ ما الذي قدمته أنت نفسك؟ ..

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة العصر، الآيات: ١ - ٢.

كم من السنين الغالية بددتها هدرأ؟ ..

والسؤال قائم: من تكون أنت؟ ..

إنك حاملأمانة الله و خليفته في أرضه، ولكنك وجهت
وجهك نحو المال والنساء ومختلف الشهوات .. والطمع والعدوان
والخيانة ..

لقد انحدرت إلى درك الحما المسنون الذي كنت فيه قبل أن
ينفح الله فيك من روحه، فأين هي روح الله اليوم؟! ..

إنهض أيها الإنسان من هذه الأوضاع المزرية، وتحرر من
هذا الموت البطيء ..

اخرج من أرضك، واذهب إلى الأرض المقدسة لتلقى الله
تحت أديم السماء العامرة بالإلهام، المفعمة ببركات الوحي: سماء
المشعر الحرام لتهزم الغربة التي تعانيها ..
وأخيراً: ستلقى نفسك! ..

* * *

الموسم

والآن حان الموعد، إنها لحظة اللقاء، ذي الحجّة، شهر وحج، شهر الحرمة، السيوف هدأت، صمتت هممّة خيول الهيجة وصرخات المحاربين.

التجه تلقاء الله

يحيى الحج في الشهر المبارك «ذى الحجة» على أرض مكة التي يلفها السلام والسكينة؛ حيث لا مكان فيها للخوف والبغضاء وال الحرب ..

إنها صحراء تمتاز بالأمن والسلام، ويسود فيها مناخ العبادة والروحانية حيث يتاح للناس أن ينعموا بلقاء الله الرحمن الرحيم ..

أم تسمع نداء إبراهيم عليه السلام:

**﴿وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ﴾^(١).**

أيها الإنسان، يا من خلقت من حماً مسنون أو من صلصال كالفالخار، إبحث عن روح الله فيك، واستجب لدعوته، واذهب لتلقاء فإنه - سبحانه - يتدرك.

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

إنَّ بقاء الإنسان في الحياة دون التوجّه للإنابة إلى روح الله
استهتار لا معنى له ..

حرَر نفسك من رغباتك وأطمائنك التي تناهى بك عن الله،
وانضم إلى الفوج البشري الخالد المهاجر إلى الله في الحج ..
وهناك ستلقى الله ..

* * *

قبل الذهاب إلى الحج يجب أن تسدِّد ديونك كلها ..
كل أحقادك وضغائنك تجاه الأهل والأصدقاء لا بد من
تصفيتها ونبذها وإصلاح ما نتج منها ..

عندئذ فقط تكون نيتك حاضرة للحج ..

وهذه المقدمات كلها يقوم بها الإنسان - أيضاً - عندما
يستشعر دنوًّا أجله ! ..

وهذه المقدمات تحقق طهارتكم المادية والمعنوية والنفسية ..
إنها لحظات الوداع الأخير ..

وها قد تم تصوير مستقبل الإنسان بعد لحظات الوداع
الأخيرة والرمز إليهما ..

والآن فقط صرت حرًا لتنضم إلى قافلة الخلود ..

لا حيلة لك، وليس بيديك شيء، وأنت في موقف البعث أمام
ميزان أعمالك، وسمعك وبصرك وفؤادك خير شاهد عليك:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْغُلاً﴾^(١).

أنت وكل جارحة في جسدك مسؤولون عن أعمالكم.

وما دمت في دار العمل فاستعد لدار الحساب، واختبر
الموت قبل الموت، واذهب إلى الحج ..

فالحج يمثل الرجوع إلى الله تعالى الذي لا تحدّه حدود،
وليس كمثله شيء ..

والرجوع إلى الله هو دلالة قاطعة على اختيار الإنسان وسعيه
نحو الكمال والخير والجمال والقوة والعلم والحق والأخلاق
الفضيلة ..

في رحلتك إلى الباقي ستكون الرحلة سردية حيث يقودك
إلى الصراط السوي، وحيث تمتد الرحلة بلا نهاية ..

وطريق الإسلام مختلف عن طرق الصوفية السكري^(٢) فحياة
المسلم ليست بحياة لاهوتية ساكنة، ولكنها حياة جهاد ومجاهدة
للتقرب إلى الله:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِعونَ﴾^(٣).

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(٤).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) يقصد المؤلف الجانب السلبي، والذي يتبع من الممارسات الخاطئة.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

فليس هدفنا أن «نفني» لكن أن «نزهر»! مبتغين في ذلك وجه الله وحده تقرباً إليه سبحانه.

والله تعالى ليس بعيد عنك حتى تجهد في الوصول إليه؛ فإنه أقرب إليك من حجل الوريد:

﴿... وَمَنْ أَنْهَىٰ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَجَلِ الْوَرِيدِ﴾^(١).

وبهذا المفهوم نعلم أن كل شيء من دون الله هو أبعد عنا من الله سبحانه وتعالي بعدها متفاوتاً..

* * *

يا أيها الإنسان ..

يا من أمر الله ملائكته بالسجود لك!

ها قد استطال عليك العهد، وأحكم المجتمع عليك نفوذه حتى تبدلت تبدلاً كبيراً..

فلم تبق صامداً ومخلصاً لعهلك بأن تعبد الله وحده، فتعمدت للطاغوت ..

وبعض الطواغيت صنعتها أنت بيمينك !!

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ﴾^(٢).

لقد أصبح طابع حياتك الإخلاص لبعض الأفراد والخضوع

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥١.

للهوى الشخصي، والقسوة، والجهل، وانعدام الوجهة،
والخوف، والطمع ..

صارت حياتك - إذا - مشاكلة ومشابهة لطبع الحيوان،
وأصبحت مثل الذئب والثعالب والفثران والخراف ! .

أيها الإنسان عُد إلى أصلك، واذهب للحج، وزُز ربك
الودود الذي خلقك في أحسن تقويم ..
إنه ينتظرك ليراك ..

دع قصور السلطان، وكنوز الثروة، ومعابد الضلال .
وأطلق سراح نفسك من هذا القطيع الحيواني الذي يرعاه
الذئب .

انضم إلى جيش «الملبين» السائر إلى «بيت الله» أو «بيت
الناس»^(١) .

(١) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَكُونُ مُبَارَّكًا وَمُهَمَّدًا لِلتَّعَالَى﴾ .
سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

أدخل إلى الميقات فرداً^(١)

يبدأ العرض في الميقات .

وفي هذا الموضوع يجب على المثل (الإنسان) أن يبدل
ثيابه ..

لماذا .. !؟ ..

لأن ثياب الإنسان تكسوه من الخارج مادياً كما تكسوه
الشخصية من الخارج معنوياً ..

بعارة أخرى : فإن المرء لا يرتدي ثيابه ، ولكن ثيابه هي التي
تغطيه ؛ فملابسنا هي التي تعبر عن أنماط حياتنا ، وتميزنا وتحدد
طبقتنا ووجهة تفكيرنا ، وهي التي تقيم الفواصل والحدود بين
الناس ، مما يسبب التفرقة بينهم في معظم الأحوال ..

(١) يشير إلى الآية الكريمة : ﴿وَلَمَّا هُمْ مَأْتُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدَاءٌ﴾ سورة مريم ، الآية : ٩٥ .
والآية : ﴿وَلَنَذَّلِّلَنَا فِرْدَائِنَا كَمَا حَلَفْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةً﴾ سورة الأنعام ، الآية : ٩٤ .

وأكثر من ذلك فإن الملابس تجعل مفهوم «الأنّا» يقتصر، وليس مفهوم «النّحن».. . كلمة «أنا» - في الملابس - تأتي في سياق يعبر عن «عنصري» أو «طبقتي» أو «عشيرتي» أو «مكانتي» أو «أسرتي» أو «مقدرتني».. . ولا تعبّر عن معنى «أنا» باعتباري إنساناً.

حواجز كثيفة أقيمت في حياتنا صنعتها سلالة قabil من القتلة والقساة، حتى تمزقت الروابط بين أفراد الأسرة الإنسانية من أبناء آدم، وتشتت وحدة الجنس البشري إلى تقسيمات وأشكال عديدة، نتج منها شبكة من العلاقات تجسدت في :

سادة وعبيد.. . مستكبرين ومستضعفين.. . مستعمرین ومستعمرين.. . مستغلين ومستغلين.. . أقوياء وضعفاء.. . أغنياء وفقراء.. . متخدمين وجائعين.. . أشراف وسوقه.. . أشقياء وسعداء.. . نبلاء ووضباء.. . متحضرین وغير متحضرین.. . شرقين وغربين.. . عرب وعجم.. .

وهكذا انقسمت الأسرة البشرية إلى أعراق وأجناس وأمم وطبقات وجماعات وعائلات.. . لكل منها مرتبة مميزة وقيمة خاصة وأسماء وألقاباً، وكل ذلك لإظهار التفرد رغم ما يكلفه من تصنّع وجهد.. .

* * *

إخلع ثيابك الآن عند الميقات، وارتدي الكفن^(١) المؤلف من قماش أبيض خالص.. . أصبحت ثيابك مثل ثياب أي فرد، وبدا

(١) يقصد ثياب الإحرام.

الجميع في الزي الموحد..

تحولت إلى جزء ينضم إلى الكتلة العريضة، وإلى قطرة
تدخل في المحيط.

لا تكن مختالاً فخوراً، فلست هنا لتلاقي نداً أو نظيراً، بل
تواضع وانكمش، واحشע لأنك ستلقى الله..

كن الحي الذي يقترب من الموت، أو الميت الذي يستشعر
وجوده..

في أرض الميقات - ودون اعتبارات الانتماء والطبقة - إنزع
عنك كل قناع كنت ترتديه في حياتك اليومية:

قناع الذئب الذي يرمز إلى الوحشية والطغيان..

قناع الفأر الذي يرمز إلى المكر.

قناع الثعلب الذي يرمز إلى الخديعة..

قناع الخروف الذي يرمز إلى الخنوع والذلة..

دع كل ذلك في أرض الميقات وعد إلى جذورك الأصلية:
إنسان فرد من نسل آدم لا غير، أو كما ستكون في المنتهى يوم
تموت، وما بعد الموت..

لف نفسك بقطعتين من القماش^(١) تغطي إحداهما كتفيك

(١) تلف واحدة بوسطك وتسمى «الإزار» بحيث تغطي ما بين السرة إلى ما بعد الركبة بما
فيها السرة، والأخرى توضع على الكتفين والظهر دون الرأس ويسمى «الرداء».

وتتدلى الأخرى من حولك لتغطي جزءك الأسفل.

ليس ثمة نسق خاص من التفصيل، أو نوع معين من القماش.. مجرد نسيج بسيط خالي من الألوان، والجميع يرتدون نفس النمط من الإحرام، فلا يعكس المظهر امتيازاً لأحد..

قوافل الحجيج من كل بقاع العالم تلتقي في الميقات، في ذات المكان وذات الزمان.. معاً في الطريق إلى الله، حيث لا يكون الإنسان كما هو، ولكن كما ينبغي أن يكون:

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(١).

يا للروعة كل شيء يتحرك من طور إلى طور: الحياة والموت.. الموت والحياة.. التناقض.. التحول.. الوجهة:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢)

وهكذا يبقى الله وحده كاملاً خالداً سبحانه:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَاءٍ﴾^(٣)

الحج أيضاً «حركة» حيث يقرر الإنسان العودة إلى الله ويدفن كل أناناته وحبه لذاته في أرض الميقات، ويشهد موته بنفسه ويقف بقدميه على قبره ..

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

هنا يستحضر الإنسان المصير الأخير لحياته ، ويخوض تجربة الموت في الميقات ، وسوف يخوض تجربة البعث عندما يستأنف المناسك بين الميقات والوقوف بعرفة ..

فالمشهد أشبه ما يكون بيوم الحساب :

فعلى امتداد الأفق يتدقق طوفان من اللون الأبيض ..
 كل الناس يرتدون الكفن ، ولا أحد يمكن التعرف عليه ..

تركت الأجساد في أرض الميقات ، والروح وحدها هي التي تندفع هنا ..

الأسماء والأعراف والمراتب الاجتماعية لا تستطيع أن تخرق هذا التضامن العظيم ، حيث ينبئ مناخ الوحدة عبر الزمان والمكان ..

إنه استعراض بشري خاضع لله الواحد القهار ..

الخوف والرجاء .. الرغبة والرهبة .. الدهشة والإقبال ..

كلها تنصهر داخل جسيمات دقيقة مجدوبة داخل حقل ممغنط ..

تقشعّ الجلود وتلين لذكر الله .. وتوجل القلوب وتنتشي الأفئدة ..

جعل الله الكعبة قبلة له سبحانه ، والإنسان وحده يعرض نفسه مولياً وجهه شطرها واقفاً تلقاءه سبحانه ..

في هذه الأرض الجرداء القاحلة تتلاشى كل الأمم والعشائر
في قبيلة واحدة ووفد واحد يستقبل القبلة الواحدة ..

* * *

الآن وبعد أن نزعت عنك ملابسك وكل شارة تميزك،
وعليك أن تدخل إلى قلب الزحام وأنت محرم، وعليك أن تنسى
كل شيء يذكرك بحياتك ..

كل واحد يفني ذاته، ويأخذ شكلاً جديداً هو شكل الإنسان
كما خلقه الله ..

كل الأنانية والخصاصة تدفن، وتصبح المجموعات هي
الأمة ..

كل «أنا» تموت في أرض الميعاد لتنشأ «نحن» ..

قبل أن يحين موعد مغادرتك إلى «مني» يجب أن تكتمل في
أمة كما فعل إبراهيم :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَانِسَتَ اللَّهَ حَيْنَا وَلَرَ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)

وفي النهاية سيصبح الواحد هو الأمة، والأمة هي الواحد،
والجميع سواسية ..

لقد تحول مجتمع الشرك إلى مجتمع التوحيد، وهذه هي
الأمة أو الجماعة التي هي على صراط مستقيم ..

(١) سورة التحل، الآية: ١٢٠.

إنه مجتمع الكمال والنشاط الذي تقويه القيادة المسلمة
«الإمامية».

كل من يؤدي الحج فإنّه يبتعد عن نفسه وهواء، ويتجه للقاء
الله تعالى ..

لقد نفخت فيك روح الله، وغادرت دار الغربة إلى دار
السلام، وكشفت لك حجب الحقائق، وانتصرت على الجهل
والقهر، وأشرقت روحك بمعاني الوعي والعدل، ونبذت الشرك
واعتنقت التوحيد.

و قبل ذلك فإنّ أداء الحج لأولئك الذين أهملوا طبيعتهم
الإنسانية والذين أغتربوا عن ذواتهم بالسلطان أو بالمال أو بالجاه أو
بالأرض أو بالعصبية، والذين كانت حياتهم لا تعني سوى الحياة
الدنيا ..

كل هؤلاء قد أتاح لهم الحج أن يكتشفوا ذواتهم، فهم الآن
يرون بعضهم بعضاً «مجتمعين» كأنهم «واحد» أو يرى كل واحد
منهم الآخر «منفرداً» كل واحد «إنسان» ولا شيء غير ذلك ..

* * *

النية

قبل أن تدخل إلى الميقات حيث التحول العظيم وبداية
الثورة، لا بد من الإفصاح عن نيتك ..

فما فحوى هذه النية؟ وعلى أي شيء تنطوي؟

إنها نية تلبية دعوة رب الناس إلى بيت الناس ..

نية الانتقال من بيتك إلى بيت الناس؛ من الحياة إلى
الحب ..

من الطبقية والعنصرية إلى المساواة والوفاء والحق ..

من إنسان تغطيه الثياب إلى فرد عاري لا يستر جسده إلا
خرقة ..

من الحياة الرتيبة اليومية إلى الحياة السرمدية الأبدية ..

باختصار: إنه الانتقال إلى حالة الإحرام ..

ومن هنا كان لا بد أن تؤكّد على نيتك بقوّة.

وذلك لأنك ستبدأ في النمو خارج قوّعّتك كما تنموا نواة

التمر.

ولهذا أيضاً يجب أن تكون في أعلى درجات الانتباه

واليقظة، وأن تكون واعياً أقصى ما يمكن الوعي.

والنية لا تكون صادقة إلا إذا كان قلبك عامراً بالإيمان.

فاصبح زند قلبك بنور الحب واليقين، واجعل الإيمان

الفياض وقوداً لهذا الحب واليقين، ليبقى تلاؤه عامراً في قلبك ..

انس كل ما يتعلّق بشخصيتك.

* * *

لقد كانت حياتك في الماضي مزيجاً من التقصير والجهل،

وكنت لا ترى لوجودك معنى ..

حتى في حياتك الوظيفية والعملية صرت عبداً تعمل بحكم

العادة أو مقهوراً بالأوامر ..

الآن تحول عن هذا النمط من الحياة، وعد إلى فطرتك واعياً

مؤمناً وأثناً بالله الرحمن الرحيم، وانظر نظرة جديدة إلى الحياة

وإلى الناس وإلى نفسك! ..

اختر وظيفة جديدة، وقبلة جديدة، وروحًا جديدة ..

* * *

الصلوة عند الميقات

حينما تصل إلى أرض الميقات أو تحاذيها، تستعدّ لتبداً
المناسك الفعلية للحج، وتركز ذهنك فيما يجب أن تفعله، ولماذا
تفعله ..

وفي ثياب الإحرام ستؤدي صلاة الإحرام^(١).
لتكن أنت بنفسك حاضراً حضوراً كاملاً أمام الله الرحمن
الرحيم ..

عندئذ قل : (يا الله .. لم أعد عبداً للطواغيت . لم أعد عبداً
للنمرود .. يا الله إني أقف أمامك كما وقف أمامك قبلي عبده
إبراهيم .. متجرداً من طغيان الذئاب .. متجرداً من غش الشعال ..
متجرداً من شح الفتران .. كلا ! .. إني لا أقف بين يديك إلاً كمجرد
«إنسان» يلبس ذات الكفن الذي سيلقاك به في دار الآخرة).
إنَّ هذا الحضور الكامل يعني أنك قررت بكمال إرادتك ووعيك

(١) إذا لم يحرم عقب صلاة مكتوبة صلى ركعتين وهو مستحبتان.

أن تكون عبد الله وحده، تؤمن به وحده، وتُكفر بكل ما دونه.

وقد عبرت عملياً عن حضورك التام كما كلفك به سبحانه من واجبات فرائض . . إن هذا الحضور التام وهذه المعاني التي تنبثق منها هي المعاني نفسها التي تنبثق من الصلوات الخمس التي تؤديها في اليوم والليلة، ولكنها في هذا المقام تكتسب خاصية فريدة في استجابتك لدعوة أبيك إبراهيم، تتجسد في مناجاتك الحميمة معه سبحانه وأنت تستشعر حضوره جل شأنه قريباً منك .

قل : (يا الله . . يا أكرم الأكرمين . . يا أرحم الراحمين . . يا من تعلت رحمتك وعزتك فوق صدقة الأصدقاء وعداوة الأعداء ، وصلاح الصالحين وفساد المفسدين ، وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين .

يا الله إني أعبدك لأنك وحدك أهل للعبادة . . لم أختر لِي سيداً سواك . . أنت مالك يوم الحساب ويوم الدين : ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿أَنَّفَرَ أَنْجَيَهُ مَنِلِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

لك حبنا كلهم . . ولا معين لنا سواك . . ترانا أضعننا أنفسنا بجهلنا . . ترانا كيف ضلل بنا الطغاة . . ترانا ضعفاء تائهين : ﴿أَهَدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

عند الميقات في ثياب يوم الحشر البيضاء الكل يركع مستنكراً

(١) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ - ٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآيات: ٦ - ٨.

أفعاله التي دفعته إليها دوافع الخوف والطمع .. سائلًا المغفرة مما اقترفه في حياته من هذه الأفعال؛ فكل سجدة هي استغفار وتوبة مما ارتكبه طوعية و اختياراً.

الصلوة عند الميقات هي عهد مع الله بتوحيده: فلا رکوع، ولا سجود لأحد غيره.

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

كل هذه أذكار تشير إلى القرب، لا إلى البعد.

فإله سبحانه، وإبراهيم الخليل، ومحمد الحبيب، والخلق، والدار الآخرة، والنجاة، والفوز، والتحرر، والحب .. كل منهم حاضر في الميقات ..

فأنت في ثياب إبراهيم الخالية من الألوان تولد من جديد ..

إنك لا تولد من جديد فقط، إنك تبعث ..

لم يعد للشيطان الرجيم - العاصي لأوامر الله - سلطان يخدعك به ..

لم تعد تحس بمشاعر الغربة المشترية بالخزي.

لقد عدت إلى الله .. وأنت الآن حر مسؤول.

محظورات الإحرام

وأنت محرم عليك أن تجتنب عدداً من الأشياء.

يجمع هذه الأشياء المحظورة هو أنها تذكرك بتجارتك أو وظيفتك أو طبقتك الاجتماعية أو منصبك أو مكانتك أو عنصرك وحسبك ..

إنها تلك الأشياء الجوهرية التي تحدد حياتك في دنيا ما قبل الميقات.

قد نتفق أو نختلف حول بعضها، ولكن نحددها مجملة كما يأتي :

- * لا تنظر إلى المرأة.. حتى لا ترى صورتك، كي تنسى ذاتك مؤقتاً.

- * لا تستعمل طيباً ولا تستنشق عطراً.. حتى لا تستحضر ذكريات الأوقات الممتعة في الماضي.. إنك في بيئة جديدة تعبق

فيها الروح، ومن ثم فلا تستنشق إلا المودة والحب.

* لا تصدر أوامر لأحد حتى تستشعر معنى الأخوة.

* لا تؤذى حيواناً ولا حشرة.. ولتعش في سلام متوجهاً بكل يديك إلى الخالق الأعظم.

* لا تقطع ولا تقلع نباتاً ولا شجراً.. حتى تشمل رحمتك كل شيء، ولتنزع من نفسك نوازع العداون، وتستأصل عوامل الشر.

* لا تصطاد من البر شيئاً، ولا تأكل من لحمه إذا صيد لك.. حتى تكون رحيمًا بالآخرين.

* اجتنب النساء، وكل مقدمات الجماع.. ولست لهم الحب الحقيقي.. حتى تتسامي و تكون في مستوى قداسة الموقف ومناسكه.

* لا تعقد زواجاً لك ولا لغيرك، ولا تشارك في مراسم زواج.

* لا تفسق، ولا ترفث، ولا تلعن، ولا تبغض، ولا تقسم.

* لا ترتدي المخيط من الثياب، ولتكن كل ثيابك قماشاً خالياً تماماً من المخيط.. حتى تتأي عن التمييز بين إخوانك.

* لا تغطي رأسك.. للرجال.

* لا تغطي وجهك.. للنساء.

* لا ترتدي حذاء ولا جورباً ..

* تجرّد من كل أنواع الزينة ..

* لا تحلق رأسك ..

* لا تقلّم أظافرك ..

* لا تستعمل دهاناً ..

لقد بدأ الحج ! .. .

سارع إلى الله .. .

أنت الآن في حالة الإحرام .. .

قل : لبيك .. (لقد ناداك الله تعالى ، وأنت هنا تلبية لدعوته ،
وعليك أن تكون في أتم الطاعة له) .. .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إِنَّ الْحَمْدَ
والنِّعْمَةَ لِكَ وَالْمُلْكَ ، لَا شَرِيكَ لَكَ .. .

إِنَّ نداء الناس : (لبيك اللهم لبيك) هو إعلان استنكار ورفض
لطغيان واستغلال وخداع القوى العظمى .. .

إِنَّ كُلَّ حاجٍ مِّنْ مَكَانٍ يَخاطِبُ اللَّهَ الْأَعْظَمِ .. .

تخيل أيها الإنسان في هذا المقام كأنك جسم من الحديد في
مجال ممغنط .. .

تخيل كأنك في سرب من الطير الذي يضم الملايين وهو
يصعد محلقاً في السماء عارجاً إلى الملاأ الأعلى .. .

أنت الآن تقترب من الكعبة ..

كلما ازدلت قرباً ازداد خفقان قلبك، وجاشت عاطفتك،
وتزلزلت أركانك. إن قلبك يخفق بشدة تحت جدار الصدر،
ويقشعز جلدك من هول الموقف.

إنَّ روح الله تملأ المكان، ولا تستطيع أن تحبس دموعك ..

إنه بيت الله الحرام، وأنت تحس به سبحانه أقرب إليك من
حبل الوريد .. تحت جلدك وفي قلبك وفي ذهنك .. يملأ عليك
حواسك؛ فتراه سبحانه على كل سطح جماد وفي كل حبة رمل ..
في الوادي .. في الصحراء، لا ترى أحداً سواه ..

إنه هو وحده الموجود، وكل شيء دونه غثاء .. فقاعات.

إنه هو وحده الحق وكل ما عداه باطل ..

* * *

وبينما تمضي في رحلتك عبر مناسك الحج المختلفة، تبتعد
رويداً رويداً عن نفسك ..

إنك مجبر على السير في اتجاه واحد لا تستطيع فكاكاً منه ..
إنك تتقدم إلى الأمام رغمما عنك، والكون كله يبدو كالقلب
الخافق، والله تعالى يتجلى في كل أنحاءه.

الآن تدخل إلى جوار الكعبة حيث أرض الحرم بكل
بركاتها ..

الإحساس بالأمن يتولد داخلك بمجرد دخولك ..

لا قتال.. لا صيد.. لا قتل.. وحتى النبات لا يقطع!..
لا شيء من ذلك مباح في أرض الحرم..

هذه الضوابط وضعت يوم فتح الرسول ﷺ مكة وخلص
الكعبة من الأصنام، ومنذئذ أرسى هذه السنن التي تُحرّم أفعالاً
معينة في تلك الأرض المقدسة.

ما إن تدخل إلى جوار الكعبة حتى يتوقف نداء التلبية، ويلف
الصمت المكان..

هذه علامة وصولك.. حيث تلقى المضيف.. صاحب
البيت.. الله الرحمن الرحيم..

الجميع في سكينة وهدوء، ولكن في قلب كل واحد يشتعل
الحب..

مدينة مكة أشبه ما يكون بسهل واسع منبسط تحيط به الجبال
من كل جانب.

كل وادٍ وشارع و درب يتوجه نحو هذا البيت العظيم،
والكعبة هي المركز والقبلة..

إنك تنظر إلى موكب متناسق ينحدر من سطح الجبال
كمجاري نهر أبيض يصب في المسجد الحرام..

ووسط هذا الخضم داخل هذا النهر تشعر كأنك قطرة..

كلما ازدلت اقتراباً من الكعبة ازداد شعورك بالعزّة والفخر..

إنك في انحدارك من الجبل باتجاه الكعبة تقترب من لقاء

الله ..

الكعبة هي القبلة، والتواضع والطاعة والانكسار والخشوع، وهي السبيل الوحيد الذي يقربك من الشرف والكرامة اللذين يوصلانك إلى العظمة ..

وهذا يعني أنه يجب عليك أن لا تبحث عنه سبحانه عن طريق الفلسفات والميتافيزيقيات (الماورائيات).

إنَّ أمامك الطريق سهلة منبسطة عبر هذه الأرض، وفي ثنايا هذه المناسك ..

إنك تستطيع أن تراه سبحانه من خلال منهجه، وفي كل مخلوقاته التي تُسبِّح بحمده ..

تذَكَّر دائمًا أنك لكي تلقى الله لا بدَّ أن تسلك السبيل القويم، ولذلك لا بدَّ أن توطن نفسك وتستعد لتعرف هذا السبيل! ..

إنَّ هذا المنظر السابق يذكرك بمصير الإنسان: فهو منظر يرمي لانحدار الإنسان العميق نحو الأرض (حيث يدفن) ثم ارتقائه نحو الله (عندما يبعث يوم القيمة).

* * *

إنك لا تزال تقترب من الكعبة، والهواء عابق بالأفكار والعواطف والمشاعر والحب والصمت.

إنَّ في كل خطوة تخطوها، وفي كل لحظة تمرَّ عليك تزداد

رغبةً ورعباً.. رجاءً وخوفاً.. حباً وإشفاقاً.. إن اقترابك من حضرة الله القدسية يزداد، وعيناك تتسعان، وأنت شاخص بيصرك تجاه الكعبة..

لم تعد تستطيع أن تأخذ أنفاسك.. فؤادك ممتليء بالرجاء والحب.. شفتاك لا تنبسان بكلمة.. شعور يغمرك، وتعجب لجسمك وقلبك كيف يطيقان تحمل كل هذا؟!

عندما تنحدر وأنت قطرة وسط هذا النهر الأبيض، تشعر ب نهايتك الأبدية..

وفجأة تجلى الكعبة أمام ناظريك..

الكعبة التي هي قبلة كل المسلمين في صلواتهم في كل أنحاء الأرض.

الكعبة التي هي مركز وجودهم وإيمانهم وحياتهم.

الكعبة التي هي قبلتهم حتى في لحظات الاحتضار قبل الموت.

وحتى بعد الموت حين يوجهون أجسادهم شطرها عندما يوارون الثرى..



الكعبة

من حجارة خشنة سوداء تقف الكعبة في نسق غاية في
البساطة ..

اللون الأبيض يسد فرجات البناء ، والكعبة مكعب فارغ .

ولا شيء غير ذلك ..

لا شيء مما ترى يجعلك تعجب أو تهتز ..

هنا .. لا يقف أحد ..

وليس هناك شيء تتأمله ..

لا ترى سوى غرفة مكعبة فارغة ..

هل هذا كل ما هنالك؟! ..

هل هذا مركز إيمانك وحبك وحياتك وموتك؟! ..

وتتوالى الوساوس في ذهنك : أين أنا؟ . ماذا هنا؟ ..

إنَّ الذي تراه هو النقيض لما في خيالك!

ربما كنت تصورها لوحة في فن المعمار مليئة بالزخارف ..
 ربما كنت تخيلها كأحد الأضرحة التي زرتها من قبل لأحد المشاهير ..

ربما . . . وربما . . !

ولا محل لهذا كله من الواقع الذي تشاهده أمامك .
 وبدلًا من كل هذه التخيلات ، تجد أمامك ساحة منبسطة ،
 وغرفة فارغة لا تعكس أية مهارة معمارية ولا جمال ولا فن ولا
 نقوش ولا جودة!! ..

ثم إنه ليس هناك ضريح لأحد حتى تتوجه إليه بالنية أو
 بالذكريات أو بالشعور!!! ..

ستعلم أنه لا شيء هناك .. ولا أحد ..؛ حتى لا يعكر
 عليك صفو اتصالك بالله تعالى .. إن الكعبة التي تريد التحلق
 فوقها وحولها لتتصل (بالمتى) و (الأبد) و (السرمد) هي منتهي
 مشاعرك ومطلق غاياتك ..

هذه آفاق لن تستطيع أن تبلغها في عالمك النسبي
 المزدحم ..

قد تستطيع أن تفلسف الأمور ، ولكنك الآن لا تحتاج إلى
 ذلك ، لأنك تستطيع أن ترى (المطلق) الواحد الذي لا يحده حد
 ولا يحصره تصور سبحانه : الله! ﴿وَهُوَ مَعْلُوٌ أَيْنَ مَا كُثِّمَ﴾^(١).

(١) سورة الحديد ، الآية : ٤.

لا تحسب أن الكعبة بناء فارغ ..

إنها هنا لها وظيفة العلامة والدليل والمرشد، فهي ليست نقطة النهاية، وإنما هي هنا لتدرك على الاتجاه ..

إنها الزاوية التي إليها ترکن، والمعلم الذي يدرك على الطريق ..

إنك تبدأ الحج حينما تقرر أن تتحرك تجاه الأبدية ..

إنها حركة أبدية نحو الله لا نحو الكعبة ..

فالكعبة ما هي إلا بداية ..

إنها المكان الذي يلتقي الله تعالى وإبراهيم الخليل
ومحمد ﷺ بالناس ..

إن وجودك مرهون بتخلية قلبك من ذاتك وتجردك منها؛ لذا عليك أن تذوب في محيط الناس .. إنك هنا لا ترتدي لباساً خاصاً ..

إن الله قد جعلك من أهله «الناس عيال الله» وهو سبحانه القيوم عليهم وأولى بهم من أنفسهم ..

فالكعبة «بيت الله» وفي نفس الوقت «بيت الناس»:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَبَكَّهُ مُبَارَّكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

لن يتسعى لك أن تبدأ رحلتك السرمدية داخل البيت الحرام
حتى تتجدد من حصر اهتمامك في ذاتك . . .

لقد سمي البيت بـ «العتيق» وهو عتيق لأنه يمثل
التحيز^(١) . . .

فأرض الحرم ليست ملكاً لأحد . . إنها أرض حرة من أي
رباط بالحكام والطغاة . . ولهذا لا يمكن لأحد أن يسيطر عليها . .

إنَّ أرض الحرم ملك الله وحده، وما الناس إلَّا سكانها . .

لقد رُخص لل المسلمين أن يقصروا الصلاة كلما سافروا مسافة
تزيد عن الأربعين ميلاً من مقر إقامتهم، لكن في مكة . . في أرض
الحرم، ودون أي اعتبار لأي مكان جئت منه أو مسافة قطعتها،
تظل صلاتك كاملة لا تقصُرها .

إنها أرضك وأنت آمن بها . .

إنك لست ضيفاً . . إنه بيتك . .

قبل مجئك إلى مكة فأنت غريب بأرضك . . منفي بها . .

ولكن الآن أنت أحد المدعويين للانضمام إلى أسرة الله
وأهلها .

إنَّ الإنسانية بأسِرِها - تلك الأُسر المشردة في هذا العالم -
مدعوة لهذا البيت . .

(١) من العتق: وهو للرقين.

إنك كفرد من هذه الأسرة البشرية مستغرق في ذاتك ، تشعر
كأنك بلا دار .. غريب .. بلا مأوى ولا أهل ..
لهذا عليك أن تنبذ كل ما يجعلك متميزاً؛ كي تذوب في
المحيط البشري ..

أنت الآن تتهيأ لتدخل وتنضم إلى أسرتك الجديدة ..
لقد حللت أهلاً ونزلت سهلاً .. صديقاً وأخاً قريباً في أسرة
الله ليصبح من (عيال الله) .

إبراهيم عليه السلام أقدم وأكبر متمرد في التاريخ إنه يتجلّى الآن ..
لقد أنكر كل أصنام الأرض ، وأخلص حبه وطاعته وعبادته
له وحده ، وبنى بيديه الكعبة .. هذا البناء الذي هو رمز الله في
الأرض ..

البناء غاية في البساطة ، من حجارة جبل عجون^(١) السوداء
حيث وضع حجر فوق الآخر دون تخطيط معماري ولا رسومات
هندسية ولا نماذج وديكورات ..
لكن .. لماذا المكعب؟ ..

ولماذا تكون بهذه البساطة دون ألوان ولا زينة؟ ..

ذلك لأن الله ليس كمثله شيء؛ فلا هيئة تمثله ، ولا لون
يشبهه سبحانه ..

(١) عجون جبال قرية من مكة.

إنه سبحانه لا شيء من النماذج والصور التي تحصر خيال الإنسان يمكن أن يتمثله .. إنه (الوجود الكامل) و (القدرة المحيطة) وإليه (المتتهى) ..

ورغم أن الكعبة ليس لها اتجاه - فهي مكعبه الشكل - فأن ت
حين تستقبلها في صلاتك تكون قد اخترت التوجه إلى الله،
وستقبل وجهه الكريم .

إنَّ خلو الكعبة من أي اتجاه قد يبدو صعباً على الأفهام، لكن
الكونية والنهاية ينبعان من تلك المسألة نفسها؛ فالمكعب هو
الشكل الوحيد الذي يحتوي على ستة جوانب وفي الوقت نفسه لا
اتجاه له ..

الكعبة هي الأصل الذي يرمز لذلك :

﴿وَلَهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١).

في أي مكان خارج الكعبة تصلي فيه يجب أن تستقبلها ..

كل بناء غير الكعبة له اتجاه: شمال أو جنوب .. شرق أو
غرب .. فوق أو تحت .. والكعبة استثناء: إنها تستقبل كل الوجهات
دون أن تقتصر على واحد منها ..

* * *

ناحية الشرق من الكعبة يقوم جدار قصير في شكل شبه
دائرى ..

(١) سورة البقرة: الآية: ١١٥.

إنه : (حجر إسماعيل)! ..

وهو أشبه ما يكون بأطراف الرداء المثنى ، وجداره هلالية
الشكل ..

كان لسارة زوجة سيدنا إبراهيم خادمة سوداء تدعى هاجر ..
وكانت هاجر من المسكونة والضعف بحيث لم تعترض سارة
على تسرّي زوجها إبراهيم بها حتى تحمل وتلد ..

إنها امرأة لم تكن ترقى لأن تكون زوجة ثانية لإبراهيم .

ومع ذلك فقد جعل الله تعالى الجدار الذي يرمز إلى حجرها
موصلاً بكتبه التي ترمز إليه سبحانه .

كان حجر هاجر هو المكان الذي ترعرع فيه إسماعيل ..

بيت هاجر كان هناك ، وقبرها إلى العمود الثالث للكعبة ..

يا للعجب .. !!

لا أحد - مهما كان شأنه - ولا حتى الأنبياء يحوز أن يدفناوا
داخل المساجد ، لكن في حالتنا هذه نجد بيت الأمة السوداء قد
شيد إلى جوار بيت الله !!! ..

وقبر الأمة السوداء (هاجر) أم إسماعيل يوجد هنا ، والكعبة
ممتدة باتجاه القبر !! ..

وهكذا تكون النتيجة مجاورة حجرها لبيت الله ..

* * *

يوجد ممر ضيق بين جدار حجر إسماعيل والكعبة ، وعند

الطواف يأمرك الله أن تدور حول الجدار، لا أن تشق طريقك عبر الممر، وإن فعلت فإن حجك لا يقبل..

على هؤلاء الملبين لدعوة الله المدينين بالتوحيد القاصدين بيت الله أن يطوفوا حول الكعبة بما فيها حجر إسماعيل..

لقد أضحت قبر الأمة الإفريقية السوداء والأم الصالحة التقية جزءاً من الكعبة يطوف حوله الناس أبد الدهر..

إنَّ الله الرحمن الرحيم جلَّ قدرته أحد واحد فرد صمد، تناهت عظمته، لا يفتقر إلى أحد من خلائقه التي لا تحصى.. اختار أحدهم:

إنسان.. من أكرمهم.

من بين كل الناس: اختار من النساء.

من بين كل النساء: اختار من الإماماء.

من بين كل الإماماء: اختار أمَّة سوداء!

أضعف خلقه وأكثرهم مسكنة وضعة هو الذي أعطاهم مكاناً إلى جواره.. حجرة في بيته.

بل إن الله اختارها إلى بيته واختار جوارها، ورعى حجرتها..

والآن لا يوجد تحت سقف هذا البيت سوى الله تعالى وهاجر.

في المجتمع الإسلامي (الجنود المجهولون) لا يتم اختيارهم هكذا..

إن شعائر الحج هي مذكرات هاجر، وكلمة (هجرة) مشتقة من اسمها، والمهاجر الأمثل من كانت قدوته (هاجر) أو كما يقول الرسول ﷺ . «المهاجر من صار كهاجر»

إن الهجرة هي ما فعلته هاجر: أي الانتقال من الهمجية إلى الحضارة، أو من الكفر إلى الإسلام.

أما المعنى الذي يعنيه اسم هاجر في لغتها الأم فهو (المدينة) ..

حتى اسم هذه الأمة الأثيوبيّة السوداء هو رمز الحضارة، بل إن هجرة على طريقة هجرة هاجر هي هجرة باتجاه الحضارة .. يقع قبر هاجر وسط طواف الإنسان حول الكعبة ..

وأنت أيها المهاجر، يا من حرر نفسه من كل شيء واستجابة لدعوة الله، سوف تطوف بقبر هاجر وكعبة الله في الوقت ذاته.

* * *

ما الذي قيل في الفقرات السابقة؟!
إنه صعب الإدراك ..

خاصة على الذين يعتقدون أنهم يعيشون في الحرية ويدافعون عن الإنسانية ..

إن جلال هذه الواقع يتتجاوز مدى فهمهم ..

* * *

الطواف

كالنهر المناسب الذي يدور حول صخرة حملة يبدو مشهد
الكعبة وهو محاط بأمواج البشر المنفعلة نفوسهم ..

إنها كالشمس في المركز ، والناس حولها كالأجرام التي
تبعد حولها ..

مدار النظام الشمسي : الكعبة قائمة في المركز ، والناس
يتحركون حولها في شكل دائري ..

الكعبة ترمز لخلود الله ودومته ، بينما الحركة الدائرية تمثل
النشاط الدائم والحركة المستمرة لخلائقه :

الدوم + الحركة + الانتظار = الطواف .

إنها رمزية رفيعة للنظام الكوني ، للوجود القائم على قواعد
التوحيد الذي سخره الله بكل ما فيه لـ : (الإنسان) ..

إنَّ الله تعالى هو مركز الوجود سبحانه ، وهو بؤرة هذا العالم

الزائل الذي نعرفه والعوالم الأخرى التي لا نعرفها ..

وعلى النقيض يكون الإنسان! فما أنت إلاً مجرد جسم يتحرك متغيراً مما هو عليه إلى ما ينبغي أن يكون عليه ..

وأياً كان مكانك وموقعك في أي زمان، عليك أن تجعل بينك وبين الكعبة رباطاً مستمراً دائماً، هذا الرباط يقوى ويضعف حسب السبيل الذي تختاره ..

والكعبة ليست هي المحطة الأخيرة ..

إنَّ الجميع يحيطون بالكعبة كشخصية معنوية واحدة ..

كتلة متحركة واحدة ..

إنهم هوية واحدة، لا هوية منفردة لأحد them .. رجلاً كان أو امرأة، أبيض أو أسود ..

إنه تحول الشخص الواحد إلى المجموع المنفرد من الناس ..

كل «أنا» تذوب لتصبح «نحن»، و «نحن» تؤلف «الأمة» التي تسعى إلى القربى، إلى الله .. إن سبيل الله هو سبيل الناس، بمعنى أنه لكي تقرب من الله عليك أن تقرب أولاً من الناس ..

لكن كيف يكون ذلك؟ ..

إنك لكي تبلغ درجة الصلاح، يجب أن تهتم اهتماماً أصيلاً بمشاكل الناس لا كما يهتم الراهب المنعزل في صومعته، ولكن بالمشاركة الفعلية الحية في (الميدان) ..

وذلك يعني أن تكون: جواداً، كريماً، معطاءاً، متفانياً،
ناكراً للذاتك ..

وهذا يعني أن تقاسي الأسر، والنفي، وتحمل العذاب
والألم، وأن تستعد لمواجهة أخطار جمة وموافقات رهيبة ..

هذا هو معنى أن تكون سالكاً لسبيل الناس الذي يقربك من
الله تعالى ..

لهذا قال صلي الله عليه وآله وسلم: «لكل دين رهبانية،
ورهبانية الإسلام الجهاد».

* * *

أثناء طوافك لا ينبغي عليك أن تدخل الكعبة، ولا ينبغي
عليك أن تتوقف في نقطة ما حولها ..

عليك أن تذوب في أمواج البشر، وأن تكون قطرة في خضم
النهر البشري المناسب. هذا هو السبيل الذي من خلاله تؤدي
الفرضية الخامسة ..

كل من أراد أن يأتي إلى هذا البيت عليه أن يذوب في
مجموع المسلمين ..

* * *

ما الذي يراه الناظر؟ ..

الكعبة قائمة هناك في المركز، والنهر الأبيض المناسب في
ذهبها وإياب، والكل يرتدي نفس الزي ونفس اللون ..

هنا لا تميز.. لا طبقية.. لا تعالى..

هنا يتأكد معنى الجماعة الحق، وتتجلى صورة العالمية..

خارج الكعبة لكل وجهة هو مولىها، ولكل واحد قسماً مختلفاً..

(الجماعية) خارج الكعبة لا تعدو أن تكون مفهوماً نظرياً، و(الإنسانية) ليست إلا فكرة مجردة في الأذهان..

الناس خارج الكعبة يتميزون بأسمائهم وألقابهم وأجناسهم وقومياتهم..

وداخل الكعبة تختفي كل هذه الخصائص، ويحل محلها مفهوم الجماعية والعالمية، وبهما وحدهما يمكن أن تجد للناس تعريفاً..

هؤلاء الذين يطوفون حول الكعبة يمثلون (الإنسانية) فهم وفد الحجيج من (الناس).

إنَّ بقيت دائرة طوافاً في ذلك ذاتك فلست بحق جزءاً من دائرة الطواف حول الكعبة.. ستكون مجرد زائر غريب على شاطئ الهر الأبيض، لا قطرة فيه..

إنَّ الذين انفصلوا عن ذواتهم هم الأحياء..

أما الذين حبسوا أنفسهم داخل ذواتهم فهم ركود وموتى..

إنهم كال أجسام الشاردة في النظام المداري للسماء..

إنَّ الْكَعْبَةَ تَعْلَمُكَ كَيْفَ تُثْبِتَ ذَاتَكَ وَتُؤْكِدُهَا بِالطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ، وَتُعْبَرُ عَنْ وُجُودِكَ، وَتَصْبِحُ مِنَ الْخَالِدِينَ عَنْ طَرِيقِ الْانْتِقَاصِ مِنْ قِيَوْدِ الذَّاتِيَّةِ.

وَلَا يَتَحْقِقُ هَذَا إِلَّا بِالْمَرَانِ عَلَى السَّخَاءِ وَالْعَطْفِ عَلَى الْآخَرِينَ، وَالتَّفَانِي فِي سَبِيلِ الْأُمَّةِ. بِالْخَتْصَارِ أَنْ تَوْقَ شَعَّ نَفْسِكَ، وَبِهَا سَتَكْشِفُ غُطَاءَ ذَاتِكَ، وَتَبْصُرُ الْوَاقِعَ ..

حِينَما تَجْعَلُ مِنْ حَيَاتِكَ رِسَالَةً وَتَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَتَصْلِي إِلَى أَعْلَى مَا يَصْلِي إِلَيْهِ الْمُجَاهِدُ وَهُوَ بَذْلُ دَمِهِ فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَمِنْ ثُمَّ تُسَمَّى (شَهِيدًا) ..

وَ(الشَّهَادَةُ) هِيَ أَنْ تَكُونَ حَاضِرًا وَحَيَا بِكُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ سَمَاتِ ..

فَالشَّهِيدُ مُوْجُودٌ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ، فَهُوَ مَثَلُ (الْحَيَاةِ الْأَبْدِيَّةِ).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ فَلَوْا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَالَهُمْ أَنَّهُمْ بَلَّ أَحْيَاءً وَعِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١).

إِنَّ سَبِيلَ اللهِ هُوَ سَبِيلُ النَّاسِ^(٢)، كَلَاهُمَا وَاحِدٌ، لَيْسَ هُنَاكَ مِنْ سَبِيلٍ مِنَ الْفَرْدَيَةِ إِلَى اللهِ ..

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) كثيراً ما يحاول شريعتي الربط بين هذين السبيلين: سبيل الله وسبيل الناس. حيث يقول إنَّ الله سبحانه قد افتح قرآنَه باسم الله وختمه باسم الناس، وهذا يتضح منْهُمْ الخلافة - وراثة آدم عليه السلام عبر مرحلة في مدرسة شريعتي - راجع كتاب الشهادة، ط١ سنة ٢٠٠٢، دار الأمير - بيروت. «الناشر»

وقد تساءل : فلماذا إذا العبادات الفردية؟

لتعد نفسك وتربيها ، إنها شرعت لكى تدربك على التفاني ..

فهي تعبير عن البذل بكل صوره الراقية : الغاية في الكرم ،
ونكران الذات (الإيثار) ، والتضحية في سبيل الآخرين .. وكل ذلك
إلى النهاية حتى تصل إلى درجة الرجل الأمثل أو المرأة المثلث ..

فالإنسان ما هو إلا خليفة الله تعالى في الأرض ، وحامل أمانته
من لدن (آدم) ..

وما دام هو على العهد ، سيبقى إلى ما شاء الله أن يبقى ..

فالشخص الذي يحيا كإنسان ، سيبقى خالداً حتى ولو
مات ..

لأن الواحد المفرد فain ، في حين أنك كإنسان باق ..

إن قطرة الماء إذا لم تكن جزءاً من النهر أو لم تكن ذاتية في
البحر ، فإنها تصبح ك قطرة الندى تبقى ما بقي الليل فقط ، وتتلاشى
مع أنفاس الصباح الأولى ..

أيها الإنسان ! أدخل إلى النهر ، وتدفق معه ؛ حتى تلقى البحر
وتصير خالداً ..

ويما قطرة الندى ! لماذا تقفين على الشاطئ ولا تلجين
النهر ؟ ! ..

هذا النهر نموذج لتناسق الخلق وانسجامه .. تقدم وانضم إلى
الناس .. لكن قبل أن تفعل ذلك تأكد أنك تعى تماماً ما تفعله

ولماذا تفعله: يجب أن تقدم على ذلك في سبيل الله، لا في سبيل نفسك . . في سبيل الحق، لا من أجل الضرورة.

هنا كل فعل له مغزى هام، وهذه الحركة الخالدة محكومة بضوابط دقيقة هي انعكاس لنظام الوجود كله.

* * *

البيعة والحجر الأسود

الطواف يبدأ وجوباً من الحجر الأسود ..

من هذا الموضع ستدخل إلى النظام الكوني ..

من هذا الموضع ستذوب في محيط الآخرين ..

هذا هو سبilk إلى الخلود، بعثورك على الفلك الذي تدور

فيه ..

إذا لم تذهب في محيط الناس فلن تستطيع أن تسبح في فلك
الدوار، ولا أن تقترب من الله سبحانه ..

عليك أن تستلم الحجر الأسود أو أن تشير إليه، ومن ثم
تصير تلقائياً جزءاً من المحيط البشري ..

ما الذي يرمي إلية هذا الحجر؟ ..

إنه يرمي إلى (كف) .. كف يُمثّل ..

كُفْ يمنى لمن؟

إنه يمين الله ..

«الحجر الأسود يمين الله في أرضه»^(١).

* * *

في الماضي كانت القبائل والأفراد تدخل في عقود مع قبائل أخرى، وكانت تلك العهود والمواثيق والعقود غالباً لحفظ سلامتهم وتأمين وجودهم والدفاع عنهم في تلك الصحراء، وكانت هذه العقود تسمى البيعة.

كيف كانت تتم هذه البيعة؟ ..

تتقدم إلى رئيس القبيلة، إلى القائد، تبسيط يدك اليمني، فيمد يده اليمني فيضعها فوق يدك اليمني، وتكون بذلك قد أقررت له بالبيعة وتعاقدت معه. وكانت السنة تقضي إذا بایعت أحداً فقد تخلّيت بذلك عن بیعاتك السابقة.

الآن ... هنا .. عند الحجر الأسود .. تحين لحظة الاختيار الأكبر.

إنَّ يمين الله منبسطة إليك، و اختيار هدفك وطريقك ومستقبلك قبل أن تنضم إلى الناس مرهون بمصافحة هذه اليمين .. وهكذا تؤدي البيعة لكي تكون حليفاً للله ..

(١) حديث ضعيف.

أنت الآن متحرر من كل ولاء سابق.. لم تعد حليفاً للسلطان، ولا للمنافقين، ولا لزعماء القبائل، ولا لأستقراططي قريش، ولا لأصحاب الأموال..

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١).

فلتستلم يد الله الأعلى، ولتكن هذه اليد فوق كل الذين مددت إليهم يدك من قبل بالولاء والبيعة..

الآن بعد أن تحررت من ولاءاتك السابقة، وجددت عهدهم مع الله لتكون خليفة في أرضه حاملاً للأمانة التي عرضها الله من قبل..

عليك إذاً أن تنضم إلى الناس، وتؤدي واجبك..

لا تقف.. بل واصل السير، لا فكاك لك من أن تختار، ولا بد أن تحدد فلك الذي تدور فيه..

التحق بالنظام، وتحرك مع الآخرين..

عندما تطوف حول الكعبة تشعر بحركتك هذه أنك جدول صغير يتدفق إلى نهر كبير! كأنك محمول بالأمواج، لا سائراً على قدسك!..

لقد رُفِغْتَ عن الأرض، ووجدت نفسك فجأة طافياً في الخضم محمولاً بالطوفان..

عندما تقترب من الوسط فإن الجموع تشتد في الضغط عليك
كأنما تنفع فيك حياة جديدة..

أنت الآن جزء من الإنسانية.. إنسان حي وخلد لا تتحرك
(بذاتك) ولكن (بالآخرين)..

انضم إلى الجموع في حب بعيداً عن التصنع والمظهرية..

* * *

انظر إلى إله إبراهيم.. حينما جعلك من نسبه، جعلك في
الحقيقة من نسب الناس، وبهذه الطريقة العميقة الرقيقة الجميلة
نسبك إلى الناس بقوة الاعتصام بحبه عن طريق حبه الذي يملأ
شغاف القلوب..

ورغمًا عن كونك هنا لتلقى الله، تجد نفسك في شغل
 بالناس..

لقد دعاك الله وأنت في مكانك بعيد لزيارته، وعندما أتيت
 مليئاً، طلب منك أن تتضمن إلى الناس.

إنك لن تدخل البيت لتحملق فيه، بل عليك أن تواصل
 طوافك ولتبق الكتف حذو الكتف مع الناس.

الكعبة لا تعدو أن تكون مركزاً للفلك الذي تدور فيه..

لن تكون داخل الفلك إذا توقفت أو تركت موضعك أو
 تحركت عكس مداره..

لا تقف ولا تذهب يميناً أو يساراً، القبلة أمامك فارم بيصرك

نحوها وواصل انطلاقك للأمام، أنت منجذب نحو شمس العالم الأرضي (الكعبة) ودائر في فلكها، وبهذا تصبح جزءاً من نظام الوجود على الأرض.

حركة الطواف هي حركة قرب من الله.. تدور وتدور حول الكعبة، ووسط هذا الكم الهائل من المنجذبين لا تلبث أن تنسى نفسك ولا ترى أحداً، بل تراه (هو).

أنت الآن ذائب في هذا النهر الأبيض المناسب، فأنت الآن: «لا شيء» يستشعر وجوده! وأنت الآن: «الموجود» الذي لا يستشعر شيئاً!!

في طوافك أنت كالجسيم في حركته الدائرية التي تمثل فلكاً ومداراً ومنسقاً من مناسك الحج. وكل المعانى ترمز إلى الله تعالى.

* * *

أنت الآن في مقام التسليم.

عندما تتجاوز ذاتك فإنك تنحد شكلًا جديداً وتصبح ذلك الجسيم الذي يذوب تدريجياً وتتلاشى.

الحب في ذروته هو انطلاق، وأنت الآن متفانٍ في الحب..

إنك تجسد الحب في صورة حركة، وأمثال تعبير عن الحب في صورة حركة هو حركة الفراش

إنه يعني أن تتلاشى، وأن تذيب نفسك في هذا المحيط من

الحب، ثم تخرج نظيفاً طاهراً بلا ذنوب، تخطوا نحو مقام إبراهيم . .

اختصاراً: يمكن القول إنَّ الكعبة هي محور الحب، في حين أنك البوصلة التي تدور حول محورها . .

ما الذي أعرفه أنا؟ . . هذا هو فهمي فقط، ولكنها ليست كل المعاني . .

* * *

هاجر هي مثال الإنسانية :

لقد أمرها الله (الرحمن الرحيم) أن تترك بيتها ومعها طفلها الرضيع، وجاءها الأمر بالذهاب إلى ذلك الوادي المخيف في مكة، حيث لا زرع ولا حتى نبات شوكي يمكن أن ينمو.

لكن حب الله تعالى يدفعها لأن تطيع أوامره . .

الأمر يبدو غريباً! امرأة ليس معها سوى طفل، تضرب في عمق هذا الوادي الموحش ووسط البراكين الخامدة، دون ماء وبلا مأوى وليس معها أحداً!

لكن لماذا كل ذلك؟!

إنَّ الله يريد منا أن نخلص التوكُّل عليه سبحانه . .

هذا المنطق ليس مفهوماً بمعايير حكمتنا . .

بل إنه يبدو غير منطقي!! . .

إن الماء ضروري للإنسان البالغ .

والطفل الرضيع يحتاج للبن الأم ..

والرجل يحتاج فوق ضرورياته لأصدقاء ومجتمع ..

والمرأة تحتاج لمن يحميها ، والأم فوق كل ذلك تحتاج لمن يعينها ..

كل ذلك حق ..

لكن الحب عند هاجر يمكن أن يعدل ذلك كله ..

إن المرأة يستطيع أن يعيش بالحب إذا كانت روحه تدرك

معناه ..

* * *

أنت أيتها الأمة الوحيدة والأم المرضعة التي لا حيلة لها ..

أنت وطفلك توكلًا على الله ، واستشعرًا الأمان في الحب ..

توكلا عليه وحده سبحانه .

* * *

مقام إبراهيم

بنهاية الشوط السابع تنتهي مرحلة الطواف ..

لماذا سبعة أشواط؟! ..

نعم .. إن سبعة هنا لا تعني ذلك المعنى البسيط : الرقم الذي يساوي ستة مضافاً إليه واحد، ولكنه يذكرك بطبقات السماوات السبع ..

الطواف هو معراج، ولكنه معراج من أجل الناس، والحركة الأبدية في سبيل الخير العام ..

إنه حج وليس مجرد زيارة دينية ..

إنه تظاهرة أصلية للوجود ..

إنه ترجمة لعقيدة التوحيد، وتفسير صادق لها ..

* * *

عند مقام إبراهيم مصلى .. عليك أن تصلي ركعتين ..

أين هذا المقام؟

إنَّ قطعة صخرية مطبوع عليها قد미 إبراهيم عليه السلام.

على هذه الصخرة وقف إبراهيم، ووضع حجر الزاوية
(الحجر الأسود) ..

وعلَى هذه الصخرة وقف هنا ليضع قواعد بناء الكعبة؟ ..

إنَّ الوقوف بمقام إبراهيم يعني أن تقف حيثما كان يقف ..

من؟ ! أنت؟ !

ليس صعباً أن تدرك ماذا يمكن أن يفعل التوحيد بالإنسان ..

في بعض الأحيان يتواضع بك حتى تكون لا شيء، وينكر
حتى وجودك ويلصقك بالطين ..

وأحياناً أخرى ينفع فيك قدرأً عظيماً من سمو الروح حتى
يرفعك إلى القرب من الله تعالى، وقد عانيت منه ما عانيت، وبعد
ذلك تأتي الحالة الثانية (السمو الروحي والقرب من الله) بسجودك له
سبحانه عند مقام إبراهيم، عندئذ سينادي عليك: أنت أيها العبد
المخلص الخليل، أيها العبد الصادق الأمين، يا من إذا أمرته أطاع،
ويما من سخرت الوجود كله له، واصطفيته ليكون من عبادي
المقربين ..

* * *

مضت - بالتقريب - ساعة منذ وقفت على ضفة هذا النهر
الأبيض تفكِّر في نفسك وتراقب الناس، ولا ت يريد أن تكون واحداً
منهم ..

أنت جُسِّيم عاطل لا فائدة منه!

والله يوبخك: لقد كنت (صلصال كائفخار) و (حماً مسنون)
و (تراب)..

لكنك الآن حيٌ متتحرك، تنتقل راجلاً وراكباً وطائراً..

لم تعد راكداً ولا متعفناً ولا كماً مهملاً.

إنك الآن تز مجر، وتزيل الصخور، وتحطم السدود، وتنسق
طريقك عارجاً إلى بستان السماوات في وسط هذا الصحراء.

ها أنت الآن تتدفق مع النهر الأبيض، وتروي الأرض وتسقي
المزارع من نباتات وورود، وفي الوقت نفسه تبذر في التربة آلاف
البذور حيث ينبت منها آلاف البراعم التي لا تلبث أن تزهر وتمتد
عبر التربة، وتشق الأرض صاعدة نحو السماء، ساقفة باسقة
بأوراقها وثمارها ..

أما إذا لم تتحرك فستغدو كالتراث الموروث، وكالتميمة التي
يتبرك بها، ثم تصير جافاً قاسياً، وقد يزول الأمر إلى تشوهك ثم
مسخك، وفي الوقت ذاته ستتحطم كل هذه الإمكانيات وتُدفن ..

﴿وَنَقِيسْ وَمَا سَوَّنَا ﴿٧﴾ فَأَلْمَتْنَا بُقُورَهَا وَنَقَوَنَهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
رَّزَّكَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّنَهَا﴾^(١).

أثناء تدفق النهر فإنه يهب الحياة لطبعية الميتة، كما كان

عيسى عليه السلام يفعل ، ولكنك إن أخلدت إلى الأرض وظللت كالحما
المسنون منزويأ تستمتع أو تقاسي فسوف تتعرف لا محالة ، وسينموا
بداخلك عدد لا حصر له من الجراثيم ، وسوف يتغير لونك وتصبح
رائحتك نتنة لا تطاق ..

تعال لتدعي الحج ! ..

انضم إلى النهر الإنساني الأبيض لتغدو معه سابحاً ..
إن سباحة ساعة واحدة في (نهر الحب) ستجعلك تقلع عن
عبادة الذات ..

إن سباحة ساعة واحدة في (نهر الحب) ستخرجك من
وجودك الميت ل تستشرف حياة جديدة بين أناس ذوي وجود خالد
في الفلك الدوار الحي ..

* * *

الآن أنت كإبراهيم !

تبدأ المرحلة الثانية من النقطة التي بدأت منها الطواف ..
عليك أن تخبط خارجاً من دائرة كالحياة بعد الموت ؛ حيث
يبعث الإنسان من ذات المكان الذي يوارى فيه ..
روح الخير التي هي روح الله التي نفخها في هيكلك الطيني
تتجلى الآن ! ..

من أين تتجلى؟ ..

تظهر في المكان ذاته الذي دخلت منه إلى دائرة الطواف ..

تحت يمين الله ، وبعد أن تجاوز ذاتك بالخروج عن نوازعها وقضائك على الأثرة والأنانية والخصاصة في نفسك .. عندئذ تكتشف ذاتك الحقيقية وأنت ترتدي رداء الإحرام الأبيض الناصع في بيت الله ، وتقف وأمامك مقام إبراهيم ، وقد وضعت خطوك حيث كان إبراهيم يرفع القواعد .

وجهاً لوجهه مع الله .. فابداً صلاتك .

* * *

يحفظ تاريخ البشرية لإبراهيم عليه السلام أنه أعظم متمرد وقف ضد الصنمية والوثنية ، وأسس دعوة التوحيد في الأرض ..

ورغم بدنه الذي أنهكته المعاناة والبلاء فقد كان ذا ذهن حاد وقلب مليء بالحب ، إلى جانب أنه كان يحمل فأساً في يده !! .. إنه بحقنبي المسؤولية والإمامية .

فيه قد أشراق الإيمان في معقل الكفر ، وتفجر نبع التوحيد من بين أصنام مادية ومعنوية ..

إن أول معركة لإبراهيم ضد الوثنية كانت في بيت (آزر) صانع الأصنام لقومه !

لم يقتصر إبراهيم على محاربة الأصنام والنمرود فقط ، ولكنه كان يحارب معها الجهل والطغيان ..

كان متمرداً على الرذائل .. رجل دعوة ورسالة وإيمان وعقيدة ..

لقد كان عليه السلام مصدراً للأمانى والأمال ..

أليقى إبراهيم في نار الطغيان والجهل ..

لكن عناء الله تمنع الاحتراق بتلك النار ..

وإن هذه النار هي النار ذاتها التي أوقدوها في مصير مستقبل كل من يسلك سبيل إبراهيم من الأفراد المسؤولين المدينين للنور والرشاد من رجال دعوة الإسلام ..

لكن الله عز وجل سيخنق وسط هذه النيران حديقة ورد! ..

لا .. لن تحرق ..

لا .. لن تحول إلى رماد ..

إن كانت أسوتك إبراهيم فقد تعرض إبراهيم لأنواع كثيرة من النيران ..

وهي رمز لمدى قربك من النار أثناء سعيك في مجاهدات الجهاد ..

يا لها من تجربة مريرة فاسية أن تقذف بنفسك في النيران،
ولكن مع ذلك :

فالشهادة أشد إيلاما.

يا إبراهيم ضحي بابنك : سماويل، وانحر عنقه بيديك، حتى
تحتفظ أعناق الناس من الحر

لكن .. أي ناس؟!

إنهم أولئك المؤمنون الذين يُضحي بهم على اعتاب قصور السلطان، أو بالقرب من خزائن أصحاب الأموال الحرام، أو داخل مؤسسات الطغاة الدينية المتّصفة بالخزي والنفاق ..

شجاعتك في أن تزع السيف من أيدي القتلة، وتمسك به .

انحر عنق إسماعيل ، والله (ربك) سيفتديه .

هل ستقتله حقاً؟ كلا لن تقتل ابنك ولن تفقده، ولكنك صرت أمة ..

إن هذه معارج الإيمان، وكان لا بد أن تصل إلى مرتبة التضحية بأحب ما عندك وبيديك .. فالتضحية أشد إيلاما من الاستشهاد .

* * *

نذكر أنك انتهيت لتوك من الطواف - طواف الحب - وتقف الآن في مقام إبراهيم ..

عندما وصل إبراهيم إلى هذا المقام كان قد قطع حياة مليئة بالجهاد والكفاح ضد النمرود والأصنام، وواجه الموت محترقاً في النار، وواجه كيد الشيطان، وضحي بابنه الوحيد إسماعيل، ومن قبل ذلك ومعه: كانت الهجرة والتشرد والوحدة ..

انظر إلى التقلة البعيدة: فبعد أن كان عاملأً في بيت آزر صانع الأصنام، أصبح عاملأً في بيت الله يبني الكعبة قلعة التوحيد !! هنا - في هذا المقام - وقف إبراهيم مخلفاً وراءه سنوات

طويلة مليئة بالصعاب ، وقد غزا المشيب شعر رأسه ..

إنه في ختام حياته القديمة - قدم التاريخ - يريد أن يشرع في بناء البيت ويرفع قواعده، ويضع الحجر الأسود، فبدأ في رفع القواعد، وإسماعيل بجانبه يساعد في حمل الأحجار.

لقد بني البيت .. !

إنه لما يثير العجب حقاً أن يكون إبراهيم وإسماعيل هما بناة الكعبة! ..

ها هو إسماعيل الذي نجاه الله من الذبح ، وكذلك إبراهيم الخليل الذي نجاه الله من النار ، والآن هما هنا يضطعلان بمسؤوليتهم تجاه الناس !

إن الله أمرهما أن يكونوا المهندسين لأقدم معبد للتوحيد على الأرض ، وأول بيت وضع للناس في التاريخ ، والبيت الحرام للحرية ، وكعبة الحب والعبادة.

إن الحرم هو رمز (الطهارة والقدسية) الحقة و (التواضع).

* * *

أنت الآن في مقام إبراهيم .

إنها أرفع درجة ارتقى إليها سيدنا إبراهيم ، وأقرب مرتبة إلى الله ، أو قل هي درجة (القرب) ..

إن إبراهيم هو البناء الذي بني الكعبة ، وهو مهندس بيت الحرية ، وهو عدو الأصنام ومحطمها ، وهو الذي تعرض للتعذيب على يد النمرود ..

إنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ قَائِدُ جَيْشِ الْجَهَادِ ضِدَّ الْجُهْلِ وَالْكُفْرِ ..

إنه ضمير الحب والمسؤولية .

ومع ذلك، فقد هرب من إغواء الشيطان الذي يوسروس بأفكار الشر في صدور الناس :

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسَوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ أَلَّذِي يُوَسِّوُسُ فِي صُدُورِ
الْكَاسِ﴾^(١).

بعد كل تلك الابتلاءات، وكل المعاناة التي تنوء بحملها الجبال الرواسي، وبعد كل ما تعرض له من تعذيب، وبعد كل ما قدم من تضحيات كادت تودي بحياته ﷺ .. بنى البيت ..

لم يبنه لنفسه ولا لولده، ولكن : بيت للناس .. من أجل الناس ..

إنه مأوى لكل الذين لا مأوى لهم ..

إنه سقف وسماء لكل الذين أخرجوا من ديارهم ..

إنه ملاذ للذين جرحوا في هذه الأرض، وملجأ للذين شردوا وهُجّروا في سبيل دعوة إبراهيم، إنه مصباح يضيء في ظلام الطغيان الذي يعانيه من اتخذوا إبراهيم أسوة لهم، والذي عاناه إبراهيم قبلهم .

لقد امتلأت قلوب الناس ونفوسهم بالخجل والوجل

والخوف، وتحولت الأرض إلى بيت كبير للدهر، حيث لم يبق احترام لأحد، وإلى مسخ يسود في جنباتها الطغيان والتفرقة . . .

وهنا . . في هذه الصحراء . . في هذه الظلمات يوجد بيت حرام طاهر . . آمن لكل الناس . عيال الله .

هذا البيت هو : الكعبة !

* * *

في مقام ستصافح «يد الله»^(١) .

دع ما فعله إبراهيم ، ول يكن نبراً لك . .

ولتكن أنت في هذا العهد إبراهيم ! لتكن أنت مهندس كعبة الإيمان ، واسرع في البناء لإنقاذ قومك وعشيرتك . .

إعمل على إخراجهم من هذا المستنقع الأَسْ ، واجعلهم يعيشون معك الحياة الحقيقية ، بدلاً من حياتهم التي لا معنى لها والتي هي في حقيقتها أشبه بالموت . .

أيقظهم من نومهم الثقيل ، وحرّرهم من أسر ظلمات الجهل وعذاب الطغيان . .

ساعدهم على الحركة ، وخذ بأيديهم مرشدًا وداعياً لهم للحج والطواف .

* * *

(١) لهذا الكلام معنى رمزي لا يخفى على متبع.

بعد رجوعك من الطواف ، وبعد أن نشرت نفسك معانيه وإلهاماته ، وأنت قطرة ذائبة في نهر الناس ، وبعد مفامك في إبراهيم ، في مكان بنائه للبيت ليكون سبابة للناس وأمنا ، وبعد عهdek مع الله تعالى أن تكون إبراهيم في مجتمعك .

بعد كل هذا وما سبقه عليك :

أولاً: أن تجعل أرضك آمنة كأنك في أرض الحرم .. إبدأ بنفسك وادع غيرك .

ثانياً: أن تجعل عهdek كعهد إبراهيم الخليل . وحالك كحال إبراهيم .. انتصاراً للإيمان والتوحيد ..

ثالثاً: أن تجعل من كل أرض تكون فيها مسجداً حراماً؛ وذلك لأن الله جعل الأرض كلها مسجداً وطهوراً ..

إأن الأرض كلها لله .. أليس كذلك؟!

* * *

بين الطواف والسعي

بعد أن تصلي ركعتي الطواف عند مقام إبراهيم، عليك أن تذهب إلى (المسعى) ..

إنه المسافة بين جبلي الصفا والمروه (حوالى ربع ميل) ..

اركض سبع مرات بين هذين الجبلين ..

إبدأ من جبل الصفا، وفي الجزء من هذا الطريق الموازي للكرامة^(١) عليك أن تسير مهرولاً، وفي بقية الطريق استأنف سيرك المعتاد حتى جبل المروه ..

السعي هو البحث .. حركة قاصدة إلى هدف .. يأخذ صورة الجري والإسراع.

أثناء الطواف كنت تفعل مثل هاجر.

(١) بين المبلين الأخضرين وهما علامتان، وذلك في ثلاثة أشواط الأولى فقط.

وفي مقام إبراهيم كنت تقوم مقام إبراهيم وإسماعيل.

عندما تبدأ السعي فأنت تفعل كهاجر مرة أخرى..

هنا مظاهر صادقة للوحدانية:

الأشكال والأنماط والألوان والدرجات والشخصوص والحدود والمميزات والمسافات قد حطمت، كل ما في المشهد الذي أمامك الآن رجل عاري وإنسانية مجردة.. لا شيء سوى الإيمان..

المعتقد والحركة في سمو وارتفاع.

هنا لا يرد ذكر أحد، وحتى إبراهيم وإسماعيل وهاجر هي أسماء وكلمات ورموز فقط ..

كل الموجودات الآن في تحرك منضبط ..

أي أن الإنسانية والروحانية متجردان، والمناخ الذي يحيط بهما ويملاً الأثير بينهما هو النظام ..

هذا هو الحج: قرار بالحركة الأبدية في اتجاه محدد.

وهذا هو نفسه طريق حركة الكون المحسوبة بحساب دقيق ..

* * *

هنا في السعي ستلعب دور هاجر.. امرأة!

امرأة مسكونة، وأمة اثيوبية مستضعة، وخادمة لسارة..

هذه كل مؤهلاتها.. هذا في النظام الاجتماعي البشري (نظام الشرك)..

أما في نظام التوحيد.. مجتمع الإسلام.. هذه الخادمة هي التي تدعو الله تعالى، وهي أم الأنبياء العظام.. أولي العزم من الرسل.

إنها عند الله تمثل أجمل وأعز مخلوقاته سبحانه..

إنها في هذا العرض (مناسك الحج) هي الشخصية الرئيسية..

إنها في هذا البيت هي المرأة الوحيدة (الأم)..

* * *

لقد أمر الله تعالى هاجر بطاعته، ووعد بأن يكفيها هي ولدها:

«يا هاجر.. يا مثال التسليم والطاعة.. يا مثال البطولة العظيمة للإيمان والتوكيل.. سوف تكونين في كنفي وتحت حمايتي».

أذعنـت هاجر تماماً لإرادة الله، وتركت طفليـها في الوادي..

هـذا هو أمر الله ونداء الحب!!

هل معنى تسلـيم هاجر أن تـقـعـ في سـكـونـ؟!

كلا.. نـهـضـتـ هـاجـرـ من فـورـها وـوـحـدـهاـ، وـبـدـأـتـ تـجـرـيـ من جـبـلـ جـافـ (الصـفاـ) إـلـىـ جـبـلـ آخـرـ جـافـ (المـروـةـ) بـحـثـاـ عـنـ المـاءـ!..

إنـهاـ الـحـرـكـةـ الدـؤـوبـةـ وـالـبـحـثـ الـمـسـتـمـرـ الدـائـمـ..

لقد عزمت على الاعتماد على نفسها، تجري بقدميها،
وتستخدم إرادتها وعقلها اللذين وهبها لها خالقها.

إنّ هاجر لامرأة مسؤولة، وأم محبة، ووحيدة تجول وتلهث
باختة عن الماء.. محتملة الألم والفزع.. مجردة من أي دعم..
لا مأوى لها ولا بيت.. معزولة بلا مجتمع.. بلا طبقة.. بلا
جنس.. بلا توقع!

لكنها رغم كل تلك العوامل التي تدفع لللماس وتحقق
الإخفاق في المسعي، كانت هاجر مليئة بالأمل!

خادمة.. وحيدة.. ضحيبة.. غريبة.. منبوذة..
مرفوضة.. مكرورة من النظام الظبيقي والأعراف والأسرة.

هذه الأُمَّة السوداء وحدها وطفلها على يديها! بعيدة عن
بلدها، وعن بلاد الجنس الممتاز.. تجول في الصحراء غريبة
كالمسجونة في شعب هذه الجبال.

كل هذا وهي وحدها! لا تعرف الراحة.. ولكنها - رغم كل
هذا - مليئة بالأمل والعزم في بحثها عن الماء، تغدو وتروح من
مكان آخر..

كل ذلك وحدها!.. تجري على قدميها إلى قمم تلك
الجبال تبحث عن الماء..

لم تكتف بالجلوس والنواح، مسلوبة الإرادة.
إبراهيم أسوتها.. وهذا إحياء لستته..

إنها ليست إلهاً.. إنها عبد.. أحد عباده..

لم تكن تنشد الرحمة في النار، بل كانت تبحث عن الماء!
الماء؟! نعم الماء..

كلا إنها لا تبحث في الغيب، ولا ما وراء المادة، ولا في معاني الحب، ولا فلسفة الخضوع، ولا في الطاعة، ولا في الروحانيات، ولا المسائل الفلسفية ونظرياتها في الحياة..

كلا إنها ليست في السماء، ولا في الدار الآخرة..

كلا إنها هنا في هذا العالم.. إنها هنا تبحث عن مياه للشرب من منبع في الأرض..
هي مادية بحثة إذا!..

إنها تبحث عن ذات السائل الذي يتدفق في الأرض، وتظمأ له الحياة..

إنَّ البدن يحتاجه ليكون دمًا في عروقه..

إنه المكون للبن الذي يملأ ثدي الأمهات ويروي ظما الأطفال..

إنَّ البحث عن الماء رمز للبحث عن الحياة المادية الضرورية في هذه الأرض..

إنَّ الحياة المادية على الأرض هي احتياج أصيل يبرز علاقة الإنسان بالطبيعة..

السعي هو عمل مادي ..

السعي هو أن تستفرغ جهدك وتبذل طاقتكم في سبيل الماء والخبز، حتى تشبع حاجتك وتطعم صغارك الجوعى، وهو الطريق نحو حياة أفضل .

إنك ظمآن وينتظرك في هذه الصحراء الجافة، وواجبك أن تعرّ على منبع تأتيه منه بالماء. السعي هو كفاح وبحث من أجل حاجتك من قلب هذه الطبيعة، ومحاولة لاستخراج الماء من الحجر ..

السعي حركة مادية وحاجة مادية وهدف مادي وفعل مادي!

الاقتصاد هو الطبيعة والعمل .

الحاجة هي الطبيعة والإنسان ..

* * *

يا للدهشة ..

بحساب المسافة فالامر لا يعدو أن يكون خطوات أو لحظات معدودة من الطواف إلى السعي، لكن البون^(١) بينهما شاسع ..

الطواف: الحب المطلق ..

السعي: الحكمة المطلقة ..

(١) البون: المسافة بين شيئين.

الطواف : كلهم (هو) ..

السعى : كلهم (أنت) ..

الطواف : إرادة الله وحدها ..

السعى : إرادتك وحدك ..

الطواف : كفراشة تدور حول النور حتى تتوهج ثم تغدو رماداً
تذريه الرياح حتى تتلاشى في الحب وتذوب في الضياء ..

السعى : كالنسر الذي يحلق فوق هذه الجبال السوداء ، تعينه
أجنحته القوية بحثاً عن طعامه حتى يجده وسط الصخور ..

إنه يهزم الأرض والفضاء ، والرياح تضرب أجنحته الرقيقة
وهو يطير حراً في الآفاق ..

السماء تمثل طموحه ، والأرض تتضاءل تحت جناحيه ..

إنَّ الأرض لتغلب تحت نظرته الحادة اللامعة ..

الطواف : هو الإنسان العاشق للحقيقة ..

السعى : هو الإنسان باذلاً وسعه معتمداً على الحقائق ..

الطواف : حب .. عبادة .. روح .. أخلاق .. جمال ..
خير .. قداسة .. قيم .. حق .. إيمان .. تقوى .. معاناة ..
تضحيـة .. تفـان .. عـدل .. توـاضـع .. مشـاعـر .. عـبـودـيـة ..
رـحـمة .. ما وراء المـادـة .. غـيـب .. إـيـثـار .. رـجـاء .. الـيـومـ الـآـخـر ..
إـخـلاـصـ لـهـ ..

وخلاصة كل ذلك: هو كل ما يجعل الروح الإسلامية تتحرك ..

السعى: الحكمة.. المنطق.. الحاجة.. الحياة الدنيا..
الحقائق.. الأهداف.. المادة.. الامتيازات.. التفكير..
العلم.. الصناعة.. السياسة.. الفائدة.. اللذة.. الاقتصاد..
المدنية.. الجسد.. الحرية.. الإرادة.. السيادة (أي السعي من
أجل الذات في الأرض) ..

وخلاصة كل ذلك: هو كل ما يسعى في سبيله الماديون ..
الطواف: الله وحده ..

السعى: الإنسان وحده ..

الطواف: الروح ولا شيء غير الروح ..

السعى: الجسد فقط ..

الطواف: معاناة الوجود، والإشفاق من الدار الآخرة ..

السعى: لذة الحياة، والمعاناة في هذا العالم ..

الطواف: السعي من أجل الظلماء ..

السعى: البحث من أجل الربي ..

الطواف: الفراش ..

السعى: النسر ..

فريضة الحج هي التي تربط بين الطواف والسعى، وتحل الناقض الذي أشكل على الإنسان عبر تاريخه: المادية أم المثالية؟ .. العقلانية أم الروحانية؟ .. الدنيا أم الآخرة؟ .. الشهوانية أم الرهبانية؟ .. إرادة الإنسان أم إرادة الله؟ .. التوكل على الله أم الاعتماد على النفس؟ ..

الله تعالى - رب إبراهيم - سوف يعلمك الإجابة في كلمة واحدة: كلاهما !!

وهو درس لا يقدمه لك في كلمات، ولا يعرضه أمامك لتراء من بعيد، ولا يدخلك معملاً لتجرب وتخطئ، ولا يدلي الله لك بالأدلة والبراهين الفلسفية .. كلا.

إنك ستؤدي هذا الدور بنفسك، وهو دور سبقك إليه نموذج إنساني عظيم، علم الفلسفه والعلماء والمفكرين من الباحثين عن الإيمان والحقيقة، هذا النموذج الإنساني صاحب هذا الدرس الإلهي الجليل امرأة سوداء .. أمة إفريقية .. وأم .. (إنها هاجر) مرة أخرى !

استجبت لأمر الله، وأسلمت لإرادته المطلقة، تركت وطنها وجاءت ومعها طفلها بعيداً عنه. بعيداً في هذا الوادي المقفر الموحش .. مكة.

توكلت تماماً على الله .. على حبه، وبقوه الإيمان أنكرت كل منطق وكل معقول ..

ذلك هو الطواف..

لكن على غير ما يفعله من يسمون بالصالحين والعبددين !! لم تجلس ساكنة بالقرب من ولدها .. لم تنتظر حدوث معجزة .. لم تتوقع يداً خفية تجلب لها فاكهة من السماء، أو تشق لها نهرأ يروي ظمامها.

كلا! لقد تركت ولیدها في يد الحب .. يد الرحمة، وطفقت تجري في الحال ..

لقد قررت أن تجري في الحال بين الجبال الصماء .. في جبال مكة توجد إمرأة .. وحدها .. عطشى .. مسؤولة .. غريبة، تتجول في بحث لا طائل وراءه عن الماء! ..

يا الله! ..

هل نحن نتحدث عن هاجر أم عن الإنسان؟!

لقد أجهدت نفسها دون جدوى، وعادت يائسة إلى ابنها ..

يا للدهشة!! .. ما هذا؟!!

الطفل الذي تركته تحت مظلة الرحمة في حالة من العطش والإجهاد، تدفق الماء من بين الرمال تحت قدميه!

في اللحظة التي بلغت فيها منتهى اليأس، ومن مكان لم تكن تتوقعه .. فجأة دون مقدمات ظهر الماء هناك ..

إنها المعجزة .. قوة الحاجة.

إنها رحمة الله .. خرير.

صوت الماء المناسب ..

إنها زم زم .. مياه عذبة تهب الحياة .. تتفجر عيوناً من الصخر!

هذا هو الدرس: لكي تحصل على الماء فالحب لا بالجهد .. لكن بعد الجهد.

إنك لا تستطيع أن تتقارب منه بقوة جهودك، لكن عليك أن تستفرغ ما في وسعك ..

حاول سبع مرات - وهو ذات الرقم الذي بلغته أشوااطك في الطواف - لكن في هذه المرة لم تتبع طريقة دائرياً لا يقودك في النهاية إلا إلى المكان الذي بدأت منه، من نقطة الصفر.

كلا لن تسافر في دائرة مفرغة لا توصلك إلى مكان ولا تكسبك شيء وتجعلك تتحرك بلا هدف .. إعمل لتملاً بطنك وأملأ بطنك لكي تعمل! في النهاية استمر في العمل حتى تموت!!
الطواف: أن تحييا .. لا من أجل أن تحييا، ولكن من أجل الله ..

ال усили: أن تبذل وسعك .. لا من أجل نفسك فقط، لكن من أجل الآخرين أيضاً، وهنا يصبح طريقك مستقيماً ..

إنها هجرة ..

إبدأ من نقطة محددة حتى تبلغ نقطة الوصول ..

إنها المسار بين الصفا والمروة.

* * *

أثناء السعي أنت تكرر حركة المجيء والذهاب سبع مرات ..

الرقم (٧) رقم مفرد وليس مزدوجاً، ولهذا فإن سعيك سينتهي عند المروة وليس في المكان الذي بدأت منه ..

سبعين مرات! سبعة .. رقم رمزي يمثل الدوام، فكل حياتك للمروة!

إبدأ بالصفا التي تعني الحب الخالص للناس، ونقطة وصولك ستكون المروة التي تعني مُثُل وقيم الإنسان، وسبب تكريمه وسخائه وعفوه عن الآخرين ..

من هم الآخرون؟ .

الآخرون هم الذين يحاولون معك ..

* * *

أنت أيها الإنسان غريب .. مشرد .. منفي عن الأرض ..

إحساس بالمسؤولية يحثك أن تبحث عن الماء في السراب .. إمض إلى الصفا كما فعلت هاجر، وانظر إلى الطوفان الأبيض من الناس يحاول .. اهبط مسرعاً من الصفا بلا راحة وفي حالة من العطش .. إنهم يحاولون البحث عن الماء في هذه الصحراء الحارة المجدبة، ثم يواصلون السعي من قمة المروة ولا يجدون الماء .. لقد جفت الشفاه والأيدي خالية والنظرة حسيرة، يعودون مرة ثانية إلى الصفا ويداؤن البحث ..

هذه الخطوات تتكرر سبع مرات، والماء لا يتم العثور عليه، ولا شيء يروي ظمأهم، لكنهم في عزيمة يصلون إلى المروءة..

وأنت أيتها القطرة انضمي من قمة الصفا، إلى هذا النهر وكافحي واعطشني، وادفعي بنفسك داخل هذا الطوفان البشري الأبيض..

إبذل جهداً في السعي مع الآخرين.. في منتصف سعيك وأنت موازٍ للküبة، أسرع إلى الأمام مع الآخرين في الهرولة..



القصص

في نقطة النهاية من سعيك عند المروءة قصّ شعرك وقلم
 أطافرك واخلع ثياب الإحرام وارتد ثيابك المعتادة^(١) .. استشعر
 الحرية ، وبيدك الخالية وفي حالة من الظماء اذهب لتلقى إسماعيلك .

اصفع جيداً! ألا تسمع خرير الماء من هنا؟ انظر طيور عطشى
 تحلق فوق هذه الصخور المقفرة! زمزم قد روت ظماً إسماعيل ..

قبيلة أجنبية من أرض نائية توطنت في هذا الوادي القفر ..

عطاشى الأرض من الناس تحلقوا حول زمزم ..

مدينة الحجر قامت في هذه الصحراء العطشى اليابسة ..

هنا تدفق وابل الوحي ، وقام البيت العتيق ، بيت الحرية
 والحب! ..

* * *

(١) راجع الفقرة الواردة آخر هذا الفصل بعنوان «ملحوظة».

عندما تركض في المسعى وأنت ظامنٌ ووحيد فستنتهي
وحدثك ..

هنا زمزم تجري تحت قدمي إسماعيل ، والناس من فجاج
الأرض حولك ..

ثم ماذا ترى غير ذلك؟

إنَّ الله في جوارك وقد أصبحت في معيته ..

* * *

أيها الإنسان المتعب من السعي استعن بالحب ..

أيها الإنسان المسؤول إفعل ما في وسعك إن كان إسماعيلك
عطشاناً ..

أيها (العاشق) تمنى !

وليكن رجاؤك الحب والأمل والمعجزات ..

وأنت أيها المعتمر القادم من السعي ، ومن صحراء وجودك
المجدبة وعمق الركود الذي لحق بطبعتك ..

الينبوع يتفجر ..

اصغ جيداً إلى قلبك .

ستسمع الخير!

* * *

من جبل المروة إذهب باتجاه بئر زمزم ، وخذ جرعات منه

وتصلّع، واغسل وجهك، واحمل بعض الماء معك إلى ديارك
عسى أن تهديها لقومك.

* * *

ملحوظة: كل ما ورد في الفصول السابقة متعلق بجزء من
الحج أو العمرة (حج التمتع) وبالنسبة للعمرة يباح للمسلم أن يقوم
بها في أي وقت خلال العام ما عدا أيام الثامن والتاسع والعشر من
ذي الحجة لأنها أيام الحج الأكبر الذي سنبحثه في الفصول
الآتية ..

* * *

الحج الأكبر

في اليوم التاسع من ذي الحجة يبدأ الحج الأكبر ..

قبل هذا اليوم عليك أن ترتدي ثياب الإحرام وتغادر مكة ..

أين أنت في هذه اللحظة؟!

لا يهم في أي مكان تكون: في المسجد الحرام .. بالقرب من الكعبة .. في فندقك .. في الشارع لا بد في كل الأحوال أن تغادر مكة ..

يا للعجب! .. أترك الكعبة خلفك؟!

نعم .. إنها القبلة، ولكن الحج الأكبر يستهل بمعادرة مكة؟
ألم ترك أسرتك وبيتك وغير ذلك حتى تأتي مكة وتستقبل
القبلة؟!

نعم .. إن الأمر كذلك، وهكذا كان الحال في العمرة.

إذن لماذا تغادر الكعبة؟!

لأنك ذاهب لتبدأ الحج الأكبر ..

* * *

إن قرار الذهاب لمكة ليس هو غاية الحج النهائية، ولا حتى الوصول إلى الكعبة قبلة الناس كما يتبادر إلى الذهن عن خطأ وسوء فهم.

إمام التوحيد إبراهيم عليه السلام يعلمك أن الحج لا ينتهي في الكعبة، ولكنه يبدأ في اللحظة التي تغادر فيها الكعبة.

هي ليست نقطة الوصول، ولكنها نقطة المغادرة ..

أنت ما زلت في الكعبة، ويجب أن تكون مستوعباً، ومتجاوزاً رغباتك الشخصية، وأن تهزم عبادة الذات، غادر حدودك، واكتشف نفسك ..

أنت أيها المهاجر إنك ذاهب لترى الله^(١)، ومن الآن فصاعداً ستمضي في طريق مختلف وستدخل أرضاً جديدة ..

في الميقات وال عمرة كان عليك أن تترك بيتك ، ولكنك الآن ستترك بيت الله !!

* * *

عندما تشرف على التسلیم الكامل ، وفي ذروة تحرك من

(١) بالمعنى الوجданی للكلمة.

ذاتك ، وحينما تكتشف سريرتك تصبح كفؤاً لطاعة أمر الله ..

(أترك الكعبة فأنت الآن أقرب إلى من الكعبة)

زر الكعبة في عمرتك (الحج الأصغر) فهي معينك على اكتشاف ذاتك ..

أنت الآن ذاهب لتقترب من الله ، لا لتزور البيت .

أنت الآن ذاهب لترى المالك .

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(١)

الكعبة هي الاتجاه فقط ، وليس نقطة الوصول .. هي القبلة .

إنك تبدأ منطلقاً من الكعبة لكنك يجب ألا تبقى في الكعبة .

في أي مكان تتوقف فإنك تتعرض للضياع والموت ..

أيها الحاج البدائي رحلته ، وصاحب المحاولة الأبدية في القربى إلى الله ..

أيها الإنسان ، يا روح الله ..

أيها المؤمنون العاملون الصادقون ..

لقد جئتم إلى مكة ..

لا تبقوا فيها ..

لا توقفوا عند المسجد الحرام ساكنين عنده ..
 إنَّ الله قد وَلَى وجهك نحو القبلة حتى لا تضل بالقبلات
 الأخرى.

الكعبة هي وجهتك وهدفك وقبلتك، لكن عليك وأنت في
 مكة أن تتجه إلى مكان آخر تذهب إليه هناك ثم تأتي إلى مكة^(١).
 هكذا تغادر مكة - دون أية تحفظات - مرتدياً ثياب
 الإحرام .. معطياً ظهرك للكعبة، متوجهًا إلى مكان شديد القدسية ..
 تُرى أي مكان هو؟ واصل تحركك وسترى ..

* * *

(١) المقصود الخروج لمواقيت الإحرام للحج الأكبر بعد التقصير من إحرام العمرة وهو حج التمتع كما سبق بيانه.

عرفات

وأنت في لباس الإحرام تغادر مكة، وتبدأ رحلتك نحو الشرق (عرفة) حيث تبقى فوقه، وذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة ..

في رحلة العودة عليك أن تقف وقفه قصيرة في (المشعر الحرام)^(١) ثم في (منى).. لماذا؟ .. سنعرف ذلك حالاً.

وعلى عكس ما سبق أن قلناه، ولا تمضي الهوينا في سيرك إلى عرفات، بل يجب عليك أن تحث الخطى أشعث أغبر دون التفات إلى شيء، كالعاشق الولهان لا يشغله عن معشوقه شيء، وذلك ابتداء من فجر يوم التاسع وحتى يوم الثاني عشر (أو الثالث عشر إن شئت) يجب أن تبقى بمنى.

ليست هناك معالم تميز هذه المناطق الثلاث^(٢) عن بعضها،

(١) المزدلفة.

(٢) المقصود عرفات والمشعر الحرام ومنى.

فهي لا تعدو أن تكون طريقاً ضيقاً طويلاً يمضي خمسة عشر ميلاً
ويتصل بوادي مكة ..

على طول هذا الطريق لا تجد أى أثر تاريخي أو طبيعي أو ديني، ولا حتى علامة تفصل بين هذه الأماكن .. فأنت الذي تحدد الحدود بينها حسب مراحل حركتك المفروضة عليك والواجبات المنوط بك أداؤها ..

ففي (منى) عليك أن تبقى يومي الحادي عشر والثاني عشر، وهو ما اليومان اللذان يعقبان يوم الأضحية (اليوم العاشر) رغم أنك - على الأغلب - ستقدم أضحيتك وترمي الشيطان قبيل ظهر اليوم العاشر، لكن مع ذلك عليك أن تبقى في منى ..

كما نعلم .. إنك لا تبقى لتقييم، ولكن لتوقف وقفه قصيرة على طريقك .. توقف مع القافلة حيث توقف، وتسير معها حيث تسير ..

هناك معنى آخر يجعل (الوقوف) في هذه (الفصول) الثلاثة أكبر من مجرد البقاء نهار اليوم التاسع، أو جمع سبعين حصاة من المشعر الحرام.

صحيح أن في كل فصل هناك وقفه قصيرة، ثم تمضي إلى الفصل التالي، وصحيح أن (منى) هي المرحلة الثالثة وستبقى فيها ثلاثة أيام، ولكن عليك أن تتذكر أنها ليست نقطة الوصول ..

إذاً أين ستنتهي هذه الرحلة؟! .. أين خاتمة المطاف التي ستصل إليها هذه القافلة؟

عفواً! .. البعثة؟

حيث لا حيث ..

إذاً .. إلى أين أنت ذاهب؟

الإجابة أنك ذاهب إلى الخلود .. تلقاء الله ..

إنَّ الله هو الكمال المطلق .. وهو الخالق.

إذاً .. رحلتك حركة متوجهة إلى (الجمال) المطلق، و (المعرفة) المطلقة، و (القوة) المطلقة .. إلى الخلود والكمال .. والحركة إليها حركة خالدة.

في هذه الرحلة ليس هناك نقطة نهاية .. نقطة وصول، ولكنها رحلة إلى الله .. جهة الله تعالى .. تلقاء الله.

على مستوى الحياة الدنيا، وبالنظر إلى الإنسان نجد أن كل شيء له أجل محدد ونهاية يصل إليها هي الفناء والموت، لكن الحركة تلقاء الله هي حركة أبدية تبقى مستمرة؛ لأن الوجهة هناك ﴿مُلْئُ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١).

لقد بدأت من مكة وجئت إلى عرفة، والآن تنتقل من طور إلى طور، راجعاً إلى مكة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢).

كل الذي بحثناه. آنفاً هو (حركة).. حركة متقدمة (ذاهبة)

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

وحركة قادمة (راجعة) ..

هناك دائماً حركة باتجاه شيء (إليه)، وليس (فيه)، وهذا هو الذي يجعل الحج حركة مطلقة .

إن الحج ليس *pélérinage*^(١)؛ لأن كل *pélérin*^(٢) له نقطة وصول، والحج ليس مجرد رحلة؛ إن كل رحلة لها نقطة وصول .. الحج هو غاية مطلقة وحركة خارجية تلقاء هذه الغاية . وهذه الغاية ليست نقطة يمكن أن ينتهي إليها الإنسان، ولكن يحاول التقرب إليها ..

ولهذا فعند قدومك من عرفة تبقى في (مني) خلف جدار البيت وليس داخل البيت، وهذا هو معنى التقرب إلى الغاية، وليس الوصول إليها ..

في طريق الرجوع إلى الله هناك ثلاث مراسي: عرفة، المشعر، مني . لا بد أن ترسو عند كل منها ..

إنها ليست مجرد ثلاثة أماكن تقوم بزياراتها ..

عليك أن تعني تماماً ما المقصود بكل وقفة من هذه الوقفات الثلاث ..

(١) تعني في اللغات اللاتينية زيارة الأماكن المقدسة أو زياره ديبة، وتستعمل في معظم الأحيان مقابلة لكلمة حج في الإسلام، ولكنها لا تعبر عن المعنى كما يوضع المؤلف في ما يأتي .

(٢) ترجم بمعنى حاج أو زائر للأماكن المقدسة، ولا تعبر أيضاً عن معنى الحاج لدى المسلمين .

وعليك أن تدرك دلالات قرارك بالوقوف ومتابعة الرحلة
(النية).

فما الذي تعنيه هذه المراحل الثلاث؟

من الأسماء العلوية التي سماها الله تعالى لها ندرك هذه
المعاني :

عرفة : تعني العلم والمعرفة ..

المشعر : يعني الوعي والشعور ..

منى : تعني الحب والإيمان ..

إذهب من مكة إلى عرفات : «إنا لله».

ثم ارجع من عرفات إلى مكة : «وإنا إليه راجعون».

عرفة تمثل بدء حياة الإنسان على الأرض؛ فقد جاء في قصة
آدم عليه السلام :

بعد أن هبط آدم إلى الأرض لقي حواء في عرفات، وهناك
تعرفا على بعضهما، وكان الهبوط بعد أن أُمِرَ آدم بترك الجنة «بعد
أن عصى».

إن تلك الجنة لم تكن هي الجنة الموعودة في الدار الآخرة،
بل هي جنة على الأرض، كما كان مسقط رأس آدم وميلاده على
الأرض، وكانت الأرض آنذاك تغطيها الشجيرات والبرك، وكان
آدم يعيش دون تبعات ولا أعباء، يأكل ويشرب ويتمتع دون قيد،
حتى جاءه إبليس الذي عصى أمر الله رافضاً السجود لأدم، وبدأ

يُوسوس له؛ فكما أن الله يلهم الصالحين والفاجرين بين الناس بالخير، فإن إبليس يُوسوس لهم حتى يتعدوا حدود الله فيعصونه ويأكلون من (الفاكهة المحرمة) ..

وهكذا يُوسوس إبليس لآدم بأنه لو فعل ذلك، وأكل من الشجرة، فإنه سيحيا حياة أطول وأكثر إشراقاً.

رفض آدم في أول الأمر أن يأكل من الفاكهة المحرمة، لكن الشيطان استطاع أن يغوي حواء، عندها غوى آدم بعد أن وافقها وأكلا من الشجرة ..

إنَّ آدم يمثل الحكمة، وحواء تمثل الحب، والحكمة والحب هما مكونات الإنسان من بني آدم ..

آدم هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يقترف المعاصي ويتوب عنها ..

إنها الحرية والاختيار بين الطاعة والمعصية ..

إنها المقدرة على اتخاذ القرارات ..

إنَّ هذا الأمر يتوافق مع مفهوم «المسؤولية» و «الوعي».

ونتيجة للعصبية فقد استبدلت حالة الرضا والسعادة والراحة بأرض «الحاجة والطمع والألم ..» أو بالتعبير القرآني: «الهبوط».

فكانت بداية حياة جديدة للفرد ذو الوعي والمسؤولية صاحب المعصية: آدم ..

كان آدم ضحية الألم وال الحاجة والطمع، كان يعيش منفياً

وحيداً في سجن هذه الدنيا.. لقد قاسى آدم من هوا جس الانفال، وعبر عن شكوكه بلغة الإيمان والمعرفة والقلب والأدب والحياة، وتقبل عبء المعصية أو «الخوف الفطري من الذنوب» و «الرغبة الفطرية في التوبة» ..

* * *

كيف يتعلّق الحج بذلك؟!

إنَّ الحج يمثل خلق الإنسان وتوبيه ..

الحج هو إطاحة بالذات الواقعية التي تعيش إحساس بالغرابة والنفي والتي تنتج قرار (العودة) ..

إنَّ تحول آدم من الجنة إلى الأرض يمثل شخصية وسلوك الإنسان اليوم.

إنه تصوير للعصيان والعدوان الذي يقع بين الرجل الواقع تحت تأثير الشيطان، وحواء، والمطرود من السماء والمنفي في الأرض والخاضع لكل ضغوطها ..

رُبَّ ضارة نافعة! فمع أنَّ آدم أكل من الفاكهة المحرمة إلا أنه .. نتيجة لذلك، تعرَّف على الحكمَة والوعي والبعد الحقيقي للعصيان. ثم فتح عينيه فإذا هو عار.. لقد دخل إلى مرحلة التعرَّف على الذات.

وسيراً على الطريق نفسه: فالهبوط من الكعبة إلى عرفة يمثل بدء خلق الإنسان؛ فزمان خلق الإنسان هو نفسه زمان خلق المعرفة ..

ثم كان أول شعاع للحب عندما التقى آدم بحواء، وهم يرتفيان في الفهم المتبادل كل منهما للأخر ..

كانت تلك علاقة تعارف جنس على جنس آخر من نفس الفصيلة! من نفس الأصل هكذا - من وجهة نظر فلسفية - نعلم أن وجود الإنسان معاصر لوجود المعرفة ..

ومن وجهة نظر علمية فإن تاريخ الإنسان، يبدأ بالمعرفة ..
يا للغرابة! ..

في الحج تبدأ الخطوة الأولى من عرفات (الوقوف بعرفة) ..
زمنه نهاراً. ويبدأ مع ظهر اليوم التاسع .. وقت الـ وال حيث
الشمس أسطع ما تكون.

والملاحظ اختيار هذه الفترة بالذات حتى تكتسب الوعي
والبصيرة والحرية والمعرفة والرحمة في ضوء الشمس! .

عند مغرب الشمس ينتهي الوقوف بعرفة .. عندها تبدأ العتمة
حيث لا يُرى شيء فيها، فتزول سطوة المعرفة وال موجودات ..

مع نزول الشمس في سهل عرفات ينزع الناس نحو نعر
مع حركة الشمس ..

إنهم يواصلون المسير حتى المشعر الحرام، إنها أرض
(الشعور) حيث يكون لهم وقفة أيضاً ..

إن المرحلة التي تلي المعرفة هي الشعور ..
يا للغرابة! ..

المعرفة أولاً ثم الشعور؟! ..

الناس يأخذون الأمر كمسلمـة في أن الشعور يسبق المعرفة، لكن الخبرـر العـلـيم - خالق هاتين الحالـتين الـذهـنـيتـين - يـشير إلى عـكـسـ هذا التـرتـيب! .. آـدـمـ التقـى بـحـوـاءـ (الجـنـسـ الآـخـرـ) وـتـشـارـكاـ في الرـؤـىـ وـالـأـفـكـارـ، وـمـنـ ثـمـ فـهـمـ كـلـ مـنـهـمـاـ لـلـآـخـرـ.. اـنـتـهـتـ حـيـاتـهـمـاـ الفـرـديـةـ بـتـأـسـيـسـ الأـسـرـةـ التـيـ تـولـدـ الـحـيـاةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، وـخـلـقـ الـحـبـ الـوـاعـيـ فـوـقـ ذـلـكـ.. وـمـعـنـىـ ذـلـكـ أـنـ اـتـحـادـ اـثـنـانـ مـنـ الـبـشـرـ قـدـ بـدـأـ بـالـمـعـرـفـةـ، وـتـطـوـرـ الـمـعـرـفـةـ هـوـ الـذـيـ أـضـافـ الشـعـورـ إـلـىـ الـإـنـسـانـ الـذـيـ أـعـطـيـ مـيـلـادـ الـعـلـومـ التـيـ أـضـافـتـ مـزـيدـاـ مـنـ الـفـهـمـ، وـبـالـمـقـابـلـ فـقـدـ رـفـعـ ذـلـكـ مـنـ شـعـورـ الـإـنـسـانـ.. .

إـلـىـ أـينـ يـتـهـيـ ذـلـكـ؟ ..

إـنـهـ يـتـهـيـ إـلـىـ مـزـيدـ مـنـ التـقـدـمـ الـعـلـمـيـ.

فـعـنـدـمـاـ تـكـوـنـ الـمـوـضـوـعـيـةـ، وـالـعـلـاقـاتـ بـيـنـ الـأـفـكـارـ وـالـعـالـمـ الـخـارـجيـ تـقـوـمـاـ عـلـىـ أـرـضـ الـوـاقـعـ، فـإـنـ الـحـكـمـةـ سـتـنـمـوـ، وـالـاـدـرـاكـ سـيـتـحـسـنـ، وـالـقـوـةـ الـرـوـحـيـةـ لـلـإـنـسـانـ سـتـزـدـهـرـ.

لوـ أـنـ الـمـشـعـرـ الـحـرـامـ (الـشـعـورـ) سـبـقـ عـرـفـاتـ (الـمـعـرـفـةـ) لـكـانـ الـأـمـرـ مـجـرـدـ تـنـظـيرـ وـمـثـالـيـةـ مـيـتـافـيـزـيـقـيـةـ.

ولـوـ كـانـتـ الـبـداـيـةـ مـنـ مـنـيـ (الـحـبـ) لـكـانـ الـأـمـرـ مـجـرـدـ دـيـنـ مـفـقـدـ الـبـصـيرـةـ لـاـ مـعـرـفـةـ لـهـ وـلـاـ شـعـورـ.. .

ولـوـ كـانـتـ عـرـفـاتـ (الـمـعـرـفـةـ) وـحـدهـاـ هـيـ كـلـ الـمـراـحلـ، لـكـانـ

الأمر مجرد مادية غليظة وحياة علمية جافة ذات حضارة بلا روح، وتقدم بلا هدف.

ولو كان المشعر الحرام (الشعور) ومنى (الحب) وحدهما دون وجود عرفة (المعرفة) لكان الأمر كحال المسلمين الراهن من الفهم لإيمانهم القاصر على المشعر (الشعور) ومنى (الحب) دون وجود لعرفة (المعرفة) ..

لكن في دين الإسلام حيث الإنسان المخلوق من حمأ مسنون ونفخة روحية ربانية، وقد امتلك السلطان عندما أصبح محل أمانة الله، واستهل عمله بالمعرفة، وأدرك حقائق هذا العالم بطرق علمية موضوعية، وأعقب ذلك اكتسابه للشعور، ثم تمكن أخيراً من خلق (الحب).

هذه المراحل الثلاث من عرفات إلى المشعر، ثم إلى حيث يرتقي إلى ذروة الكمال الإنساني في العروج إلى الله عند سددة المتهنى (منى).

الواقعية؟!

نعم.. كأساس لا كهدف ..

هي الأساس الذي تبدأ منه كفاحك في سبيل المثال والغيب ..

فالواقعية ضرورية كأساس ما دام الإنسان - وفقاً لعقيدة الإسلام - بعضه من طين الأرض وبعضه من روح الله العلوية ..

وبالإرادة والقرار (النية) يتزود الإنسان أثناء تساميه من الطين
إلى روح الله ..

هذا التسامي وهذا الارتفاع هو ما تمارسه عندما تعبر
المراحل الثلاث: عرفة، والمشعر، ومنى.

في ضوء المفاهيم التي طرحت يمكن أن نعبر عن المعاني
الآتية ونبرز ما فيها من جمال:

الإيمان: طريق ..

المعرفة: إدراك ..

الرسالة: مرشد ودليل ..

الأمة: جماعة قاصدة ..

الإمامـة: القيادة والتوجيه ..

الشهيد والشاهد: معالم للحركة ..

العبادة: التفاني وتعبيد الطريق ..

التقوى: تقويم للنفس وتدريب لها على أن تكون عاصيـاً
مسؤولـاً، فتتجنب الأشياء التي تجذبـك للحمـاء المـسنـون وتقـعدـ بكـ
عن السـير ..

سبيل الله: سـبيل بـدلـ النفسـ والمـالـ فيـ سـبيلـ الإـصلاحـ
لـلنـاسـ ..

الصلـاةـ والـدـعـاءـ: حـضـورـ أـمـامـ اللهـ وـنـداءـ لـهـ وـسـؤـالـهـ وـالتـضرـعـ

إليه بحاجاتك وأمانيك وحبك وبغضك وما تقتربه لنفسك وما
ترجوه للآخرين ..

الذكر : أن تبقيه في ذهنك وأن تتفكر ..

الحج : الإرادة والقرار .

* * *

الآن وصلت إلى (عرفة) وهي المسافة الأبعد من مكة حيث يمتد سهل جاف تغطيه الرمال الناعمة .. في الوسط يمكنك رؤية جبل الرحمة وهي ربوة صخرية صغيرة حيث وقف النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وخطب الأمة بوصيته الأخيرة (خطبة الوداع) .

إنَّ عرفات لمدينة عجيبة حقاً! تزورها لمدة يوم واحد، ثم تذهب المدينة مع الريح بعد الغروب .

هنا تزول الفوائل والحدود لتشهد الأمة التي لا تقوم على التعصب لجنس ولا لعرق، إنما على الإنسانية العالمية؛ حيث ينخفض التمايز إلى الحد الأدنى وسط مجموعات تمثل العالم كله في هذا السهل تحت الخيام البيضاء الممتدة من الأفق إلى الأفق، وحيث الأستقراطية هي متنهى الضعف، والجمال المصطنع قبح .

* * *

إنك قد تسأل نفسك : ما الذي يفترض أن أراه هنا؟! ما الذي ينبغي أن أنجزه؟!

والإجابة: لا شيء.. إنك حر تفعل ما تشاء! بإمكانك أن تقضي اليوم سابحاً في المحيط البشري، أو تقضيه نائماً.. فقط تذكر أنك في عرفات.

يقول (أندريه جيد)^(١): ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه.

دع فطرتك وطبيعتك تشرق تحت الشمس الساطعة في عرفات.

وأخيراً (وعلى عكس عادة الإنسان عبر التاريخ): لا تفرّ بعيداً عن أشعة الشمس والضوء والحرية والزحام.. دائمًا إظهر مع الناس.

ففي الماضي كنت تعيش تحت نير القهر جاهلاً، كالطحلب في المياه الراكدة!

أما الآن عليك أيها الإنسان أن تخرج من خيمتك دافعاً نفسك إلى عمق المحيط البشري، تاركاً (الأننا) تحرق تحت شمس عرفات المتوجة. ليوم واحد فقط!

كن كالشمعة التي تحرق لتضيء أفئدة الناس، لا كالشمعة التي تذوب في أيدي الطغاة..

(١) أديب فرنسي (١٨٦٩ - ١٩٥١) متمرد على الأعراف والتبرود المتوارثة من أنصار التحرر الفكري والأخلاقي. «المصحح»..

لا تكن دمية..

إنَّ جوهر المطلوب منك ليس هو بروزك للشمس - فلك أنْ
تقضِي هذا اليوم كما تحب - إنما المطلوب فقط هو الوقوف، ثم
أترك سهل عرفات بعد غروب شمسه.

* * *

المشعر^(١)

ها هي الشمس قد غابت عن عرفات، وآن لك أن تذهب . . .
 لقد فقدت عرفات وكانت نهايتها مع ظلمة، فلا مبرر لبقاءك
 هنا بعد أن قرر الجميع وعزموا على التحرك . . .
 حينما يبدأ الليل في التوغل لن تجد أحداً من المسلمين
 هناك . . .

إنها مدينة الشمس المشرقة! فالشمس تذهب فجأة مسرعة
 لتجاوز السهل، وتختفي في الغرب . . .
 لكن إلى أين أنت ذاهب؟ إلى المشعر؟!
 ليس بإمكانك الراحة . . . مجرد وقفة قصيرة وذهاب سريع . . .

(١) جاء في لسان العرب: المشعر (المعلم)، والمشاعر: (المعالم) التي ندب الله إليها وأمر بالقيام عليها، ومنه سمي المشعر الحرام لأنه معلم للعبادة وموضع للوقوف عندـه.

وقفة؟.. لا سكن؟.. لا استقرار؟

نعم.. لا مكان!.. وقفه لنصف يوم، هذا كل ما هنالك..

الخيام التي نصبتها البارحة يجب أن تطوى كلها اليوم..

لقد وصلت إليك الرسالة:

أيها الإنسان إنك ستعيش على هذه الأرض فترة قصيرة..

أيها الإنسان إنك مجرد لحظة في عمر الحركة الأبدية.. إنك

فان.

أيها الموجة^(١) إن وجودك يتوقف على حركتك، وأنت ميت
إذا كنت سليماً.

في الفناء ستكون كاماً إذا كان قرارك مطلقاً..

أيها القطرة تدحرج إلى النهر البشري الفياض وتتدفق..

﴿فَإِذَا أَفْضَلْتُمْ مِنْ عَرَفَتِي فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ
الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَذَنِّكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَيْسَ
الْفَضَّالَيْنَ﴾^(٢).

* * *

عليك أن تكون عند المشعر مع حلول الظلام.

الناس يتزاحمون مجتمعين وهم يفيضون من عرفات تجاه
الوادي في طريقهم إلى منى ثم إلى مكة..

(١) يقصد أن مجموع البشر موجات بحر متلاحقة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

وها هي عرفات - تلك المدينة التي توقفت فيها ل يوم واحد -
ذهبت مع هبوب رياح الغروب ومع فيضان النهر البشري منها .
في لون واحد ووجهة واحدة انساب الناس حول حجارة جبل
الرحمة كأنهم يفرون من الظلمة مسرعين على منحدر الوادي ..

الآن خيم الليل على سهل عرفات ..

أنت الآن نقطة على خط الرجاء ، قطرات الإيمان المتتدقة
الفياضة مع النهر .. جاهد مع هؤلاء الذين داهمهم الليل فجأة
بالرجاء والإيمان ..

يا للحيرة !

إن الأمر يبدو كأن مدينة الشمس المشرقة قد أذابتها حرارة
عرفات الشديدة ، والآن مدينة الليل قد غطت هذه الأرض كالبركان
الخامد ..

ما من شخص هناك إلاً وذاب وسط الزحام ، والظلام زحف
إلى كل مكان .

لكن ما هذا الذي يخشاه الإنسان هنا؟! .. فالطريق ثابت
وآمن! ..

تنشأ المفارقة والمأساوية من تزامن اكتشاف نفسك مع
ضلalk للطريق ..

التضحية بالنفس على الطريق القوي هي الخلاص ، والتضحية
بالنفس في سبيل الله هي التبتل الصادق والعبادة الخالصة .

أيها الإنسان! إنَّ الله ينتظرك في نهاية الطريق، تذَكَّرُ أنك في المشعر الحرام (أرض الانتباه والشعور) .

* * *

يا لها من دقة! ..

عرفات أو رمز المعرفة استعملت بصيغة الجمع (عرفات من عَرْفَ) لكن المشعر وردت بصيغة المفرد.. إنه يريد أن يقول إن الواقع يمكن صياغتها ووصفها بطرق متنوعة، لكن الحق متفرد يتمثل في طريق واحد ووحيد هو طريق الناس وفي سبيل الله..

هذا ما يتجلّى في مجلسه اللهم لا إله إلا أنت مع أصحابه على الأرض، يصور ذلك لهم برسم خط واحد مستقيم، وبجواره خطوط متعرجة متعددة على الأرض بعصاه.. يظهر بذلك طرقاً عديدة للكشف عن وجود العلاقات بين الظواهر (أو طرق المعرفة والتعليم) ^(١) .

إنَّ العلوم والمعارف هي كشف لظواهر موجودة فعلاً، وعرفات أشبه بمرآة تعكس كل الألوان والملامح والأشكال والهيكل بدون أي تغيير، ولكن بحجم مضاعف لتبدو الصورة أكثر وضوحاً .

(١) نص الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وعن شماليه ثم قال: «هذه السبل ليس منها واحد إلا عليه شيطان يدعوك إليه» ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَنْتَهُوا أَشْبَئُ مَنْ فَتَرَقَ يَكُنْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٥٣. رواه جماعة، منهم: أحمد والنمساني والحاكم.

الكون الذي نعيش فيه كالمراة: عندما يواجه الجمادات
عندئذ يعكس قوانين الطبيعة (الفيزياء) وعندما يواجه الدين فإنه
يعكس أحكام الفقه.. هذا كل ما هنالك!

ليس هناك معرفة خيرة ومعرفة سيئة؛ فالمعرفة يمكن أن
تؤدي الدور ونقضيه، دون أن يعني الأمر بالنسبة لها شيء في كلتا
الحالتين؛ فهي نافعة إذا أريد منها النفع، وهي غادرة إذا أريد منها
الغدر.

المعرفة هي المعرفة في كل مكان وزمان، وهي تتساوى عند
المسلم وغير المسلم، وهي تتساوى عند المعسكرات المتحاربة
كما تتساوى عند الخدم والسادة، فلا تجامل فريق على حساب
فريق ولا تختلف عند جهة عنها عند الجهة الأخرى!..

إنَّ الحدود توجد عندما يوجد الشعور فقط، والقوى التي
توظف المعرفة هي التي تعطيها وجهتها وتنتهي بها إلى أن تكون
أخلاقية أو لا إخلاقية.. في سبيل الحرب أو في سبيل السلام..
في سبيل العدل أو في سبيل الظلم!!.

في النظام الرأسمالي العلم له المدلول نفسه كما في النظام
الشيوعي^(١).

الفيزيائيون الفاشيست يعرفون عن الطبيعة كما يعرف
ضحاياهم..

(١) قبل أن ينهار.

والفقهاء الموقرون لدى السلاطين لهم من المعرفة بالدين
مثل ما للعلماء الذين يضعهم الحكام في السجون..
إذاً.. ما الذي يجعل واحداً من الناس (جلاداً) ويجعل من
الآخر (شهيداً)؟ .

وما الذي يجعل من أحدهم (طاغية) ويجعل من الآخر
(عادلاً رحيمًا)؟

وما الذي يجعل من أحدهم (فاسداً) ويجعل من الآخر
(صالحاً)؟ ! .

ليست المعرفة هي التي تفعل ذلك، ولكنه الشعور.. نعم
الشعور.

* * *

إنَّ التساؤل عن أنواع المعارف والعلوم لا يتصل ب موضوعنا،
أما الشيء المهم لدينا هنا فهو (الشعور) ..

إنَّ الحج يفضل ذلك في منتهى الدقة حينما يحدُّه
بـ «الشعور الحرام» .. أي الذي تحميـه القداسة أو الطهارة أو العفة
أو التقوى ..

الطور الأول: «عرفات» كلمة واحدة بلا إضافة، لكن الطور
الثاني ليس هو المشعر فقط، ولكن: «المشعر الحرام» .

ومما يثير الدهشة أن الوقوف بالمشعر الحرام يكون ليلاً،
بينما وقفة عرفة تتم أثناء ساعات النهار.. لماذا؟!

ذلك لأنَّ عرفة تمثل رحلة المعرفة والعلم التي هي في ذاتها علاقة موضوعية بين التفكير والحقائق الموجودة في العالم، ولهذا فهي في حاجة إلى ضوء النهار.

أما المشعر الحرام فهو يمثل مرحلة «الشعور» وهو وبالتالي علاقة ذاتية بين الأفكار، لهذا فهو قوة تُكتسب بمزيد من تركيز الفهم في الظلام والهدوء الذي توفره ساعات الليل.

عرفات هي مرحلة التجربة والموضوعية، والمشعر هو مرحلة البصيرة الذاتية ..

عرفات هي رحلة ذهنية لا علاقة مباشرة بينها وبين علاج الفساد والأمراض، والمشعر هو مرحلة الشعور المضططلع بالمسؤولية والطهارة والتقوى في الأرض الآمنة المقدسة، أرض «المشعر الحرام» كأنك في «المسجد الحرام» وفي «الشهر الحرام» حيث يمنع الرفت والفسق والفساد والعصيان وال الحرب والعدوان .. حيث لا يسمح لأحد بأن يؤذى حيواناً ولا حتى أن يقتلن نباتاً! .. هنا الأرض والسماء يسودهما الأمن والسلام في مناخ من الحرية والتواضع، ونفوس متشربة بالتقوى التي تجعل من السلام نتيجة حتمية.

الأرض والسماء هنا ظاهرتان شفافتان كالنور، عظيمتا القدر جليلتا الهيبة كالطبيعة ..

يا للدهشة! ..

«الشعور» يولد من «المعرفة» وهو بدوره يلد «الحب».

فـ «الشعور» هو منزلة بين «العلم» و «الإيمان» . . . بين «عرفات» و «منى» .

إنَّ البصيرة لا تحتاج إلى ضوء النهار، بل تزداد وضوحاً بالفكر في هدوء الليل حيث تحل كل ما يلتبس عليك من أمر «الحب» .

* * *

الحكمة هي نمط المعرفة أو النظر الذكي، وهو يأتي للإنسان عن طريق الرسل لا عن طريق العلماء وال فلاسفة، وهي المعرفة والوعي الذاتي الناطق باسم الإسلام، وليس ما تجده لدى دارس مدرب، ولكنه وعي المفكر المسؤول.

إنها ليست العلاقة الباطنية بين الظواهر والقوانين (النومايس) بل هي نور مبين . . .

إنها ذلك النوع من المعرفة الذي أشار إليه النبي ﷺ : «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء» .

إنها المعرفة التي يهبها المرشد الحقيقي من لدنه . . .

إنَّ أي شخص يمكنه أن يكتسب معرفة «عرفات» لكن الإدراك والوعي الذي يمنحه «المشعر» هو النور الذي يقذفه الله في قلب من يشاء! . . .

من هم أولئك؟!

إنهم ليسوا الذين يعملون بداعي الأنانية، لكنهم الذين

يكافحون في سبيل الآخرين:

﴿وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِي نَعْمَانَةٍ مُّبَشِّرُونَ﴾^(١).

إنها معرفة: «الرشد» و «الإدراك» و «الطاعة» و «الإخلاص» ..

وفي ضوء هذه المعرفة أصبح البدوي الأمي قائداً للقبيلة وحادياً لها في طريقها ..

هذه المعرفة هي نوع من «الحكمة» لا تكتسب ولا تتعلم في المدارس والجامعات، بل يتشرّبها القلب في ميدان الكفاح وعلى طريق الجهاد، وطلابها ينالونها بالقتال في سبيل الله .. سبيل حرية الإنسان، إنهم «المجاهدون» ..

إنك لكي تحصل في المشعر على هذه المعرفة فأنت لا تحتاج لضوء النهار، فهي معرفة تضيء بذاتها، فطبيعتها نورانية، وبها تستطيع أن تبصر في الظلام .. أي ظلام !!.

تخاف من ظلام المشعر الحرام .. لماذا؟ أليس معك الناس؟ ألمست مع القافلة؟ ألمست قطرة ذائبة في النهر البشري الأبيض الفياض؟ محلّكم على الصراط المستقيم؟

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَكَاسَ الْتَّاسُ﴾^(٢).

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

كم هو محرك للعواطف أن تبحث عن «السلاح»^(١) في أرض
الظلمة.. أرض الإحساس والشعور..

لماذا لا ننتظر حتى الصباح؟ ومن أجل من يكون الجهاد؟..
إن الوقفة في المشعر الحرام من أجل أن تفك وتخطط
وتقوي عزيمتك.. من أجل أن تجمع أسلحتك وتهيئ نفسك
لميدان القتال..

في ليلة الجهاد يجب أن تقوم بكل ذلك تحت جنح الظلام،
ومن كمرين خفي تنطلق إلى منى فيها (دولة الطغيان)..

عليك أن تجمع أسلحتك في ظلمة الليل مستعيناً بنور
الإحساس والشعور.. الإحساس المقدس الطاهر.. المشعر
الحرام، وبالمعرفة التي اكتسبتها في نور عرفات..

عليك أن تنتظر الليل كله.. حتى تشرق الشمس، وترى نور
الفجر والنصر والحب في مني.

ها هو الجيش العرم المز مجر الذي لا يعرف الراحة قد
جمع الجمرات من أرض المشعر الصخرية،وها هو قد وقف على
حدود مني والصمت مطبق على المكان، والكل متطلع إلى صحراء
الحشر.. هذا الجمع الكبير.. كل القوافل والقبائل اجتمعت
هنا.. إنه كيوم الحشر **﴿يَوْمَ يَغْرِيُ النَّارَ مِنْ أَخْيَهُ ۚ وَأَمْهِ، وَأَبِيهُ ۚ ۲٥﴾**
وَصَاحِبِيهِ، وَبَنِيهِ﴾^(٢).

(١) يشير المؤلف إلى جمع حصى الجمرات من أرض المشعر الحرام.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤ - ٣٦.

لقد تركت نفسك وسوف تجدها هنا مرة ثانية؛ فحينما كنت في الميقات وأنت تحرم ذبىت في محيط الناس.. في الطواف كنت محمولاً بهم.. بعد السعي وجدت نفسك في عرفات حيث غرقت في المحيط.. والآن قد وجدت نفسك للمرة الثانية في المشعر..

كل إنسان هنا وحده في هذا الجمع..

هنا تكتشف ذاتك بدون أصباغ ولا أقنعة ولا أستار.. عارٍ كما خلقت أول مرة.. الليلة ستدخل في حديث ومناجاة مع الله تعالى.

أسفر عن نفسك.. اعترف بذنبك.. لا تزييف عاطفتك، وأفصح بوضوح عما ت يريد، فقد حانت اللحظة التي تطلق فيها ما احتبسه في جوفك كل هذه السنين، وتكسر كل الحواجز، وتتجاهل كل الحدود!..

إنك هنا وحدك وقد انضمت إلى المجموع، ومع المجموع انتهى بك الأمر أن تكون فرداً مرة ثانية.. الفردية التي ولدتها من الغوص في المحيط البشري حتى تعثر على جوهرة نفسك، هي فردية رائعة، إنك مع الناس تتزاحمون، وفي الوقت ذاته أنت وحدك!

يا للروعة!

كن مع الناس ولا تكن معهم..

يا الله إني قصدت أرض المشعر الحرام! لا أجده خياماً ولا بيتاً ولا أبواباً ولا شوارع ولا أبراجاً ولا معلماً.. إنها ليست مدينة!..

لا تضيع وقتك في البحث عن الأصدقاء أو عن القافلة..
 فهنا كل منكم وحده.. هنا يبقى اثنان منكم معاً: أنت والليل!
 إنك تشعر بالوحدة ضمن هذه الفردية المطلقة للبشر
 المسؤولين، ولا أحد يعرف الآخر، لكن لا تخف فالليل يغطيك
 مظهراً ..

لا أحد ينظر إليك، ولا أحد يناديك بما تعودت أن تنادي به
 من قبل، حرّ نفسك وأتركها بين أيادي الليل: ماذا تراني أقول؟! ..
 لقد غطى ليل المشعر الحرام الآفاق، وبدا كأنه شاشة من
 السماء ..

في هذا السكون غابة من التخييل يغمرها ضوء القمر ..

دع عينيك تبحثان، وقلبك الذي لا يعرف الراحة تحت وابل
 بحثهما يخفق ويرفرف كالفراش الولهان، ثم استشعر من عمق
 قلبك معنى أن تكون وحيداً في عمق هذه الصحراء الموحشة التي
 حكم عليك بالعيش فيها.

في عمق هذا الصمت الجليل يمكن أن تصفي إلى الله
 وتستمع إلى صوت أعظم مسجوني الأرض، وإمام الإنسانية الذي
 كان ينحني برأسه إلى بئر يبكي ويجرأ بألم وحرقة في قلب هذه
 الصحاري^(١).

في هذا الليل الغامض المهيب الأخاذ كل شيء يبدو هادئاً في

(١) يشير إلى الإمام علي عليه السلام الذي كان يذهب إلى مقابر القيع وينحني على بئر يبكي.

أرض المشعر .. وفجأة يبدأ الطوفان الغازي المتدفق - من جند الإسلام - على الوادي فترتوي أرض المشعر والجبال المجاورة، ثم يعود السكون مرة أخرى تحت سقفه السماوي ..

* * *

جاء الليل إلى المشعر ولا أثر لضوء بعد .. هناك ضوء القمر، والنجوم المشعة ترسل أشعتها كأنها الرذاذ: تبرق وتضيء بخفوت في الصحراء ..

إن ليل المشعر بسمائه العلوية لهو شيء مجهول للذين عاشوا حياة المدينة وأفسدوا حياتهم بالبحث عن أعراض الدنيا وأطماعها ..

إن لياليهم لجدّ مختلفه !

ليل المشعر الحرام هو ظلال الهجرة والجنة: نور القمر بارد وواضح مع ابتسامة حانية .. الله ..

﴿وَالثَّمَنِ وَصُنْحَنَاهَا ﴾ ﴿وَالقَمَرِ إِذَا نَلَهَا ﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَقْشَنَاهَا ﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَتْهَا ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا لَحَّنَهَا﴾^(١) .

إنه ليس كليالي المدن المليئة بالزحام والفسق .. حيث يستنشق الناس هواءً ملوثاً نتنا، وحيث النجوم تبدو شاحبة مريضة. إنها ليلة العاشر من ذي الحجة ..

ها هو جيش التوحيد العرمم وقد ضرب رجاله المجاهدون

(١) سورة الشمس، الآيات: ١ - ٦.

خيامهم فوق هذا الجبل .. هؤلاء الجنود المقاتلون في سبيل الحرية قد خرجوا تماماً عن هذا العالم الأرضي، وتولهت خواطيرهم بالحب ناظرين إلى سماء المشعر ..

المحيط الأزرق متقلب مليء بالبلورات السماوية (النجوم) التي تظهر تباعاً في ذلك السقف القاتم وتفتح باباً إلى عالم آخر، كأنها ابتسامة الطبيعة اليتيمة تلطف أهل هذا العالم الأرضي التعس. القمر يتهادى مشرقاً من قمة الجبل ويضيء وادي المشعر ..

في الركن الآخر من السماء النجوم منهملة في التعلق ببريق الثريا على أرض المشعر حتى تضيء الطريق الغامض الذي يتوجه نحو الأبدية .. هذا الطريق هو الذي يسمى الطريق الأبيض أو «الطريق إلى مكة» أو «طريق علي»^(١).

* * *

كل هذه المعاني الجليلة الهامة اختفت من أفهام الأميين الذين يضحك عليهم «علماء الدين» الذين ما زالوا في مرحلة «المعرفة».

إنَّ حقائق هذه المناسب لهي أعظم وأعمق من التاريخ، إلا أن هذه الحقائق يتم تجاهلها لأنها غير ملموسة!

هؤلاء المؤرخون الذين يستوعبون ويسجلون الأحداث «الملموسة» لا يعلمون أنهم غضوا الطرف عن هذه الحقائق، كما

(١) هذه الأسماء هي أسماء مستعارة في اللغة الفارسية، وسمى طريق علي لأنَّه يقال إنَّ الأمام علي عليه السلام سلكه إلى مكة (عن الترجمة الإنجليزية).

لا يعلمون أنهم أضاعوا حياتهم وهم يسجلون حكايات فارغة
وسمحة ومزيفة بصورة بغية، لا لشيء إلا لأنها قد وقعت وهذا
هو الهدف ..

انظر إلى سماء المشعر!!.. انظر إلى إشعاع النجوم وهي
تخترق قلب الليل .. إنها ملائكة الأمان في السماء .. كلما حاول
الشياطين والمفسدون أن يسترقوا السمع ويتجسسوا في الخفاء من
زاوية في الظلام سيصعقون بشهاب رصداً.. لماذا؟! حتى لا
يتستّى لشرير أو غريب أن يتجرأ على انتهاك خصوصيتها المقدسة
الجليلة .. لماذا؟! حتى لا يتستّى لشرير أو غريب أن يعرف سرّ
تألفها ..

أنت أيها المنهمك في الزحام، المتفرد في خصوصيتك مع
الله! .. أيها الجندي المحب العابد في ليل المشعر.. الأسد في
ميدان مني .. المقاتل في جيش الجهاد.. انتظر في مرحلة الشعور
لتقاتل الشيطان في اليوم التالي ..

ماذا أعددت؟ ارتدي كفنك، واحمل حجارتك (أسلحتك)
بكلتا يديك .. لا شيء غير ذلك! ضع يديك تحت رأسك واقض
ليلتك في نجوى مع الله .. وحدكما .. معك سلاحك وإيمانك ..
دع هذا العالم السفلي، وتجاهل هذه الحدود .. حلق فوق هذه
السماءات العليا، واعتبر خلال أبواب النجوم، ولتدرج حيث عرج
النبي محمد ﷺ إذا كنت من الذين يتبعونه بإحسان^(١) وليشتغل

(١) يقصد الإسراء والمعراج، وهنا المعراج.

قلبك بالعشق .. اقتل كل ضعف وخوف وعقد ورغبات كانت لك في حياتك ، ولتهيأ ليوم غدِ بالاستعداد الليلة ..

أيها المخلوق الحر والجندى المحب ، الأشرار ينتظرون في مني .. وطن نفسك هذه الليلة على يوم قتال ضارِ غداً .. في أرض الوعي والشعور ، إملاً يديك بالسلاح واملاً قلبك بالعشق .

* * *

قد تسأل نفسك : ما الذي يفترض بي أن أراه أو أفعله هنا؟

الإجابة : لا شيء ! إنك حرّ في أن تغطس في المحيط البشري .. بإمكانك أن تقضي الليل كما تشاء .. حتى لو نمت فهذا لك ! لكن فلتنتصرف وأنت في قرارة نفسك تعلم أنك في أرض المشعر الحرام حيث لا شيء تراه ؛ فكما اتفقنا من قبل : (ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه) .. لا جبر هنا .

إنَّ الذي يفترض أن تفعله يسمو على أن يكون واجباً بسيطاً إنه : التأمل ..

* * *

يا للروعـة !

مئات الآلاف من الأشخاص بلا أسماء ولا هوية شخصية ،
يجلسون على الأرض ، يتأملون سماء المشعر المرصع بالنجوم ..
هنا ستروي ظمائِك بأمطار الإلهام الخفي الذي يتتساقط من السماء ..

في عمق هذا الزحام تصغي إلى الصمت!

في عمق هذا المناخ المقدس لا شيء يشغل عقلك ابتداءً..
كلا ولا حتى ذكر الله!! لأن الله يتجلى في كل ما حولك، يمكنك
أن تستنشق عبره كما تستنشق عبر الزهرة، وتستشعر حضوره بكل
حواسك: في عينيك وفي أذنيك وفي قلبك وفي نخاع عظامك..
ما الذي قيل؟!

إنك ل تستشعره في جلدك فهو الشغل الشاغل والحب الأبدى.

* * *

إقضِ الليل في المشعر تتأمل.. ! عساك تبلغ اكتشاف
نفسك.

في ظلمة الليل حاول أن تتعثر على أسلحتك استعداداً ل يوم
غد..

يا له من منظر بديع! وصل الجيش لتوه من عرفات، ثم
انطلق مسرعاً يصعد الجبال ليجمع أسلحته.. إنه جيش التوحيد..
لم تبق إلاً مرتبة واحدة هي الصلة المباشرة بالله وليس بأحد
غيره ..

إنَّ الألقاب والرتب تمنع هنا على أساس ذاتي: الذات
اليوم، والذات أمس، والذات في أي وقت.. وليس على أساس
أسماء الأعلام أو أساس اختياري شخصي..

أخيراً: إن إبراهيم هو قائد هذا الجيش التوحيدى.

* * *

على سفوح الجبال وفي ظلمة الليل إجمعوا أسلحتكم مجتمعين، على أن يحمل كل منكم في قلبه أنه مسؤول عن نفسه. المرحلة المقبلة هي مني «ميدان المعركة» التي ستقع غداً.. إنه يوم الفداء في زمن الجهاد.

أسلحتك يجب أن تُعدّها وتستجمعها في ظلمة الليل، إلا أن القتال يدور في رابعة النهار.

إنَّ هذا المحيط البشري يبدو هائجاً لا يعرف طعم الراحة.. إنهم يتذمرون ويهينون أنفسهم للجهاد.

آلاف الأشباح الغامضة: كلهم إخوانك وأخواتك جنود هذا المحيط البشري، كل منكم يعرف أخيه حق المعرفة، إلا أنه لا يستطيع أن يميز أخيه أو أخيه. كلهم ذات الشيء.

في ظلمة المشعر الحرام كل واحد يعمل في جد واجتهاد منحنياً على الأرض الصخرية يبحث عن «الجمرات» التي ترمى في ميدان المعركة بمنى.

الجمرة: هي حصاة من نوع خاص.. لهذا لا بد أن تكون حذراً! الظلام يحيط بك ويصعب الحصول على الحصى.

في كل واحدة حاول الحصول على الحجم السليم.

يجب عليك اتباع المواصفات وأنت تختار.. المسألة مضبوطة، اتحد مع الناس واجلس قربهم، واستشعر مسؤوليتك كاملة.. إن الأمر جدي.

الجمرات سوف تستخدم كأسلحة في قتل عدوك .
 اختر منها ما تجده أملساً ولا معاً ومستديراً وما يكون أصغر
 من حبة البندق وأكبر من حبة الحمض . . .
 إلى ماذا ترمز هذه الجمرة ؟
 إنها تمثل الرصاصة .

* * *

كل شيء يعمل ويقوم بحذر . .

كل جندي في جيش إبراهيم عليه أن يطلق سبعين رصاصة
 على العدو في مني . . .

ينبغي أن ترمي في رأس العدو وجسده وقلبه . .
 إذا لم تكن خبيراً فاختر لك رصاصة أكثر لتعوض ضعف
 مهارتك . .

مهما يكن الأمر يجب أن تكون عدتك كاملة لخط المواجهة .
 إذا أطلقت عدداً أقل من الرصاص ولو بوحدة انتقصت
 جنديتك ، وانتقص حبك .

* * *

في هذا الجيش تعود على احترام الأوامر ، وتذكر أنك يجب
 أن تبقى في مني ثلاثة أيام : العاشر والحادي عشر والثاني عشر .
 تأكد أنك لم تفقد طلقاتك ؛ لأنها وسيلتك الوحيدة التي
 تعتمد عليها في محاربة العدو .

كلها تصرفات عسكرية ..

الواقع والأفعال في أهمية النتائج التي تهدف إليها: إن المنظر هو ميدان قتال وليس دير عبادة! .. الأوامر بسيطة ودقيقة ومضبوطة وقاطعة ولا يمكن تجنبها ولا تحتاج إلى تفسير نظري وفلسفي.

هذه أفعال لا صلة لها بدعاء ولا بشفاعة ولا بتبتيل ولا بابتهاج ..

إنها تصرفات ظاهرة المغزى والنتائج .

* * *

الطاعة المطلقة التي لا يشوبها أي التباس تميز هذا الفصل . لا شيء ، ولا أحد يمكن أن يحل محل الآخر في هذه اللحظات .

لن تقبل أعذار من أحد ..

تذكر أن هذه الجبال لا سلطان لأحد عليها .. حتى إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام إذا رمي طلقات أقل من العدد المطلوب فإن حجهما سيظل ناقصا!

ما الذي يشير إليه ذلك؟

إذا اقترفت خطأً ستُعاقب .. هنا لا مكان للتفاهم أو الرشوة .

* * *

في اليوم الأول ستهاجم مرة واحدة ، وسترمي سبع رصاصات ..

سيكون مجموع ما ترميه تسعًا وأربعين أثناء هذه الأيام
الثلاثة.

في اليوم الرابع لك الخيار في أن تبقى في منى أو
معادرتها ..

إذا بقيت عليك أن تواصل الهجوم وتتصرف بالأسلوب نفسه
في اليوم الثاني والثالث؛ وفي هذه الحالة ستحتاج - على الأقل -
إلى سبعين رصاصة ..

(مني) هي جبهة القتال، فلا راحة لأحد فيها.. إذا بقيت فلا
بد أن تقاتل.

بمجرد أن يستجتمع كل جندي أسلحته يتبدل المناخ
ال العسكري فجأة، ويعقب الجو مناخ روحي.

لا مزيد للحديث عن السلاح والقتال والانضباط والطاعة
والانقياد.. بدلاً من ذلك فإن كل حديث يدور سيكون عن السلام
والحب والتسامي بالروح إلى السماء.

إن زئير الأسود المنتفضة قد استحال أنياباً مكتوماً مبعثه
الشوق وانكسار المعصية (كما كان يعقوب عليه السلام جزعاً حتى الموت
لفرق يوسف) أصوات الرصاص المترافق حل محله سكون تسمع
معه همس الناس ومراجعهم نحو السماء ومناجاتهم مع الله، وهذا قد
انتصف الليل.

يا له من منظر رائع !

لقد شهد ليل المشعر في بدايته صيحات جيش مهيب جبار
ينسج خيوط خطة هجوم كاسحة سيفجرها في الغد ! .. ثم ماذا ؟ !

إنَّ البحر الصافي الخالي من الأمواج .. المنبسط تحت نور
القمر وضوء النجوم التي ترسل عليها وابل من سكب شعاعها
فينعكس كل ذلك سماء تتبدى في هذه الأرض .. إنها أرض ملائكة
الرحمة والجمال .

كل شخص يستشعر دهشة في أعماقه وهو صامت .. يبدون
كأن على رؤوسهم الطير .

إنَّ الإنسان ليسمع صوت الدمع وهو يتقطر على الأرض من
أعين هؤلاء الباكين الأطهار ..

لا صوت يجرؤ على كسر الصمت في ليل المشعر إلا صوت
خفقان القلوب النابضة بالحب ..

* * *

المشعر الحرام هو معسكر لجيش عالمي .. وكل جندي فيه
هو قائد أيضاً .

إنهم لا يشربون^(١) .. إنما يتمتعون ويتسلون فقط بالاستعداد
للقتال في اليوم التالي ، بل ويحتفلون بانتصارهم مسبقاً في ليلة

(١) في معظم الجيوش وفي الأعياد يشرب الجنود والناس الخمر بأنواعها وهو يشير إلى ذلك .

العيد! وكلهم مستغرق في الحب والتواضع والصمت.

إنهم يواجهون المستقبل وقد حفّ بهم الرجاء والطمع
والتطلع إلى جبهة الخلود، ليرموا ظمائمهم بوابل الإلهام، ولتصفو
روحهم بالعبادة، ولثبتت نفوسهم بالدعاء.

لماذا كل هذا؟!

لأن يوم غد سيكون يوم قتال ضارٍ، لعلهم ينالون شرف
الشهادة (وسام الشهادة) من يد القائد الأعلى.. الله سبحانه.

* * *

يا للغراة !!

جنود المشعر الحرام يتظرون يوم القتال الذي يزحف مقترباً
منهم رويداً رويداً، وقد ملأوا أيديهم بالسلاح.. وشاهدهم
بالدعاء.

لقد تنفست نسائم الفجر، وبدت في حركة غامضة داخل
المعسكر متزامنة مع صوت الأذان المتناغم الذي غطى كل ناحية..
الصدى يبث الأذان في كل مكان.. كأنما يصل إلى الأفق البعيد.
مئات الآلاف من الكائنات تتحنى وتسجد في غلس الفجر،
وعبر الأذان ينساب في هدوء عبر أرض التوحيد، حيث لا شيء
يعكر صفو الوحدانية الجليلة..

لقد جاء أوان صلاة الصبح التي تؤديها أول كل يوم، لكن
هذه المرة هناك فرق..

إنه المناخ الذي تؤديها فيه .

الصمت يطبق على المشعر كأنما الجميع نائم .

لقد مر الليل عبر الجبال وتسرب عبر هؤلاء الذين ناموا في
ليل المشعر الحرام ، ثم اختفوا فهم في طريقهم إلى منى ..
والأَنْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ .

* * *

هنس

عند منى تقف «الوقفة» الأخيرة الطويلة . .

منى هي رمز الأمل والمثال . . والحب .

الحب هو الفصل الخاتم الذي يجيء عقب المعرفة والوعي .

لم يستطع (دانتي)^(١) في استلهامه للغنوصية الشرقية^(٢) في كتابه «الكوميديا الإلهية» أن يتعرّف إلاً على مرحلتين :

* الحكمة (فيرجيليوس) .

* والحب (بياتريس) .

(١) دانتي : (١٢٦٥ - ١٣٢١) أعظم شعراء إيطاليا، ومن رجالات الأدب العالمي. خلّد اسمه بملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهية» وصف فيها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس في سفرة وهمية قام بها بقيادة فرجيليوس وحياته بياتريس.

(٢) الغنوصية هي منهاج المسيحيين الأوائل الذين اتخذوا طريق القلب والعبادة في معراجهم إلى الله بدلاً من طريق العقل الذي كان منهج الفلسفه. «المصحح».

لكن أثناء الدراما الإلهية للحج تتوارد ثلاثة فصول هي :

* المعرفة .

* الوعي .

* الحب .

لقد حانت ساعة الجمع العظمى في اليوم العاشر ، حيث يقع عليه الغداء .

ضوء شمس الصباح المنبعثة للشروع يوقظ الناس من سباتهم . وها هم يتجمعون فوجاً إثر فوج ، رويداً رويداً من كل اتجاه ، مكونين هذا النهر البشري العظيم .

لقد انتظم الآن الجيش القوى ، وتهيأ لمعادرة المشعر الحرام إلى الوقوف التالي بمعنى .

لقد استنفذ جيش التوحيد وقتاً طويلاً في جمع أسلحته ، ويناجي الله ويتضرر شروع الشمس^(١) بفارغ الصبر :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَهُ اللَّهُ بِئْنَهُمْ﴾^(٢)

الجيش يتجه الآن ناحية الغرب حيث «منى» أرض «الله» وموقع «الشيطان» ولم تدع ابتسامة شمس العيد لأحد من راحة ..

(١) لا يستطيع أحد معادرة المشعر الحرام قبل مشرق الشمس ، حيث يبدأ الهجوم عند حدود منى .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

الجنود يمرون الآن عبر الشريط الضيق الذي يحمل اسم
وادي «محسر» ..

شريط ضيق يجعل الصف أكثر تماسكاً، والشمس تقوم بدور
القائد الأعلى وتأمر الجند:

مكانك سر.. هجوم.. خطوة معتادة.. خطوة سريعة!

أولئك الذين كانوا في حالة تأمل وسكون بالمشعر يتحولون
- فجأة - إلى حالة من الحركة والقلق وهم يندفعون نحو «منى».

ثم - فجأة وبلا مقدمات - يتوقف الجيش كله كأنما انتصب
 أمامه سد منيع يستعصي اختراقه.. لقد تراجع الجيش وكأنه لا
 يستطيع أن يخطو خطوة للأمام.

هناك فقط على مشارف النهاية في الزحام قليل من الحركة..
ماذا حدث؟! من ذا الذي يستطيع أن يصدر هذا الأمر بالتوقف؟!
إنه مشرق الشمس!!.. الشمس هي القائد.

* * *

الآن يقف الجيش على جبهة «منى» ..

الملايين من جنود الحرية الذين يرفضون الخضوع لأية قوة
سوى الله، يتزاحمون في هذه الصفوف الطويلة ..

هنا يوجد الخط المفترض الذي لا يجرؤ أحد على تجاوزه
خطوة واحدة.. إنه الحاجز الخفي الذي يفصل المشعر عن منى.

لأحد ولا قوة تستطيع أن تخرق جدار الأمن ولو كان
إبراهيم عليه السلام أو محمد ﷺ .

هذا الضابط ليس فريضة ولا واجب، ولكنه «سنة» وهو
الدرجة ذاتها التي وضع الله تعالى مرتبتها لحكم نظام الكون كله :
﴿فَلَنْ يَحْدُدَ لِسْنَتِ اللَّهِ تَبَدِيلًا، وَلَنْ يَحْمَدَ لِسْنَتِ اللَّهِ تَخْوِيلًا﴾^(١).

* * *

كما تسري القوة الطبيعية لقانون الجاذبية، وكما ترى الموت
والحياة حقيقة واقعة .. كذلك فإن الشمس هنا هي «القائد» ..

دعها تشرق فأشعتها سوف تخرق الجدار وتفتح الطريق
للجيش حتى يعبر بيساطة مثلما يأتي الضوء على الظل فيمحوه ! ..
الجدار المنيع الذي أوقف الجيش سيتحطم بعد قليل حينما
تشرق ابتسامة النهار ..

خلف الحاجز الخفي ينتظر الجيش وهو يتململ بعذاته
وذخيرته .. ينتظر الليل كله حتى تشرق الشمس مصدراً الأمر
بالعبور ..

* * *

انسلخ الليل وانتشرت أشعة الضوء غامرة المكان، لكن ما
نزل هناك بضع لحظات حتى تظهر الشمس جلية في الشرق.

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

لا يوجد في أي مكان على وجه الأرض، وفي أي وقت من الأوقات، وعبر أي مجتمع من المجتمعات ما لمشرق الشمس مثل ما لديها هنا من سلطان! .

في حالة من الصمت الرهيب المثير ملابين الأفئدة والعيون والأبدان تشرئب بأعناقها متضررة صدور الأمر (لترى مشرق الشمس) . إن البعض من شدة قلقه واندفعه ليسمع الأمر قبل صدوره! . لماذا؟!

إنه أمر يصدر للجيش الذي يرمي إلى سلطان التوحيد في الأرض .

هنا تجد الجيش الوحيد عبر التاريخ الذي يأتمر بأمر الشمس، والأمة الوحيدة التي رضيت بأن تحكم بتوقيت الشمس والفجر.

هناك بعرفات أشرق الشمس وصعدت أعلى الجبال وأطلت من خلفها . سبق للفجر أن حطم بناء شيطان الظلام الهش :

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَب﴾^(١)

وتدافعت أمام فجر العيد دماء كل الذين استشهدوا بأيدي الطغاة . في هذا المكان المشمس تأمر جيش التوحيد بالثأر والهجوم على جذور الطغيان الثلاثة^(٢) الضاربة في عمق التاريخ .

* * *

(١) سورة الفلق، الآية: ٣.

(٢) في الفصل الآتي يرد شرح واب لمعني رموز الطغيان الثلاثة، وكذا فصل: «الأصنام الثلاثة رموز الشليث».

يا لها من لحظة رائعة!

الشمس ترسل ضياءها، والشفق يعبر بأشعته النافذة، والصبح تنفس نسائمها .. كل ذلك يجعل كل إنسان يهتز بلا راحة.

إنها «آيات الله المقدسة» التي تجسد السعادة والأمل والإيمان .. تتجلّى وتعطي أمرها بالقتال والاستمساك بقوة النصر .. إنها تأمرك بتحطيم الأصنام.

اليوم لن تبقى لأكبر قواعد الشيطان في الأرض بقية ..

واليوم سيقتل الشرك، وسيعلو التوحيد ويحلق ناشراً لواءه المضيء، معلناً عن جوهره الحق.

* * *

فجأة أسرر ضوء الشمس عن الصراط المستقيم، وأصدر الأمر للجنود بالعبور ..

ها هي صيحات البهجة تتعالى، وأشعة الشمس وأطیاف الجند تتحد وتتدفق عبر مضيق مني ..

لم يعد الجمع المتزاحم يتتألف من «حمامات السلام البيضاء» ولكن تبدل ليكون «صقور الحرية المسلمين» ولهذا فلا بد للأوامر أن تطاع ولا بد للنظام أن يسري:

إقض الليل بالمشعر الحرام
ادخل في اليوم العاشر إلى مني

* * *

في الفجر يجب أن تكون على مشارف منى لتعبر تلك الحدود وتنضم للجمع وتشاهد شمس اليوم العاشر.

منى تقع باتجاه الغرب، بينما عرفات يقوم إلى الشرق، والجيش يقف قبالة منى، والشمس تشرق من خلف الجندي وتعبر جبال عرفات وتدخل إلى مضيق منى؛ لهذا فالشمس أيضاً تؤدي مناسك الحج: تشرق في عرفات.. تعبر المشعر الحرام.. ثم تدخل منى !!

جيش الحب مستعد للجهاد، ومقاتلو الحرية الذين جاءوا من عرفات وأمضوا الليل في المشعر الحرام يجتمعون أسلحتهم، ويزدادون إيماناً ويلتزمون بالواجب متظرين على أبواب منى .. أين؟! على حدود المدينة.. إنها مركز الاستشهاد. وفي الوقت ذاته ميدان المعركة.

انتظر الشمس.. وأطعها!.. كيف؟!

أعد نفسك..

* اجمع أسلحتك في الليل

* لا تدخل منى قبل مشرق الشمس. إذ إن الليل هو الوقت الذي جعل للوقوف عند المشعر الحرام.

* لا تبقى في المشعر الحرام بعد مشرق الشمس، لأن النهار هو وقت العمل الموقوت في منى.

* إبدأ هجومك مع مشرق الشمس.

شرق أي شمس؟ .. شمس اليوم العاشر من ذي الحجة ..
شمس العيد.

يا الله!! .. إنها المسافة بين حدود منى حتى قاعدة
الشيطان .. ميدان المعركة عند مدخل منى ..

مهما يكن من أمر فإن الاحتفال بالعيد يأتي - بالطبع - بعد أن
تهزم الأشرار وترمي عليهم الجمرات وتتال النصر.

لكن .. انظر إلى أمة التوحيد وتقاليدها: إنها تحفل بالعيد
قبل أن تبدأ المعركة، هذا يعني أنك منتصر بمجرد أن تتخذ
قرارك^(١) ..

هذا يعني أنك كسبت المعركة منذ أن دخلت حدود منى ..

[ماذا؟ .. ما الذي يقال؟ .. يا إلهي! ما أصعب أن تفهم هذه
الأمة البسيطة .. ما أعقد هؤلاء البشر الذين لا يأبهون بشيء
ويمضون في سهولة ويسر!]

هذا يعني أنك منتصر إن كان هذا هو الوقت! .. أي وقت؟!

إذا كنت قادماً من عرفات ..

(١) الغريب أن الدكتور هشام شرابي وهو مفكر وضعى يقول: (إن التحرير عملية تبدأ في اللحظة التي يبدأ فيها الصراع وليس مجرد هدف نصل إليه عندما يتهدى، فالانتصار هو الانتصار الذي يتحقق قبل أن يصل الصراع إلى منتهائه وتحقق أهدافه، وكل حركة تحرير تفشل حتى لو انتصرت إن لم تتحقق الانتصار السابق الذي يكون هو شرط انتصارها الأخير .. هذا هو معنى التحرير الحقيقي والثورة الحقيقة).
راجع البنية البطيريكية - دار الطبيعة - ص ١٠، ١١ الطبعة الأولى.

إذا كنت موجوداً بالمشعر الحرام متفكراً.. تجمع أسلحتك
لفجر العيد.

* * *

كلا! كلا! ..

إنَّ أَهْمَ الشُّرُوطِ لَمْ يَفْصُحْ عَنْهَا بَعْدَ ..

هذا الحج كالطبيعة، إنه الإسلام، لكنه يبيّن ليس بالكلمة،
بل بالحركة إنها ظاهرة متشابهة.

كلما غصت فيه، فلن تصل النهاية، إنه لا نهاية له، إن معناه
بمقدار ما تدرك. وكل شخص يدعى أنه استوعب الإسلام كله لم
يفهم منه شيء. إن الشروط الأهم لم ترد بعد.. إذا جئت إلى
الميقات، وارتديت ثياب الإحرام..

ما الذي قيل؟ .. من أنت؟ .. من أنا؟

إن الفرد وحده لا يستطيع أن يقوم بشيء..

القرآن الكريم يتحدث عن «الناس» لا عن الفرد.

الناس! .. يالها من كلمة جميلة تلك التي جاءت في
القرآن.. إنها دائماً بصيغة الجمع؛ إذ لا مفرد لها..

«يد الله مع الجماعة»

إنَّ كُلَّ مَا يَصُوَرُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ حَرْكَةٍ
وَكَمَالٍ وَخَلَافَةٍ اللَّهُ فِي الطَّبِيعَةِ وَنَصْرٌ .. كُلُّهَا مَكْتُوبَةٌ وَمَرْتَبَةٌ بِأَقْدَارِ
النَّاسِ ..

إن سُنة الله التي لن تجد لها subsidiary هي قوانين تحكم حركة الجماعات والمجتمعات عموماً، وأقدار التاريخ تسير باتجاه تحقيق سنن الله هذه، والذي نستطيع أن نفعله «أنا» و «أنت» هو أن نكتشف هذه السنن، ثم نسير وفقاً لها لتحقيق أقدار الله في التاريخ . . .

وإرادة الله تعالى في الزمن المحدد لها هي محصلة حياة الإنسان ونهاية الثورة الدائمة من أجل سلام الكون .

ألم يقل الله - رب إبراهيم وخلق الإنسان - في القرآن الكريم :

﴿... أَتَ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الْقَنْطَلِعُونَ﴾^(١).

وهو الذي وعد بقوله :

﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَّنَ عَلَى الَّذِينَ أَسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَرِثِينَ﴾^(٢).

إن «الاستضعفاف» يشمل كل ما من شأنه أن يضعف أو يعادى الإنسانية، وهو الذي يحطم طاقات الإنسان المادية والمعنوية، وهذه الكلمة هي الكلمة الجامعة لكل وسيلة يسخرها أعداء الإنسانية: استعمار.. استبداد.. استعباد.. استحصار..

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

استغلال.. أو أي مصطلح يمكن أن يطرأ في المستقبل! ..

دعهم يقولون ما يحلو لهم، فقد سبق وعد الله أنه سبحانه سينجي ضحايا القدر ويحررهم، بل إنه سبحانه أعطاهم امتياز قيادة المجتمع البشري في المستقبل.. نعم! هذه الطبقة من البشر - المحرومة من حقوقها دائماً - سوف ترث قصور الحكم وثروات الأموال وكنوز العلم!

يا ترى ما العلاقة بين كلمة «المستضعفين» ﴿الَّذِينَ أَسْتُضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وبين كلمة «معدبو الأرض» التي اختارها «فرانز فانون»^(١) عنواناً لكتابه المشهور؟

يقول في الكتاب: (في يوم العدل سيقوم عمال الله بالتفريق بين نوعين من الناس:

* الذين استغلوا، وهؤلاء سيدخلون الجنة.

* والذين استغلوا.. وهؤلاء سيدخلون جهنم)^(٢).

وحتى في الدنيا يتفق المؤمنون وأتباع المذاهب الشيطانية على تقسيم الناس قسمين:

* الذين سيدخلون الجنة.

(١) فرانز فانون: طبيب أمراض عقلية من جزر المارتينيك، عمل مديرًا لمستشفى «بلدية» بالجزائر من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية، ثم استقال من عمله وانضم لصفوف الثورة الجزائرية مقاتلاً ومنظراً للثورة في إفريقيا عامة وفي الجزائر خاصة، حتى قضى نحبه.. راجع كتاب «فرانز فانون ودوره في الثورة الجزائرية» للأستاذ محمد الميلي.

Les Damnés de la terre. Par Frantz Fanon (٢)

* والذين سيعذبون.

وكذلك قال «جان بول سارتر»^(١) في إحدى افتتاحيات كتبه: (من مجتمع سكان الكره الأرضية البالغ بليونين، يؤمن الاستعماريون أن خمسة ملليون فقط يمثلون الإنسانية، بينما يعتبرون البليون والنصف الباقى مجرد رعايا أو مجموعة لا امتيازات لها تشكل ما يسمى بـ : العالم الثالث).

إذا كان مصير التاريخ وقدر الله قد قرر أن النصر سوف يكون حليف «المستضعفين» أولئك الذين «لا حول لهم ولا قوة» من سلاله هابيل ..

وإذا كانت سنن الله لن تتبدل ، وهي التي تحكم مصير التاريخ ﴿فَلَنْ يَجِدَ إِسْتِنَاثَةً لِّلَّهِ تَبَدِّلَ لِّلَّهِ﴾^(٢).

ماذا يفترض أن تكون عليه أنت؟ .

إن شأنك شأن كل مظاهر خلق الله .. عليك أن تكتشف هذه السنن وتخтар قدرك! ، فكما أن للطبيعة التي حولك مآل ومصير ، وللتاريخ مآل ومصير ، فإن لك أنت أيضاً مآل ومصير .

أنت نزيل في أربعة سجون تحتويك: سجن الطبيعة

(١) جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠): فيلسوف وكاتب فرنسي من رواد الروحية المتشائمة، قال إن الوجود متقدم على الذات أو الماهية، وإن الإنسان مطلق الحرية في الاختيار. رفض جائزة نوبل ١٩٦٤. (المصريح).

(٢) وردت في أكثر من سورة: الأحزاب: ٦٢، فاطر: ٤٣، الفتح: ٢٣.

(الدنيا)^(١) .. وسجن التاريخ .. وسجن المجتمع .. وسجن ذاتك .

بالعلم تستطيع أن تعرف مصير الطبيعة (الدنيا) إذا تعلمت علومها، وبالرضا والقناعة تحرر نفسك من سجنها.

وبالعلم يمكن أن تكتشف التاريخ (بدراسة فلسفة التاريخ وواقعه) وبالرضا والقناعة تغير تاريخك .

وبالعلم عليك أن تكتشف مجتمعك (بدراسة علم الاجتماع) وتتعرف على قوانينه، وأعرافه، وعاداته، وبذلك يتم لك تحرير نفسك .

لتتجاوز هذه السجون الثلاثة، فأنت تحتاج «للمعرفة» ..

لكن ماذا عن السجن الرابع؟ سجن الغرائز البشرية؟!

إنه السجن الوحيد الذي تحمله داخلك .

إنَّ العلوم لتعجز عن تحريرك من هذا السجن؛ إذ إنه قابع داخلك رابض في ثنياً جسديك، كامن في نفسك «العارفة» ..

إنه يتطلب «معرفة» خاصة حتى تقوم بتقديم نفسك إلى ذاتك! وحتى تساعد «نفسك» على اكتشاف «ذاتك» .

إنك بحاجة إلى قوة تعينك على الانتصار على ضعفك .. أن تتمرد ضد ذاتك، إنك تحتاج إلى يد قوية تساعدك وتغيرك .

(١) يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

المعرفة هنا - في هذا السجن الرابع - لا تصلح علاجاً،
لأنها هي نفسها سجينه داخل «العارف»!

هناك أنماط أخرى من المعرفة حمل مشاعلها الأنبياء هي:
الحكمة، والوعي، والإيمان.

إنها أنماط المعرفة التي تضيء لك الطريق وتيسّر لك السبيل
لاكتشاف نفسك، وتُعرّف السجين الذي يقوم في داخلك ..

القوة التي ستحررك من داخلك - من عبادة الذات - ليست
هي العلوم المسخرة، وإنما هي فن الحب والتراحم ..

إنَّ الحب والتراحم هو الذي يمكنك من تقديم حياتك شهيداً
إذا كنت تشعر أنها سجنك، بل وتضحى بإسماعيل بيديك - وهو
 فعل يتتجاوز ويفوق الشهادة - إذا كنت تشعر أنه يقف في طريقك.

إذاً يمكننا أن نستخلص: إنك تستطيع أن تحرر نفسك من
السجون الأربع بـ «الحب والتراحم» فهي تلك المعرفة التي تزودك
بدرجة من الوعي والابداع، تجعلك تبني نفسك لتبلغ بها أمر الله؛
وحتى لا تكون مجرد عبد للدنيا.

الإنسان هو ذلك المخلوق الذي هبط إلى الأرض وحيداً ..

أنت إذاً ظاهرة حية، وعليك أن تبني طبيعتك الخاصة بك.

إنك «الصفر» أو «اللاشيء» الذي يستطيع أن يصبح «كل
شيء» ..

إنك «شك» أو «ممکن» يلبس شكل إنسان! ..

إذا اخترت أن تكون إنساناً فعليك أن تكتشف فطرتك «الإيمان» وبه تستطيع أن تحرر نفسك، وأن تجد أقدار الله في التاريخ، وأن تدرك أن التاريخ هو قدر الإنسان عبر الدهور، كما تدرك أنه - وبذات الدرجة - رحلتك من الصفر إلى الله تعالى، ومن «الواحد» لـ : «اللاشيء» تبدأ معرفتك بالإنسان وقيمه، وبذلك تعنق الإنسانية ذلك النهر اللانهائي ذو التيار الخالد.

إنَّ سيادة الليل في «المشعر الحرام»، وطغيان الأصنام الثلاثة في «منى» لن يستطيعاً أن يغيروا أو أن ينحرفاً بالمسار المتقدم لهذا القدر .. إنه قدر الله .

تفاصيل قدرك سيكتبها الآخرون إذا كنت «لا تعرف» وكتبتها أنت إذا كنت «تعرف» .. وأنت أيها «الصفر» الذي صرت «واعياً» و «حزماً» إذا جئت إلى الميقات في الزمن المحدد، وأدركت طريقك الطبيعي واتبعته - قدر آدم عليه السلام - فسوف تكون عندئذ على الطريق القويم وعلى الصراط المستقيم .

أنت تذهب من بيتك إلى الكعبة ..

أو من الطين إلى الله .. الكون خاضع لسلطان الله ومشيئته، ومحكوم بقدرته وعلمه، وأنت واقف على شاطئ هذا «النهر» لك الخيار أن تقرر البقاء على الضفة لموت، أو أن تدخل إلى نهر الناس لتحررك .

ألا يمكن أن تدرك ما عناه الإمام جعفر الصادق عليه السلام حين قال : «إنها ليست تخيراً مطلقاً، كما أنها ليست جبراً مطلقاً،

ولكنها منزلة بين المترلتين أو أنها جمع بينهما»..

إنها حرية أن تختار قدرك : التسليم + الطاعة = الإسلام .

* * *

هذا الطوفان البشري يتدفق عبر حدود مني ، ويهرم إبليس في أرضه .. في اللحظة ذاتها التي ينهزم فيها الشيطان ؛ ترفع شمس اليوم العاشر ريات النصر ..

مع ابتسامة الشمس الأولى تصدر إشارة العبور وأوامر بدء الهجوم لتبدأ المعركة ، وفي اللحظة ذاتها تعلن الشمس النصر وإنجاز المهمة .

هذا هو قدر التاريخ ومشيئة الله للناس .

كل ذلك في يديك وخاضع لإرادتك ..

ولكن ما هو الشرط الأهم الذي يجعلك منتصراً - إذا انضمت إلى هذا الطوفان البشري - مع هؤلاء الناس الذين عزموا على القربى إلى الله «الأمة» .. «المجتمع المتحرك اللانهائي» « بذلك النهر المتذبذب الفياض كالإعصار الذي يخترق أية صخرة أو سدّ ماضياً حتى يلقى البحر ، ولا رادّ لمسيرته؟! » .

إنَّ الشرط هو ألا تتوقف على الطريق من المشعر الحرام إلى مني ، ولا تخطئ الطريق سالكاً طريقاً آخر غير طريق الناس ..

عليك إذاً أن تبقى مع الناس ، فإذا فعلت ، فستصل إلى مني وستهزم الشيطان ، وستضحي بإسماعيلك ..

هذا هو أمر الله المبين لكل هؤلاء الذين جاءوا إلى الحج :

﴿لَئِنْ أَفَيَضُوا مِنْ حَيْثُ أَفْكَارُهُمْ﴾^(١)

ها هو جيش التوحيد يدخل وادي منى .. ميدان القتال ،
مزوداً بسلاحه الكامل وعزيمته الكاملة .

* * *

جبهة القتال - رمي الجمرات

تنصب القواعد الثلاثة على طول شارع الملك.. تفصل بينها عدة مئات من الأمتار.. يمثل كل منها: أثراً أو تمثلاً أو صنماً.. كل عام تُطلّى وجوههم باللون الأبيض.

«الله أكبر» يا لها من عبارة فياضة بالمعاني..

لقد وصل الجيش.. الكل مزود بالسلاح «الجمرات»
ومستعد لإطلاق النار.

عندما تصل إلى الجمرة الأولى لا ترمي، ولكن أعبر!..

وعندما تصل إلى الجمرة الوسطى لا ترمي، ولكن أعبر
أيضاً!!..

وعندما تصل إلى الصنم الثالث حيث «جمرة العقبة» لا تعبر،
ولكن ارم!..

لماذا؟!

إنَّ القادة المخضرمين من ذوي الحنكة والتجربة عادة يوجهونها نحو السير بالتدريج وبطريقة تصاعدية وبكل هدوء على طرق متواالية ..

لُكِنَ القائد هنا هو إبراهيم غَلَبَ اللَّهُ وأوامره هي :

- «اضرب الأخير في هجومك الأول!»

- «هل رميت؟»

- «نعم» .

- «كم رميت؟?» ..

- «سبع مرات» .

- «هل أنت واثق أنها أصابت الهدف؟» .

- «نعم واثق» .

- «هل ضربته في البطن أم على الأقدام؟?» .

- «كلا.. لا هذا ولا ذاك» .

- «هل ضربته من الخلف؟?» .

- «كلا» .

- «هل رميتها في الرأس والوجه؟?» .

- «نعم فعلت» .

- «نعم ما فعلت» .

لقد انتهت المعركة ..

عندما يسقط الأخير ، فلا سبيل لأن يقاوم الأول والثاني ..

إنَّ الصنم الآخر هو الذي يدعم الصنمين الأول والثاني ..

* * *

بعد أن تغادر جبهة القتال فلن تفعل شيئاً آخر غير تقديم
الفداء ، وعندئذ فقط لك أن تحتفل بانتصارك وتعلن عنه : إحلق
شعر رأسك ، واخلع إن شئت لباس الإحرام ، والبس ما شئت من
الثياب ..

أنت حر الآن .. أنت إنسان !؛ لقد هزمت (منى) وانتصرت
على الشيطان .

ما الذي أقوله ؟ .

إنك إبراهيم الآن ..

إنك في مقام التضحية بإسماعيلك في سبيله تعالى .

* * *

القربان

بعد أن ترمي الصنم الأخير تقدم مباشرة بالأضحية .

إنَّ هذه الأصنام الثلاثة تجسيد للثالوث ورمز للمراحل
الشيطانية الثلاث ..

دائماً كن يقظاً وأنت تراقب نيتك متتبهاً لمقاصدتها ..

يجب أن تعرف ما الذي تفعله؟ ولماذا تفعله؟!

* * *

هذه الشعائر يجب ألا تشغلك عن استشراف هدفك من
ورائها؛ إنما هي «إشارات» و «رموز» ولذا ينبغي أن تكون فطناً لما
ينبغي أن تراه ..

هذه الاجراءات والفنون والأشكال لا تدعها تلتبس عليك
وتربكك ويشكل عليك أمرها .. المعاني هي التي ينبغي استشعارها
لا الأشكال .

* * *

«إن الحج شعائر وليس مناسك».

أثناء الحج كل فعل لا يبدأ إلاً ويسبق بالنية؛ فكل فعل بلا نية باطل ولا يقبل..

النية أيضاً تسبق فريضة الستيام، وإذا نسيت أن تنطق بها فأنت تستيقنها على نحو ما، هذا أيضاً ينطبق على الجهاد، وإذا لم تكن للكنية فأنت لم تصبح بعد جندياً مقاتلاً..

في الحج أعمالك لا طائل من ورائها بلا نية؛ إذ إن هذه المراسيم «إشارات» و «رموز» و «علامات»..

فالذي يضع جبهته على الأرض دون أن يعي معنى السجود، فهو لا يعدو أن يكون ماساً للتراب بجسده، والذي لا يدرى جوهر الحج يعود من «مكة» بحقيقة ملائى بالهدايا وعقل فارغ^(١).

* * *

أثناء الحج ستقوم بالآتي :

* ستعلن التوحيد بالطواف..

* ستخوض نضال هاجر في السعي..

* ستعرض هبوط آدم عندما تنتقل من الكعبة إلى عرفة..

(١) في مكة اليوم العديد من المخازن التي تبيع مختلف الهدايا كالمعدات الكهربائية وأواني البيت والمجوهرات وغيرها، وكثير من الناس يتعاملون مع الحج كفرصة سانحة جذابة للسياحة الشرائية حيث يصرفون وقتاً طويلاً ومالاً كثيراً في حشو حقائبهم. إن مكة اليوم سوق حر جيد للتجارة الخارجية.

* ستعرض فلسفة خلق الإنسان، وتطور فكره من العلوم البحتة إلى الحب المحسن، وسمو الروح من الطين إلى الله عندما تذهب من عرفة إلى منى.

* * *

إنَّ المرحلة الأخيرة في التطور نحو المثال هي: مطلق الحرية في مطلق التسليم.. أو هي: مرحلة إبراهيم.. وهي تلك التي تقع في (منى).

أنت الآن مقدم على أن تفعل مثلما فعل إبراهيم حينما جاء بابنه إسماعيل ليذبحه..

فمن هو إسماعيلك؟ أو ما هو؟! ..

موقعك؟.. لقبك؟.. مهنتك؟.. مالك؟.. بيتك؟..
مزرعتك؟.. سيارتك؟.. حبك؟.. أسرتك؟.. المعرفة؟..
الطبقة الاجتماعية؟..

الفن؟.. الأزياء؟.. الاسم؟.. حياتك؟.. شبابك؟..
جمالك؟..

كيف يمكنني أن أعرف؟!.. أنت وحدك الذي تعرف ما في نفسك!..

مهما يكن إسماعيلك أو كيما كان، يجب عليك أن تأتي به معك إلى هنا لتضخي به.. إنني لا أستطيع أن أحدهه لك. ولكن بإمكاني أن أعطيك بعض مفاتيح معرفته التي تعينك، فمثلاً: كل

الذي يضعف إيمانك.. كل الذي يصدك عن السبيل.. كل الذي ينأى بك عن تحمل المسؤولية.. كل الذي يجعلك غارقاً في ذاتك.. كل الذي يصم أذنيك عن سماع دعوة الإسلام والاستجابة لها.. كل الذي يجبرك على الفرار.. كل الذي يجعلك تستجيب لداعي القعود والوهم والسكون.. كل الذي يجعلك أعمى وأصم..

أنت الآن في مقام إبراهيم الذي كان ضعفه يكمن في حبه لإسماعيل: «ابنه»..

لقد حاول الشيطان أن يغويه...

تخيل نفسك في ذروة المراحل.. ممتهناً بالفخر والزهو، وهناك شيء واحد فقط يمكن أن تترك في سبيله كل شيء، وتضحي من أجله بكل حب سواه ليبقى لك حبه.. هذا هو إسماعيلك! إسماعيلك هذا قد يكون «شخص» أو «مرتبة» أو «موقع» أو «موضوع» أو حتى «ضعف»...

لكن الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه..

كانت حياة إبراهيم تمضي إلى خواتيمها بعد أن امتد به العمر لمائة عام، شهد خلالها من الكفاح والحركة والتشرد والقتال في جهاده المقدس ما شهد، وبعد أن واجه جهل قبيلته، وواجه قهر النمرود، وواجه تعصب عبدة الأصنام..

لقد كان في شبابه ذكيًا متمرداً، إلا أنه قضى تلك الفترة من العمر في بيت «آزر» أحد المتعصبين لعبادة الأصنام، بل كان هو نفسه صانعاً لها!..

وكان قدر إبراهيم في الزوجة «سارة» العقيم التي يتمثل فيها تعصب الأرستقراطية. لقد عهد الله لإبراهيم بالعمل الصعب. أي أن يكوننبياً للتوحيد في نظام قائم على القهر وفي عصور الظلم ..

ومع كل ذلك تسامح إبراهيم مع مائة عام من القهر والتعذيب وهو يبث الدعوة والوعي والحب والحرية بين أناس أشربوا الاستعباد . . .

وقد مضى بإبراهيم العمر وهو ما يزال وحيداً . وقد ظل إبراهيم - حتى وهو في ذروة مقام النبوة - إنساناً يتمنى أن يكون له ابن^(١) .

بلغت زوجته سن اليأس، وتجاوزت هو المائة عام ومع ذلك ظل قلبه مليئاً «بالآمنية» وليس « بالأمل» . . .

وقد جاء الأول الذي أنعم فيه الله سبحانه بالجزاء على الشيخ المسن وعلى عمره فيما أبلأه وهو يعاني في إبلاغ رسالته . . .

فقد بارك الله أيامه الأخيرة بابنه إسماعيل من خادمه

(١) على النقيض من فلسفات وثقافات الهند والصين والإغريق وحيث يتحول الأبطال والبناء والملوك من مقامهم إلى مقام (الألوهية)! فإن إبراهيم عليه السلام ظل دائماً إنساناً رغم أنه مرسخ دعائم عقيدة التوحيد وأبو الأنبياء العظام «موسى وعيسى ومحمد»، لم يكن إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيام في أذهان الفلسفة والشعراء مثلاً، ولا إليها فلسفياً، ولكن ظل دائماً إنساناً حقيقياً بكل حاجاته وغرازه وعواطفه، إنه إنسان من يصطففهم الله.

«هاجر»، تلك المرأة السوداء التي لم تكن ترقى مكانتها حتى تثير الغيرة في قلب «سارة» زوجة إبراهيم الأولى.

لم يكن إسماعيل إبناً فحسب، ولكنه كان ثمرة لكل آمال العمر، والجزاء الذي أعطي لحياة حافلة بالجهاد، وهو أيضاً الابن الوحيد لوالد مسنٍ، هو عنده أعز ما وجد في كل تلك الأعوام العامرة بالبلاء..

لقد كان الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه، ولكن قد يكون إسماعيل هو: أنت.. أو أسرتك.. أو وظيفتك.. أو ثروتك.. أو شهرتك.. لا أدري! لكن كان لإبراهيم «ابنه».. مثل ذلك «الابن» لذلك «الأب».

أمام عينيه - تلك العينان التي دبت المشيب إلى حاجبيهما، لكنهما اليوم تشغان بالسعادة - كان إسماعيل يكبر وينمو ويتربّع متلقياً كل الرعاية والحب والحنان من أبيه الذي كرس روحه بثبات ورسوخ من أجل حياة ابنه..

إنه ينظر إليه على أنه نبطة في أرض مقفرة لمزارع مسكين: (كل لحظة من أيامي الأخيرة يجب أن أتمتع بها)^(١) ..

لقد كانت متعته في وجود ابنه إسماعيل ..

إنَّ إسماعيل يختلف عن أي طفل آخر عادي :

(١) العبارة لأندرية جيد. راجع هامش ص ١٤٦ «المصحح»..

أولاً: لأن أباه ظل يمتناه لمائة عام.

ثانياً: لأنه ولد على غير توقع وفي دهشة عظيمة من أبيه.

ها هو إسماعيل يثبت قوياً كما تثبت الشجرة . . .

لقد أعاد الشباب، وأشاع السعادة في حياة أبيه . . .

أصبح إسماعيل لأبيه الأمل والحب والأهل . . .

لقد بلغت الرسالة: (يا إبراهيم ضع السكين على عنق ابنك ووضح به بذات يديك)! .

كيف يمكن للمرء أن يصف فزع إبراهيم ساعة تلقيه الرسالة القاصمة؟! . . .

حتى لو كنا شهوداً ساعة ألقىت الرسالة لن نستطيع أن نتصور حقيقة شعوره . . .

لا ريب أن مقدار ألمه قد فاق حد الاحتمال والتخيل . .

إبراهيم ذلك العبد شديد الخضوع لله (أواه مني) . . إبراهيم ذلك المتمرد الشهير في تاريخ البشرية . . إبراهيم ذلك المؤمن الذي لم يهزم عبر كل تاريخ الإنسانية، يتزلزل الآن وكأنه يتناثر أجزاء!

لقد صدمته الرسالة بعنف . .

ولكن الرسالة هي أمر الله . .

إن أعظم الجهاد ذلك الذي تجاهد فيه نفسك (الجهاد الأكبر) . .

وها هو البطل المتصر في أعظم معارك التاريخ ينكسر الآن

ويضعف ويختار ويقتنط! ..

إبراهيم يخوض الآن صراعاً داخلياً في أن يختار بين إسماعيل والله.. يا له من قرار صعب لا بد أن يتخذ! ..

أيهما ستختار؟! الله أم نفسك؟! المنفعة أم القيم؟! الاستعباد أم الحرية؟! الدبلوماسية أم الحقيقة؟! الركود أم الحركة؟! السعادة أم الكمال؟! المتعة أم المعاناة في سبيل المسؤولية؟! الحياة من أجل الحياة، أم الحياة من أجل هدف؟! الحب والسلام أم العقيدة والجهاد؟! هل تتبع طبيعتك أم إرادتك الواقعية؟! هل تخضع لمشاعرك أم تخضع لإيمانك؟! أن تكون أباً أم تكوننبياً؟! ترعن أقاربك أم تحمل الرسالة؟! .. وأخيراً: الله أم إسماعيل؟!

يا إبراهيم اختر! ..

بعد مئة سنة من النبوة بين الناس ..

وبعد حياة حافلة بالكفاح ضد عبدة الأصنام، أولئك الجهلة الطغاة..

وبعد أن ظللت متتصراً في كل الجبهات ..

وبعد أن وفقت في حمل المسؤولية بكل تبعاتها، دون أن يتطرق إلى قلبك ذرة من الشك في الطريق الذي اخترته، ودون أن تقيم أي وزن للرغبات الشخصية ..

وبعد أن وصلت بالقرب من الله درجة هي أقصى ما يستطيع إنسان أن يبلغه بجهده ..

وبعد أن رسخت أمة التوحيد، واجتازت كل المحن
والابتلاءات . . لا تظن بعد كل هذا، أنك لن تتردد . . .

لا تخلد إلى الراحة . . .

لا تعتبر نفسك بطلاً لا يُقهر، وأنك بلا جوانب ضعف . .
يجب ألا تضللك وتخدعك الانتصارات التي تناولت عليك عبر مئة
سنة . . .

هل تعتقد أنك وصلت لدرجة العصمة؟! . . .

كلا لا تستشعر الأمان . . .

إنك لست في أمان وواقية من إغواء الشيطان، ولست في
أمان من تلك القوى الخفية التي تحيط بالإنسان .

دائماً هناك الكثير من أصوات المجد الزائفه التي تبهر
الأبصار . . .

والله تعالى يعلم عنك أكثر مما تعلم عن نفسك . . .

يعلم أنك لا تزال مهيض الجناح! . . .

ويعلم أنه لا يزال عندك ثغرة تنظر منها إلى الدنيا وأعراض
الدنيا! . . .

إنه يريد أن يقطعك عن كل صلة مهما دقت مع هذه الدنيا . . .

يا إبراهيم . . .

أيها البطل المنتصر في معركة التاريخ الكبرى . . .

بروحك السامقة، وصمودك الذي لا يتزعزع (يا ذا العزم من
الرسل) . . . لا تظن أن أمر الله معك قد انتهى . .

إنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِيُبَيِّنُ عَنِ الْإِنْسَانِ !

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوسِّعُ بِهِ نَفْسُهُ وَهُنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
حَقِيلِ الْوَرِيدِ﴾^(١) لكن المسافة بعيدة بعدها عن الأبدية . .

لا تحسين الأمر سهلاً! . .

في مقام «النبوة» قد بلغت ذروة الكمال، ولكن في «الطاعة»
لم تبلغ بعد الكمال . .

آه يا خليل الله ومرسخ عقيدة التوحيد ومعبد طريق موسى
وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام! . . .

أيها الأسوة لمجد الإنسان وكرامته وكماله . . أنت «إبراهيم»
ولكن أن تكون «المطبيع» فذلك أمر عسير!

يجب أن تكون خالصاً لله تعالى متحرزاً من كل ما دونه . .

تواضع واترك الزهو بنفسك والأمن من السقوط من قمتك!

إنَّ سقوط الذين بلغوا القمة الأسمى لخطب جلل ومؤسسة
عظيمة .

* * *

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

التضحية بإسماعيل

إبنك العزيز . .

ثمرة حياتك . .

متعتك وسبب بقائك . .

معنى وجودك . .

كلا! بل اسماعيلك . .

إطرحه أرضاً كما يُطرح الكبش ، وقدْمه قرباناً! . . .

أمسك بأطرافه تحت قدميك حتى لا يهرب! . .

أمسك برأسه جاذباً شعره بيديك ، وجز عنقه ، ثم ابق عليه تحت قدميك حتى تطمئن تماماً أنه بلا حراك . ثم . . إنهض ودعه لحاله! . .

آه أيها «المطيع» «العبد» الله هذا ما يريده الله منك . . هذا «نداء إيمانك» و «روح رسالتك» . . هذه هي مسؤوليتك . . . أيها الإنسان المسؤول ، يا ولد إسماعيل!

أمام إبراهيم خياران: أن يستجيب للوعة قلبه وـ «ينقذ»
إسماعيل . . .

أو يستجيب لأمر الله وـ «يصحّي» به . . .

لا بدّ من اختيار أحدهما: «الحب» أو «الحق» . . .

إنهم يتصارعان بداخله: «الحب الذي هو حياته، والحق
الذي هو إيمانه» . . .

لو أن الله تعالى طلب منه حياته نفسها لكان الأمر هيناً، فقد
جعل إبراهيم حياته في سبيل الله، ولهذا فهو يشعر أنه «مطيع»
للله . . .

إنّ شعوره هذا «أنانية» وـ «ضعف» . . .

ذلك أن الطيب الجميل عند أنس، يعدّ منكراً وقبحاً لرجل
في مثل مقام إبراهيم، ذلك لأن حسنت الأبرار سيئات
المقربين . . .

إنه الأقرب إلى الله . . .

(لاحظ نسبة الأخلاق في مدرسة إبراهيم، ويا له من فهم
جذ مختلف)^(١).

(١) يشير المؤلف إلى المقارنة مع نسبة الأخلاق في الفلسفة الغربية المعاصرة والتي تجعل الخيانة في بعض الأحيان فضيلة . الخ فهي نسبة انحطاط، عكس نسبة الأخلاق عند متصرف الإسلام.

يا إبراهيم .. تخل عن إسماعيلك !

شك ! ..

كم ذلك خطير وقاتل ! ..

النتيجة المتوقعة هي اللجوء للتفسير والتأويل ، ينشد عندهما مخرجا ..

وهذا يحدث حينما يكون القلب كارها بينما الإيمان عاشقا ! ..

وعندما تطلب من «حاملي المسؤولية» التخلص عن ابنه فإنه يفعل ، ولكنه أمر - في ذاته - بالغ العسر .. إنه يبحث عن وسيلة للفرار ..

إنَّ الأسوأ من «التأويل الخاطئ» هو «التوضيح السليم» الذي يتعمَّد ذكر حقيقة وإخفاء أخرى ! ..

والمحضية الكبرى عندما يلبس الباطل ثوب الحكمة ، ويرفعها سيفاً مسلطاً بيد ، ويمسك «الدنيا». كترس يحتمى به باليد الأخرى ! ..

ضُحْ بإسماعيلك ..

كيف أفهم هذا الأمر؟ ..

كيف أتيقن أن المقصود بكلمة «ضُحْ» ليس المعنى المجازي؟! (كأن يكون معنى «ضُحْ بروحك» بمعنى أن لا تكون عبداً لغرائزك واجتنب إغواءها!) ..

كيف أعرف أن الضمير في إسماعيلك لا يعود تقديره إلى أنا؟! ومن ثم أكون «أنا» محل استقبال الرسالة! ..

لماذا لا يكون هذا الأمر خطاب عام جاء في صيغة خطاب خاص؟!

كيف أعرف أن إسماعيل هنا يعود إلى إسماعيل وليس - كما أسلفت - مجرد معنى مجازي؟ ..

كيف أعرف - استناداً إلى رأي بلاجي^(١) - أن الكلمة إسماعيل في جملة «ضَحَّ بِإِسْمَاعِيلَكَ» ليست اسمًا جاء في موقع المفعول به، ولكن ذكر الم محل ويراد به الحال كما هو شائع في العربية ووارد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَنَشَّلَ الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَأَلْعَبَرَ﴾^(٢) والمقصود أسأل أهل القرية، فيكون معنى «ضَحَّ بِإِسْمَاعِيلَ» أي ضَحَّ من أجل حب إسماعيل ..

دعنا نفترض أن كل هذه التأويلات غير واردة، وإن الأمر المقصود هنا هو المعنى البسيط المباشر الذي يتadar إلى أي ذهن ..

ضَحَّ بِإِسْمَاعِيلَكَ ..

كيف أعرف أن هذا الأمر يجب أن ينفَذ حالاً؟! ..

الآن يوجد نطاق زمني محدد شأن كل قانون مكتوب؟ ..

(١) هذه تفسيرات تعود لبعض طرق علم البلاغة التي تشكّل أحياناً المعنى أكثر مما تتوضح.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

إنَّ ذلك هو دور الحكمَة في اختيار الوقت المناسب، مع الأخذ بالاعتبار التقديرات والظروف والسياسة والامكانيات والاحتمالات . . .

القرآن الكريم يأمرنا بالجهاد في سبيل الله، ولكن وقت الجهاد وشكله يعتمدان على التقديرات والظروف التي تأخذ بها الحكمَة . . .

مثال آخر من السُّنة المطهرة عندما تأمر بطلب العلم وتقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

إنها لا تفرض على أحد أداء هذا الواجب في وقت محدد حتى ولو قام بأداء هذا الواجب في الساعات الأخيرة من حياته، وهو على فراش الموت! . . .

الحج - أيضاً - يمكن أخذه كمثال للواجب على التراخي، وهناك الكثيرون الذين يؤجلونه سنة بعد سنة، وبعد أن يعيشوا حياتهم الطلقة، وعندما تقترب أيامهم من النهاية قد يقررون أداء هذا الواجب! . . فهذا واجب يمكن أن يؤدي في أي وقت.

هؤلاء المؤمنون يظنون أن هذه المسؤوليات تؤدي من أجل الحياة الآخرة وليس من أجل هذه الحياة الدنيا . . .

إنهم يحسبون أن شرائع الدين إنما جاءت من أجل اليوم الآخر وليس السبيل التي تنتفع بها هذه الحياة الدنيا ويترى بها

الإنسان ويرتقي بها نحو مدارج الكمال^(١).

وكيف أعرف استناداً إلى طرائق النظر - أن هذه الجملة: «ضَحْ يَا سَمَاعِيلَكَ» المقصود بها أمر واجب وليس مندوب؟ ..

أغلب الظن أن المقصود هو الأخير! .. ألا يشبه هذا الأمر الأمر الآخر الذي يقول ﴿وَءَاتُوا أَذْكَرَهُ﴾ حيث إن الجميع يجب أن يدفعوا للفقراء ما يستطيعون. أو الأمر كما في الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَنَّكُمْ بِالْبَطْلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَمَاءِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

فذلك فعل بغيض عند الله .. وهو أمر إرشادي جاء بالإيحاء ليذكرنا بما تهدينا إليه حكمتنا.

وإلى جانب كل هذه التفسيرات الحكيمية والمشروعة والاستشهاد بالأيات والقصص، والاستناد إلى معايير البحث العلمي ومقاييس العقل، ومن أجل كل الغايات الخيرة.. فإن قتل النفس هو ذنب ولا ريب، ولا يجوز للمرء أن ينسب مثل هذا المنكر إلى الله تعالى وهو أرحم الراحمين ..

* * *

وإذا صرفا النظر عن كل ما سبق من تفسيرات وتأويلات، يبقى مع ذلك واضحاً من هذا الأمر أن الله الرحمن الرحيم يريد أن

(١) ينتقد المؤلف في الفقرات السابقة واللاحقة مفاهيم وسلوكيات شائعة بين المسلمين ليست من الإسلام.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

يذكرك أن حبك لإسماعيلك لا يعني شيئاً، وأن التسليم للحق يوجب عليك التخلّي عن كل رغباتك التي كانت تحتوي تفكيرك وتحجّبك عن الصلة بالله ..

ومنذ أن أصبح حب إسماعيل شاغلاً لإبراهيم عن تحمل المسؤولية - ولو قليلاً - أمره الله أن يضحي بإسماعيل حتى يخلص تماماً لله^(١) ..

وكما أسلفنا فإن «ضُحْ بِإِسْمَاعِيلَ» تعني: (لا تعطي كل هذا الحجم وهذه المشاعر لحب إسماعيل) وهو المعنى الجوهرى ذاته الذي نجده في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٢).

نعم .. إنه اللجوء للتفسير، للبحث عن مهرب يستعمل عندما يكون قبول الحقيقة صعباً وعسيراً وعندما يكون تحمل المسؤولية أمر ينافق أحلام المرء وأمانيه ..

أما عندما تكون الحقيقة والعدل مجرد مشاهد على مسرح الحياة فإن الكثيرين سيتحدثون عن العدل وعن حقوق الإنسان، ولعلهم - في نصرتهم للحق والعدل الذي لا يمسهم - يعزّون أنفسهم بأنهم يقومون ببعض أعمال طيبة أثناء المسار الروتيني

(١) يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْخِذُ مِنْ دُرُنَ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجْهِزُهُمْ كُتُبُ اللَّهِ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا أَسْئَلُهُمْ جَبًا يَقُولُونَ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٦٥ .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

لحياتهم السعيدة وهم يديرون أعمالهم دون تعكير أو اضطراب! ..

إن الحقيقة والعدل عندما يتواافقان مع الحياة ويتسقان مع خطها المعتاد فإنهما يستعملان كرأسمال وأداة ووسيلة للشهرة، وكسبيل إلى منصب ومرتبة ورخصة للحياة! ..

في هذه الحالة لا يكتفي الناس بالحديث عن العدل، بل يعتقدون إلى جانب ذلك أنهم صالحون باستعدادهم لبذل خدماتهم للأخرين! ! ..

أما عندما تصطدم الحقيقة والعدل بمسار حياتنا اليومية، ويصبح أنصار الحقيقة والعدل في مأزق وخطر، وأنه على «الصالحين» تحمل أعباء ثقيلة من المسؤولية.. عندما يظلم الطريق ويأتي الليل بعواصفه المحمّلة بالمخاطر والمهاوي.. حينئذ تفقد الحقيقة والعدل أنصارهما، فيعزّ الرفيق إلاً من فئة قليلة، وقد يسir الإنسان - في بعض الأحيان - وحده وليس معه أحد.

وعلى الأنصار أن يتركوا وراءهم كل عائق ويتجاوزوا كل العقبات مهما عظمت، خاصة أولئك الذين يعيشون في ظلمات الظاهر حتى كادت فطرتهم أن تنطمس.. .

* * *

إن الله الرحمن الرحيم يأمرك بالتضحية بحياتك وبحبك كي تمضي على سبيله، ولكن إغراءات الشيطان تشده إلى الركون إليها وابتاع سبليها.. كيف؟! .. بالтирيرات! تلك التبريرات التي تحرر إيمانك حتى يتواافق مع مطالب الدنيا.. وعندها لن يصمدك أحد

بالكفر أو بالعصيان أو مخالفة الناس ! ! ..

هنا التبريرات تكون حقاً أريد به باطل ! . .

إنك تخلع عليها ما تشاء من الأسماء: المجتمع . .
الأخلاق . . العلمية . . النفسية . . الجدلية . . التفسير العقلاني . .

ليس ثمة فرق بين كل ذلك ! . .

لكن في الحج وفي سيرة حياة إبراهيم - ذلك العظيم الذي
انتصر في كل المحاكمات، والأمين الذي أخلص وجاحد وناصر
الحق والعدل على إطلاقهما - فقد سمي الله تعالى التبريرات فيها:
إغواء الشيطان . .

لقد أضعفت التساؤلات حكمة إبراهيم الواضحة القوية :
كيف أستطيع أن أعرف ؟ . . كيف يكون ذلك ؟ . . لقد
وصلتني الرسالة عن طريق الرؤية فقط ! . .
هكذا كان يقول . .

وكان الشيطان يضرب على أوتار حب إبراهيم الشديد لابنه،
ويدخل إليه من موطن الضعف هذا، جاعلاً إياه وسيلة معقولة
للهروب ! . .

كانت هذه هي المرة الأولى : الجمرة الأولى . . وقد رفض
إبراهيم أن يضحي بابنه. «يا إبراهيم يجب عليك أن تصحي
بابنك ». .

الرسالة هنا أوضح وأجلى . .

الصراع يحتمد في صدر بطل التاريخ بسبب إغواء إبليس،
وإذا بإبراهيم يشعر بالضعف والشك والخوف والهزيمة في الصراع
بين الله والشيطان.

* * *

في عمق الجبنة البشرية يوجد تضاد بين الحب والحكمة..
بين الحياة والإيمان.. بين أن تكون في سبيل ذاتك وأن تكون في
سبيل الله..

هذه هي طبيعة الإنسان . . .

ظاهرة تقع بين الروحانية والحيوانية.. بين الدنيا
والآخرة.. بين الغريزة والحكمة.. بين السماء والأرض.. بين
حب النفس وحب الله.. بين الواقع الجاهلي والحق.. بين الكفاية
والكمال.. بين الاستعباد والتحرر.. بين التسبيب والمسؤولية..
بين الكفر والإيمان.. بين في سبيل الأنما وفى سبيل نحن..
وأخيراً: بين من أنا وما يجب أن أكون.

* * *

اليوم الثاني وإبراهيم يرجح في ميزانه حب ابنه على مسؤوليته
 أمام الله.

«حياة إسماعيل في خطر»

هكذا يوسر الشيطان لإغواء إبراهيم، وكما أضل آدم
ودفعه ليأكل من الشجرة المحرمة في الجنة، وكما هو شأن الإنسان
- أي إنسان - فيه جدلية المكونات: الطين والروح ..

إبراهيم كذلك في شك : أيختار ابنه أم الرسالة .

﴿فَأَلْمَهَا جُوَرَّهَا وَنَقَوَنَهَا﴾^(١) .

* يا نبى الله إن الرسالة هي مسؤوليتك ..

* يا نبى الله هل تريد أن تكون أباً لابنك؟

* هل يجب علىي أن أضحي بإسماعيل بيدي هاتين؟

* نعم !

* نعم ! يجب أن أضحي بابني في سبيل الله ..

إنَّ قهر العاطفة لا يرقى لعظمة عقيدتي ..

هل يجب أن أبقى أباً لإسماعيل ، أم أمضي في طريقي حاملاً
الرسالة؟ (الشيطان يحاول مرة ثانية) .

* لقد بلغتني هذه الرسالة في الرؤيا ، فكيف تكون
حقيقة؟ !

هذه هي المرة الثانية التي يرفض فيها إبراهيم التضحية بابنه
هذه هي الجمرة الوسطى .

«يا إبراهيم ضعْ بابنك إسماعيل»

لقد جاءت الرسالة هذه المرة واضحة جلية تستعصي على كل
طائق التبرير العقلي . . . إنه بلا خيار ، فالنداء بين كما الأبيض
والأسود . . .

(١) سورة الشمس ، الآية : ٨.

والشيطان بكل مهارته وذكائه لن يستطيع أن يفعل أي شيء
للتشويش عليه .

وإنكار الرسالة يعني طاعة الشيطان .

* * *

إبراهيم الآن على حافة واد سحيق ..

هل أزفت ساعة سقوطه؟! ..

هل يجوز ذلك على إبراهيم الذي كسر الأصنام؟! ..

ذلك الرسول من أولي العزم .. قائد الأمة ومُرسخ الإسلام
يسقط من بهاء ذرورة التوحيد إلى هاوية الشرك السحيق .. ليس كفراً
ولكن إيماناً بالله عديدة تبعد مع الله!!! ..

القرآن الكريم يصف إبراهيم واقفاً في (منى) بين أمر الله
تعالى ووسوسة الشيطان ..

إنه لا يستطيع أن يستجيب لكتلهم، ولا يستطيع أن
يتجاهلهم ..

يا لها من قصة مرؤعة!! ..

رجل هو خليفة الله ... تخلّق بأخلاق السماء .. يستطيع أن
يفعل ما يشاء . يستطيع أن يحكم كل العالم .. هنا ما أضعفه! وما
أعجزه!

فيه روح الله، لكن مع ذلك يحمل ضعفه بين جنبيه :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحْفِظَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ^(١).

في هذه الدنيا لا أحد بمأمن من السقوط مثل الطفل الذي أقدم لتوه على تعلم المشي ! يجب أن يكون يقظاً حتى لا يسقط ..

لقد كاد أن يسقط ، وإذا سقط فلم يعد بريئاً من الشرك :

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِيَجْتَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٢).

على مشارف النهاية في حياته يعيش إبراهيم ذلك الأب .. نبي (الإسلام العظيم) ، ذلك المتحلى بروح الإنسان وحب الله .. سيق إلى حافة الهاوية بسبب حبه لابنه إسماعيل .. بعد أن ظل نصيراً للحق ، مؤمناً ، صادقاً لمئة سنة خلت ، يكاد يسقط في شرك الشيطان .

«يا إبراهيم ليس لك خيار ، أمر الله عن يمينك ووساؤس الشيطان على يسارك ، أيهما ستختار؟! ...».

الآن ليس هناك ارتياض في الرسالة ..

* * *

إنَّ الباحث عن الحقيقة لا يكاد يخطئ السبيل كالنحلة التي تجد طريقها إلى بيتها في الدجى الدامس وسط العواصف الهوج في عمق الصحراء أو في شعباب جبل ناء بعيد .

(١) سورة النساء ، الآية : ٢٨.

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٦٥.

كلا يا إبراهيم إن الذي عاش حياته الطويلة كلها أهل للثقة،
ينبغي ألا يكون ضحية لأحابيل الشيطان.

إنَّ قبول الرسالة مثل القفز فوق النار، والشيطان هو العدو
الذى يتظاهر بمحاولة إطفائها، ولكنك - بنظرك المحجوب برغبات
نفسك - لا تستطيع أن تحدد من هو العدو ومن هو الصديق استناداً
لتظاهره هذا؛ إذ إن هذا الحكم ينبعى أن لا يُبنى على رغبات
النفس.

كان جلياً لإبراهيم ما الذى يجب عليه أن يفعله، ولكن ربه
وشكوكه السالفة كانت وليدة حبه الشديد لإسماعيل..

والد مسكون . . طاعن في السن . . ظل يتضرر ابناً على يأس
ولسنوات، ولكن جاءه أمر أليم، ممض في الألم . .
آه . . يا لها من مأساة مرؤعة ! . .

كانت مسؤولية إبراهيم فوق احتمال الشيخ الكبير والأب
الوحيد الذى يتعيَّن عليه أن يضحي بابنه . . وقد يكون هذا الأمر
مريراً ويسيراً.

ولكن لا . . إسماعيل الصغير هو الذى يموت، ويبقى الأب
المسنَّ وحيداً . . حزيناً . . بيديه الباليتين وقد ضرَّ جثثهما الدماء . .
عندما يفكِّر إبراهيم في الرسالة، فهو على تسليم مطلق
بها . .

ولكن حينما يفكِّر في التضحية بوحيده إسماعيل، يغمره

الألم الهائل الذي يفوق الاحتمال.. الألم الذي يفت في عضده
راسماً في وجهه ملامح الأسى العميق..

إن الشيطان حين ينظر إلى إبراهيم وهو في هذه الحالة من
الشقاء يعمل على خداعه مرة أخرى..

إن الشيطان هو العدو المبين للإنسان؛ فمهما تكن الحالة
وعلى أي نحو تكون فإن الشيطان يشرع في مزاولة مهمته القدرة.

إنه يلهيك حتى يقينك بعيداً عن أداء واجبك، ومن ثم تبقى
حقيقة الرسالة بمنأى عن الإدراك.

* * *

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَزْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(١)

لقد كان حب إسماعيل بمثابة امتحان لإبراهيم؛ إذ هو ضعفه
الوحيد عندما يواجهه إبليس..

لقد عرف إبراهيم أن الرسالة الموحية واضحة، وأنه لا بد أن
يضحى بابنه، وغدا حزيناً مكسور القلب..

ومن هنا تستـَـت الفرصة للشيطان في التسلل إليه لخداعه بعد
أن أحسـَـ بتلك الحال؛ فظهر أمام إبراهيم هاماً بذات
الوسواس^(٢):

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٢) الشيطان ليس له منطق مختلف، لكن يردد نفس الأثناء، بصور متعددة ووسائل
متغيرة. (المؤلف).

لقد سمعت هذا الأمر في الحلم
كلا إن ذلك كافياً . إن ذلك كافياً (هكذا يحدث إبراهيم
(نفسه)

لقد اتخذ قراره، وأضيق اختياره قاطعاً: محض الحرية في
طاعة الله .

(محض الحرية في التضحية بإسماعيلك)

لقد انزاحت العقبة الأخيرة التي كانت تحجب طريق إبراهيم
عن حريته . . .

لقد فر إبراهيم أن يشرك ابنه في تلقّي الرسالة، ومن ثم
دعاه . . جاء إسماعيل . فنظر إليه أبوه من رأسه إلى أخمص
قدميه :

إنه الضحية والفداء العظيم

* * *

الحوار بين الأب والابن

في ركن قصي بمنى وقف إبراهيم يتحدث إلى ولده . . .
 الأب وقد اشتعل رأسه ولحيته شيئاً بعد حياة امتدت لمئة
 سنة . . .

بينما إسماعيل فتى يافعاً في بوادر الشباب . . .
 إنَّ سماء الجزيرة العربية - بل سماء الدنيا بأسرها - لتنوء
 بحمل رهبة هذا المشهد . . .
 إنَّ التاريخ لم يستجل أبداً - من قبل - مثل هذا الحوار بين
 أب وولده . . .

بل إنه لم يخطر على قلب بشر قط مثل هذا الحوار، بالغ
 المودة، وهو مع ذلك بالغ الهول . . .

* * *

في البداية استعصى على إبراهيم فتح فمه لسرد القصة على
 ولده :

(إنني هنا لأضخبي بك بيدي هاتين)

وأخيراً استعاد إبراهيم الثقة بالله وقال:

﴿يَبْتَئِلُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(١)

كانت كلماته سريعة خافته مما استطاع هو نفسه أن يسمعها..
ثم غلب عليه الصمت وقد شحب لونه من الفزع صارفاً بصره غير قادر على النظر في عيون إسماعيل.

كان إسماعيل يدرك مقدار ما يقاسيه أبوه؛ فجاءت كلماته تعبر عن المؤاساة:

(يا أباها كن مطيناً الله، ولا تتردد في التنفيذ، وستجدني إن شاء الله كذلك مطيناً، وبعونه تعالى سأتحمل ذلك):

﴿يَأَبَتِ أَفْعَلَ مَا تُؤْمِرُ سَتَحْدِدُنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

لقد وضع إبراهيم ثقته كلها في الله وهو يزداد خوفاً..
اتخذ قراره ونهض ممسكاً بسكتنه يحاول شحذها على قطعة حجر ..

هل يستطيع أن يفعل ذلك بابنه الذي أحبه كل هذا الحب؟!
إسماعيل ذلك الفتى الشجاع الذي تقبل أمر الله يبدو هادئاً مطمئناً، وكأنه ليس مقدماً على أمر جلل.

وابراهيم ذلك المحب الصادق لله حطم مشاعر «الأن» جاعلاً توكله أولاً على الله وحده.. ها هو يأخذ الضحية الصغيرة إلى

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

محل الفداء، ويطلب منه أن يضطجع على الأرض.. ثم يمسك برجليه ويجدب إليه شعره دافعاً رأسه إلى الخلف حتى يتمكن من رؤية أوداجه..

(باسم الله).. وضع إبراهيم السكين على عنق إسماعيل، ومضى ليقطع بأقصى ما يمكن من سرعة..

لقد حاول الشيخ المسن أن ينهي الأمر في لحظات.. لكن: ما لهذه السكينة لا تقطع؟!.. إنها تؤذني! آه.. يا له من عذاب!.

إبراهيم يزار كالأسد الجريح، وقد اشتد به الفرق: أو لست أبا!.. وسرعاً يلتقط السكين ليحاول مرة أخرى..

بقي إسماعيل - كل هذه الأثناء - هادئاً في طمأنينة لا يتحرك البتة..

قبل أن يعاود إبراهيم الكراة، ظهر فجأة الكبش حاملاً الرسالة:

إنَّ الله لا يطلب منك التضحية بإسماعيل..

إنَّ هذا الكبش مرسل إليك فدية له..

لقد أطعت الأمر يا إبراهيم..

الله أكبر والله الحمد..

إنَّه درس علمه الله الرحمن..

منذ الآن ولاحقاً لن يضحي بإنسان كقربان الله..

تلك كانت منسكاً لعبادة الله..

في دين إبراهيم يقدم الكبش فداء وليس الإنسان..

هناك درس آخر عظيم : ذلك أن إله إبراهيم منافق لبقية الآله الأخرى من دونه التي تتلمظ جوغاً لأكل لحوم البشر .. إنه ليس متعطشاً للدماء شأن الآلهة الأخرى ..

ما أجمله من درس ! ، وما أعظمها من معنى !! ..

إن الله لا يريد لإسماعيل أن يذبح، ولكن يريد من إبراهيم أن يذبح إسماعيل ، وقد فعل وأطاع أمر الله في شجاعة كاملة ! ..

كذلك كان إسماعيل جديراً أن يختار للدفاع ، وقد استحق النجاة بعد أن استسلم في حلم وصبر جميل ، ومن ثم فلا حاجة لأن يقتل ..

إن الله الرحمن الرحيم ليس محتاجاً سبحانه ، بل نحن البشر الذين في حالة الحاجة الدائمة إليه في كل شيء .

* * *

تلك كانت مشيئة الله العلي الكبير ، وهو أرحم الراحمين ..

لقد رفع الله إبراهيم وكرمه إلى مرتبة الاستعداد للتضحية بإسماعيل دون أن يقتله حقيقة .. وكذلك رفع إسماعيل وكرمه ليكون ضحيته وقرباناً له دون أن يلحقه أذى .

هذا هو دين إبراهيم : الإسلام .

إنه ليس تلك القصة التي تحكى عن الإله المتعطش للدماء^(١) .. الإله المازوشست الذي يعشق تعذيب الإنسان .

(١) يشير إلى قصة الأب الروحي (God Father) عن الترجمة الإنجليزية .

إنها قصة كمال الإنسان وتحرره من الأنانية والغرائز الحيوانية، وسموه إلى آفاق النفوس الشريفة والحب والرحمة.. إلى تلك الإرادة القوية التي تحرره من كل شيء قد يعيق مسؤوليته كإنسان ذيوعي..

تلك الإرادة التي تدفع صاحبها أن يضحي بنفسه (إسماعيل) ويصبح من ثم شهيداً.. وأخيراً ليكون مثل «إبراهيم» ذلك الشيء الذي لا نجد له تعبراً في القاموس! ..

* * *

هذه القصة تنتهي بالتضحية بكبش! . . .
هذا هو ما يطلبه الرحمن في خاتمة هذه المأساة الإنسانية العظيمة..

التضحية بكبش حتى تطعم به عدداً من الناس الجوعى.
مثل إبراهيم.. يجب عليك أن تختار إسماعيلك وتتأتي به إلى (منى)..

من هو إسماعيلك..؟

لا بد لك من معرفة ذلك، وليس ثمة حاجة لآخرين أن يعرفوا... .

قد يكون: زوجتك.. وظيفتك.. موهبتك.. الجنس..
السلطة.. المال.. الخ.

أنا لا أدرى أيهم.. لكنه ذلك الشيء الذي يقع منك في

موقع عزيز عزة موقع إسماعيل لدى إبراهيم ! .

إنَّ بعض سمات إسماعيلك وعلاماته تجدها في كل ما يأخذك بعيداً عن حريتك ، وفي كل ما يتوقف بك عن أداء واجبك ، وفي كل متعة تعطيك السلوى ، وفي كل ما يضم أذنيك ويمنعك عن معرفة الحقيقة ، وفي كل ما يقنعك بالتعقل من قبول المسؤولية ، وفي كل الذين يبذلون لك العون لأنهم يتوقعون منك العون في المستقبل

يجب أن تبحث حتى تجده في حياتك وتحدهه . . .
إذا كنت تريد القربى إلى الله ، لا بدَّ لك من ذبح إسماعيلك عند (منى) .

لا تختار الكبش (فدية) بنفسك ، ولكن دع الله تعالى هو الذي يعينك ويمدك به هبة وجاء ، لأنَّ هذه هي الطريقة التي يتقبل الله بها الكبش أضحيه . .

فالفداء هو أن يقدم لك الكبش بديلاً عن إسماعيلك . .

أما أن تصحي بالكبش وأنت لا تنشد من وراء ذلك إلاَّ
الأضحيَّة فهذه مجرد ذبيحة^(١) .

* * *

(١) وكان شريعتي يقول سائلاً: هل هذا الكبش الذي نذبحة هو الذي اختاره الله لك بديلاً عن إسماعيلك ، الذي يجب أن يكون بدوره أعز ما تملك في دنياك ، لأنَّ إسماعيل عليه السلام كان ابن إبراهيم وأهله . فهل هذا الكبش الذي تصحي به أتى استبدالاً من الله سبحانه لإسماعيلك الذي كنت على أتم الاستعداد للتضحية به قربة الله وحده؟ . .

رموز التثليث الأصنام الثلاثة

تذكر أنَّ الأصنام الثلاثة في (منى) تمثل الشيطان الذي حاول أن يغوي إبراهيم.

هل بالضرورة على كل إنسان أن يخوض غمار تجارب ثلاثة حتى يحرر نفسه من كل أنماط الاستعباد؟

إنَّ الواجب يدعوه إلى نكران الذات حتى يهزم الحالة الحيوانية التي تجسدها عبادة الذات، ويرتفع إلى مقام إبراهيم جاعلاً كل عمله خالصاً لله.

ألا ترى أن هذه الأصنام الثلاثة تقف على النقيض من فصول الحج الأكبر الثلاثة؟

الجمرة الأولى : عدو عرفات

الجمرة الثانية : عدو المشرع

الجمرة الثالثة : عدو مني

أليست هذه الأصنام الثلاثة هي تمثيل لقوى الشيطان المتسلط والذى يرقد في مكمن ويتربص بالإنسان الدوائر ليقطع الطريق إلى ملة إبراهيم؟!

ولكن ما الذي تفعله هذه الشياطين الثلاثة على وجه التحديد؟

إنها تبدل الرسالة وتمسخها ..

في صعود الإنسان نحو الوفاء بمسؤوليته تقوم قوى الشر - لتعوقه - بمحاجمته عبر ثغرة ضعفه ..

هناك دلالة أخرى تجعل معرفتنا بهذه الأصنام الثلاثة أفضل وهي :

الحقيقة التي يمثلها وجودها مستقلة عن بعضها، وكل منها له هوية خاصة به .. هوية متميزة، ولكنها رغم ذلك مشدودة إلى بعضها بأواصر «الصداقة» والعمل المشترك ضد الإنسان ..

وبعبارة أخرى : فإن الأصنام الثلاثة المفردة تمثل شيطاناً واحداً.

الموجود أمامنا جوهر واحد بثلاثة أوجه، أو ثلاثة أوجه من أصل واحد ..

وهذا بالضبط هو معنى التثلث! ..

توضّح الأمثلة الآتية هذا المفهوم :

في اليهودية : تجد الأقانيم الثلاثة كما وصفها فيلون^(١).

في المسيحية : تجد الأب والابن والروح القدس !

في اليونانية : تجد الوجوه الثلاثة في رأس واحد !

في الهندية : تجد الويشنو أيضاً بوجوه ثلاثة في رأس واحد !

في الهندوسية^(٢) : تجد المينو ذو الأجزاء الثلاثة الرأس والجزع واليد .

في إيران القديمة : تجد أهورا، مزدا، والنيران الثلاثة التي تسمى غاشتسب، . واستخر، وبرzin مهر . . .

وفي مكان آخر : المخلص ، وظل الله ، وعلامة الله .

* * *

ما هو الشرك ؟

إنَّ الإيمان المؤسس على شؤون الدنيا . وفقاً للفلسفة المادية

(١) فيلون : (نحو ١٣ ق. م - ٥٤) فيلسوف يوناني يهودي الأصل . ولد في الاسكندرية . حاول أن يشرح الدين بتعابير الفلسفة اليونانية الأفلاطونية . عمل على تطبيق الطريقة الرمزية على نصوص التوراة . له تأثير كبير على آباء الكنيسة الشرقية وال فلاسفة العرب كأفلاطون مثلاً . «المصحح» .

(٢) الهندوسية : ديانة معددة وموحدة ، فهي تجعل لكل ظاهرة طبيعة إليها ، جمعت كل الآلهة في إله واحد أعطته ثلاثة أسماء . بrahaman أي الواحد ، وفسنور أي الحافظ ، وشينا أي المهلك . وهي فلسفة حياة أكثر منها عقيدة ، وهي ديانة للغالبية من الهندو . «المصحح» .

الاشتراكية العلمية^(١) ..

إنَّ الشرك هو ذلك النظام القائم على مادية ذات بناء فوقى متافق مع بناء تحتى هدفه إفساد الإنسان ووعيه الذاتي .

وهذه النظرية إن كانت صالحة للتطبيق على الشرك فلا يمكن تطبيقها على التوحيد؛ فمفهوم التوحيد يتناقض جذرياً مع مفهوم الشرك، ومن ثم فإنهما لا يمكن أن يقودا إلى أصل واحد أو أن يؤديا نفس الوظيفة . وعبر التاريخ ظل الصراع قائماً بين العقائدتين : التوحيد ضد الشرك .. إلا أنه وعبر تمثيلهما الاجتماعي اختلط المفهومان - لسوء الحظ - وتسنى للشرك أن يلبس قناعاً للتوحيد، ولأمد بعيد ..

* * *

في الأصل كان ثالوث المسيحية توحيداً^(٢) .

وبالمثل كانت الديانات الهندوسية والمزدكية .. كلها ترجع إلى إله واحد.

ومن الجائز أن نجد حجة إذا قلنا أن التوحيد هو أصل كل العقائد، ولكن التاريخ وتأثيرات النظم الاجتماعية قد أحدث

(١) أي الفلسفة الماركسية الفاشلة، وللمؤلف عدة أبحاث خصصها لنقد الفكر الماركسي . وهو هنا لا يخص الماركسية وحدها بالشرك ولكن كل مذهب يحارب الله أو يشرك منه آلهة أخرى كما سيأتي .

(٢) وذلك كما علم السيد المسيح تلاميذه (المؤلف) .

التحول الفذ الجماعي بالمجتمع الأول، حتى صار أجناساً مختلفة وطبقات مختلفة وأمماً مختلفة، ونتج عن ذلك تبدل التوحيد إلى الشرك.

لقد خلف آدم عليه السلام ابنان هما: قابيل وهابيل . . .

هابيل هو ذلك المزارع المسكين الذي قتله أخوه الثري صاحب الأراضي، ومنذئذ لم يسمع أحد بموت قابيل !

هذا يعني أن خليفة آدم كان قابيل ذلك الكافر المغتصب البخيل القاتل . . ذلك الابن الذي لا يستحق مثل هذا الأب .

وعبر التاريخ كان أبناء قابيل هم حكام البشرية، حتى بعد أن تغيرت المجتمعات واتسعت وأصبح النظام أكثر تعقيداً، وبعد أن نشأت التقسيمات والتصنيفات والتخصصات قام قابيل الحاكم أيضاً بتبديل وجهه :

في مجتمعاتنا المعاصرة يختفي وجه قابيل خلف السياسة والاقتصاد والدين . . فهو يحتفظ بقوته النافذة المتميزة في هذه القواعد الثلاث .

لقد أسس قابيل قوى التسلط الثلاث الكبرى وهي :
الطغيان . . الشروة . . النفاق
 والتي تولد عنها :
 القهر . . والاستغلال . . وفنون غسل الدماغ .

هذه القوى الثلاث وصفت أحسن وصف في دين التوحيد :

فرعون^(١) : رمز الطغيان

قارون^(٢) : رمز المال

بلעם^(٣) : رمز النفاق . . .

أما الشرك فهو يعبر عن المقامات الثلاثة في نظامه ذي الأبعاد
الثلاثة «التثلث» بالأب والابن والروح القدس .

إنهم يدعونك لتعبدهم من دون الله . . .

لا تنس أنك في مقام إبراهيم !

هم يريدونك أن تظل على حب إسماعيلك حتى يجدوا ثغرة
ينفذون منها ليخدعوك أو يربكوك أو يغتصبوك أو يبدلوا قيمك
ورؤاك ، ومن ثم يقودونك إلى الضلاله .

* * *

أيها الحاج . . أنت الآن بمنى . . إرم ! لقد جئت بإسماعيلك
إلى محل الفداء . .

كما رمى إبراهيم الأصنام الثلاثة وأسقطها أرضاً . . أنت يا

(١) فرعون: إسم أطلق على حكام مصر الأقدمين. نسبة إلى «رع» إله الشمس كبير الآلهة عند المصريين. وقد ذكر فرعون في القرآن الكريم.

(٢) قارون: من أثرياء العبرانيين في أيام موسى. اضطهد موسى فذهب الله بثراته. ذكر في القرآن. هو قورح في التوراة.

(٣) بلעם: عزاف أرسله ملك مذاب (ابن لوط) ليلعن إسرائيليين، فبارك ولم يلعن.
«المصحح».

من اتبعت إبراهيم وصرت جندياً في جيش التوحيد، حطم هذه الأصنام الثلاثة ..

عندما تشرق شمس اليوم العاشر من ذي الحجة إنطلق مع بقية الجيش وعليك ملابس الإحرام .. يستيقظ في المشعر الحرام واعبر حدود منى ، وفي أثناء الهجوم الأول إرم الصنم الأخير .. إنه الأخير الذي ينبغي أن يرجم في البداية ..

فرعون ..

قارون ..

بلעם ..

إنها الأشكال الثلاثة المكونة لقوة قabil .. إنها وجوه الشيطان الثلاثة ورمز التثليث ..

إضرب فرعون: ذلك معناه ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾^(١).

إضرب قارون: ذلك معناه (المال مال الله).

إضرب بلעם: ذلك معناه (إن الدين كله لله).

إعلم أن الناس إنما هم خلفاء الله في الأرض، وأنهم «عيال الله» وأن ميراث هذا العالم سيؤول للمتقين وحدهم:

﴿إِنَّ أَكْثَرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْئَدُكُمْ﴾^(٢).

(١) وردت في أكثر من سورة: الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، ٦٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وإن مسؤولية الفرد ليست قاصرة على ما يفعله فحسب، وإنما أيضاً على ما يفعله الآخرون:

﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعَصْمِهِمْ بِيَغْرِي لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾^(١).

* * *

إنك قد تتساءل: أي هذه الأصنام الثلاثة يمثل (فرعون) رمز الطغيان؟ . . .

وأيها يمثل (قارون) رأس المال ورمز الرأسمالية؟ . . .

وأيها يمثل (بلعم) رمز النفاق؟ . . .

إن كل من يحمل في صدره الوعي الإبراهيمي سيصدر عن تصوره الخاص في تحديد ذلك، وعن مناهجه التي يطرحها للتغيير الاجتماعي، وعن مسؤوليته القائمة على الظرف السياسي الاجتماعي الذي يعيش فيه مجتمعه . . .

قد يعتبر الصنم الأخير هو:

فرعون . . لأولئك الذين يهتمون بالسياسة، ويعيشون تحت وطأة القهر والحكم العسكري والفاشية .

قارون . . لأولئك الذين يهتمون بالاقتصاد، وينظرون إليه باعتباره البناء الذي أسس عليه المجتمع .

بلعم . . لأولئك المثقفين الذين يعتقدون أن التغيير

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

الاجتماعي لا يمكن أن يقع إلا إذا قام كفاح أصيل ضد الجهل، وضد بؤس العقل، وضد كل ما يجعل الناس يتعلقون بأنماط الشرك التي تخفي تحت غطاء التوحيد.

في رحلتي الأولى والثانية إلى الحج كنت أعتبر أن الصنم الأخير هو (بلعم)، وكانت رصاصتي تنطلق بهذه النية، وخاصة عندما وجدت أن ذلك يتفق مع ما جاء في الآية الكريمة:

﴿أَنْهَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَفَعْتُهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُوْبِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ^(١).

إن الله تعالى يدين الطغيان والجهل والنفاق، ويكشف أولئك الذين يدعون «قادة روحيين» بينما هم - بوعي منهم أو دون وعي - يضللون الناس بدلًا من هدايتهم ..

إن الله غاضب عليهم؛ إذ يقول عنهم:

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ ^(٢)

ويقول عنهم أيضًا:

﴿فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَتْ﴾ ^(٢)

هناك دليل آخر على نيتها، وهو تلك الكلمات القوية التي خاطبنا بها الله سبحانه في سورة الناس آخر سور القرآن الكريم ..

(١) سورة التوبه، الآية: ٣١.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

في هذه الآيات يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ وهو الذي أنيطت به مسؤولية القيادة العظمى لمسيرة الإنسانية الحرة.. . ومع ذلك يحذره الله تعالى من ثلاثة مخاطر ليس هو بمحاجة منها، ومن ثم فلا بدّ له أن ينشد «الملاذ» عند الله

في تلك السورة اختص الله تعالى ذاته بأسماء ثلاثة؟

الرب.. الملك.. الإله

وهي نفس الخصائص الثلاث التي يجهد الشيطان دائمًا في خلعها عليه، ولكن في هذه الآيات نجد لها من صفات الله تعالى وحده . . .

وها هو إنسان مثل النبي محمد ﷺ يُرْشَد إلى نشدان الملاذ عند: الرب الملك الإله. ما الذي ينبغي أن يحتمني منه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ . . .

إنه خطر الخناس: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ أَلَّذِي يُوَسِّعُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(١).

في منى - حيث حاول الشيطان إغواء إبراهيم - فإن الصنم يمثل «الخناس» الذي يقوم مقام القيادة الروحية، وبيع إيمانه مقابل الثروة والمال، وهو كذلك الذي يبيع معرفته أو ذكاءه العلمي!

(١) سورة الناس، الآيات: ٤ - ٥.

القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن ما فعلته هذه الفئة من الناس، هو أشد ما عرفه التاريخ البشري من تدمير وتفتت لعرى الوحيدة الإنسانية، وتضليل الأدմيين وإذكاء لأوار الفتنة العنصرية، حيث كان الناس - من قبل - أمة واحدة تعيش في كف السلام والتكافل ..

وهي نفس الفئة التي تزعم أنها المسؤولة عن الحكم والقيادة الروحية للناس، وبينما هم يدركون تماماً ما تحمله نفوسهم من حسد للأخرين وحقد وقسوة عليهم وخيانة لهم: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَحْدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَعْلَمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا أَخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَعْنَاهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ إِلَيْذِنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

* * *

لكن .. .

الحج له دلالات أكبر بكثير مما يمكن أن يستوعبه عقله ويتفهمه.

كل مرة أذهب فيها إلى الحج أشعر أن معرفتي قد ازدادت وأن رحلتي التالية ستكون تكراراً لما عرفت ..

لكن .. لدهشتني فإن توقعني لا يصدق ..

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

وأنت أيها القارئ العزيز لا تحسين أن ما قلته لك هو كل ما ستعلمه من تجربتك مع الحج أو أثناء أداء المناسك ..

كلا، كلا، كلا!!

إنَّ هذا ليس كتاباً يصف لك شعائر الحج .. بل هو مجرد مثيرات لتجعلك تفكَّر ..

هذا الكتاب هو نتاج قدرتي المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزي معجز، حيث أن المهيمن على خشبة العرض هو المهيمن على الكون الكبير ..

بوضوح: لقد حاولت أن أصبَّ البحر في إناء!!!

في كل مرة أذهب فيها إلى الحج أحاول أن أقيِّم بعض ما استنبطه من مرئي السابقة، وذلك حتى أستكمِّل تفسيراتي، ولكنني أكتشف مع ذلك فصولاً جديدة وغيَّراً جديدة ..

في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى الحج كنت أسائل نفسي: لماذا أحَاوَلْ أن أحدد ما لم يحدده مدبر العرض؟!

هل من الضرورة أن أعرف كل صنم؟

لقد فعل ذلك مدبر العرض؛ إن غياب التعريف هو في حد ذاته تعريف ..

أليس صحيحاً أن الأصنام الثلاثة تمثل واحداً بينما كل منها على حدة يمثل ثلاثة؟

إنَّ تمييز الأصنام الثلاثة يحدد القوى الثلاث المرتبطة

بعضها، وإن غياب الهوية يدل على أن أي واحد منها يختفي في داخله الأثنان الآخران، ومن ثم حين ترمي أحدها يجعل نيتك رميها جميعاً . . .

لكن بعد كل ذلك فإننا بعقولنا البسيطة وعبر تفسير أهل الذكر من الناس كل مرتكز إلى حقله المعرفي واهتماماته، تجدنا نلجأ دائمًا إلى التصنيفات من قبيل: الاجتماعي، والفلسفي، والتاريخي . والنفسي . . .

أما مشروع الحج - سبحانه - الذي يعلم أنه ما من ثقافة أو حضارة في أي حقبة من الزمان وعبر أي نظام أو بنية اجتماعية أو طبقة أو علاقات اجتماعية، فإن كل واحدة من القوى الثلاث تكون في موقع سدة الحكم بينهما القوتان الآخريان يدعمانها، . وعندما ترمي واحدة تفتح الأبواب للنصر وتبدأ احتفالك بالعيد! . .

إذاً عندما تبلغ (مني) محملاً بذخيرتك عليك أن تهاجم وقتل الصنم الأخير . . .

بعض النظر عن المكان الذي أتيتم منه: من مجتمعات رأسمالية متقدمة . . أو مجتمعات عتيبة مظلمة متخلفة . . أو أنظمة فاشية ديككتاتورية . . أو مجتمعات حكم الفرد . . فإنكم جميعاً ترمون نفس الصنم، . لكن التوايا تختلف وتنعددا!

الصنم الأخير يدعم الصنمين الآخرين . .

(فرعون) يعطي المشروعية للنهب الذي يزاوله (قارون) . .

(قارون) يدعم (بلعم) بماله ..

(فرعون) يدعم (بلعم) بسلطانه ..

(بلعم) يقوم بربط سلطة (فرعون) بالقوة الإلهية المطلقة ..

تماماً كما نفعل حينما تتشابك أيدينا حتى يجد كل منا السند لنفسه، وفي نفس الوقت ندعم بعضنا البعض .. !

وهكذا ليس مهماً من أي مكان جئت، ولا إلى أي نظام تنتمي ما دمت في مقام إبراهيم وتحمل مسؤوليته، ونerrick متوجهة لضرب الأصنام الثلاثة ..

ارم الصنم الأخير، وبذلك تنتصر على قاعدة الشيطان،
وتبطل إغواه ..

إذاً! هل رمي الصنم الأخير؟

وفي وجهه؟

وعلى رأسه؟

هل اخترقه الرصاصة؟

سبع رصاصات؟

سبع مرات ترمز إلى أيام الخلق السبعة، وإلى السماوات السبع، وأيام الأسبوع السبعة (جهاد ماض إلى الأبد منذ أن بدأ مع بدء الخليقة متصلةً إلى يوم القيمة، ومعركة لا يتخللها هدنة، ولن تقوم خلالها علاقة سلم مع أي من الأصنام الثلاثة .. كن كأنك

دائماً في مني وفي حالة حرب مع الأوثان).

يا إبراهيم، عندما يسقط الصنم الأخير يتعطل الشيطان ويقتل تحت وابل رصاصك! أيها الإنسان.. يا خليقة الله في الأرض، لقد طردت الشيطان كما فعل الله! وهزمت الملك^(١) الوحيد الذي رفض السجود للإنسان..

الآن أنت إنسان حر مثل إبراهيم، وأصفيت للرسالة، وأدركت الحقيقة.. وبعد أن ترمي الصنم الأخير ضخ بإسماعيلك..

من أجل الحق وفي سبيل الحب. كل شيء يمكن أن يضحي به... تقدم إلى محل الأضحية بقلب يملأه الحب..

ولتبع إبراهيم..

خذ إسماعيل بيد (كائناً من كان أو كائناً ما كان.. فهو ذلك الذي يقع لديك موقع إسماعيل لدى إبراهيم) واقبض باليد الأخرى على «سيف إيمانك» الذي ستقطع به عنق إسماعيل أمام عينيك..

تجاوز كل شيء، وانشد عون الله فيما أنت مقدم عليه بكل وعيك وإدراكك وكامل يقظتك وانتباحك.

أيها الإنسان!..

(١) هنالك من يرى أن الشيطان (إبليس) كان من الجن العابد، فرفعه الله إلى مصاف الملائكة.

من أجل الحب والحق ضحّ بِإِسْمَاعِيلَكَ وَيَكْبُشُ فَدَاءَ فِي
أَرْضِ (مِنِي) ! . . .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ مَتَعْطِشًا لِلَّدَمَاءِ فِي مَذْبُحٍ مِنِي وَلَيْسَ فِي
حاجةٍ إِلَى إِسْمَاعِيلَكَ^(١) ، بَلْ سَوْفَ يَرْسُلُ لَكَ الْكَبِشَ فَدِيَةً . . .

لَقَدْ جَاءَ بِكَ مِنْ رَكْنٍ بَيْتِكَ إِلَى بَحِيرَةِ الدَّمَاءِ فِي مَذْبُحٍ (مِنِي)
لِتَعْبُرَ وَتَهَاجِمَ وَتَقْتُلَ رَموزَ الشَّيْطَانِ وَأَنْتَ تَضْحِيَ .

وَحِينَما تَكُونُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلتَّضْيِحَةِ بِإِسْمَاعِيلَكَ فِي سَبِيلِ
الله تَنْتَصِرُ عَلَى الشَّيْطَانِ ، وَسَوْفَ يَسْلِمُ إِسْمَاعِيلَكَ وَيَقْفَ فَخُورًا
إِلَى جَانِبِكَ . . .

عَجَباً!

مُثْلُ هَذَا الدَّرْسِ الْعَظِيمِ يَتَلَقَّاهُ الْإِنْسَانُ فِي شَعَابِ هَذِهِ
الْجَبَالِ . . .

لَقَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْهُ إِبْرَاهِيمَ ، وَصَارَ إِسْمَاعِيلَكَ مَعَكَ ، أَمَا مَا
ضَحَّيْتَ بِهِ فَهُوَ حَبَّهُ وَهُوَ ذَاتُهُ الَّذِي أَغْوَاكَ بِهِ الشَّيْطَانَ . . .

فِإِسْمَاعِيلَ هَبَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ يَحْبُّهُ ، وَسَيَدْفَعُ فَدِيَتَهُ! . . .

عِنْدَمَا تَعُودُ مِنْ (مِنِي) لَا تَنْسِ أَنْ تَكُونَ وَفِيَّ لِعَهْدِ السَّيْرِ عَلَى
سُنْنَةِ إِبْرَاهِيمَ وَقَبْولِ مَسْؤُلِيَّةِ الدُّعَوَةِ إِلَى الرَّسَالَةِ . . اذْهَبْ إِلَى

(١) يقول تعالى: ﴿لَئِنْ يَنْأَى اللَّهُ لَهُ مُؤْمِنًا وَلَا يَمْأُمُهَا وَلَئِنْكَ يَنْأَى التَّغْرِيَّ يُسْكُنُهُ﴾ سورة الحج، الآية: ٣٧.

شعبك ، ونادي فيهم ليؤسسوا أرض السلام ، ويعيشوا في مجتمع السلام ، ويبنوا بيته هو رمز الأمن والسلام والحرية والمساواة والحب .. للإنسان !!

* * *

العبد

لقد اكتملت المشاهد والحج على وشك الانتهاء!

أين؟! .. في منى؟!

يا للدهشة! .. على مرمى حجر من مكة؟! ..

لماذا ينتهي الحج هنا بدلاً من أن ينتهي هناك في مكة إلى
جوار الكعبة؟!

يجب أن تدرك مغزى مناسك الحج، وتكون على وعي تام
بما تفعله وأنت في خضم هذا الزحام .. يجب أن تكون قادرًا
على التفكير هنا وليس هناك في ركن بيتك وأنت هائم في أحلام
البيقظة!

الحج هو كل ما يحضر على التماسك.

الحج هو البقعة التي تلقى فيها الله وإبراهيم ومحمد ..
والناس .

خليل مجتمع من الكثير من الأعراق والأجناس والألسنة
والأنظمة . .

ومع ذلك تجد هذه الثلة منسجمة متألفة ومتناهية ثقافياً
وعقدياً وغاية وحباً ! . .

إنهم ليسوا مجموعة منتقاة من أصحاب السلطة أو من طبقة اجتماعية معينة، إنهم أنماط منحدرة من كل أنواع الأجناس والطبقات والطوائف . .

إنهم هنا تجمع له مشكلاته المحددة هي - على وجه العموم - واحدة وإن تعددت؛ فهم الممثلون الحقيقيون لأمم مختلفة يلتقطون هنا . .

* * *

«الاستطاعة» في الحج تعني قدرتك على الذهاب وعلى فعل ما سبق أن فصلنا فيه القول، وليس معناها أن تكون غنياً كما شاع في الفهم الخاطئ . .

إن الحج ليس ضريبة على الثروة، ولكنه واجب مثل الصلاة . .

إن معنى استطاعتك هو أن تكون قادراً وعندك من الحكمة ما يجعلك تدرك ما الذي تفعله . . إنها نفس الشروط التي يجب توفيرها لأداء أي واجب ! . .

* * *

أيام آخر في هنـى

ما زال أمامك يومان تبقى فيهما بمنى .

أمعن التفكير فيهما في عقيدتك ، وفيما فراغت لتوك من

أدائه ..

بحلول العيد وبعد الأضحية تنتهي المناسك ..

لكن لا بدّ أن تبقى في منى يومين ، أو ثلاثة أيام - إن كان في مقدورك - لا تغادرها ، ولا حتى لتعود إلى مكة ! لماذا ؟ ! لقد انهزم الشيطان ، وقدمَ القربان ، وخلعَ الإحرام ، واحتفلنا بالعيد ! لماذا يجب أن يبقى أكثر من مليون من البشر في هذا الوادي ليومين أو ثلاثة ؟ ! .. في هذا الوقت يتاح لهم أن يتذكروا في الحج ، ويتفهموا ما فعلوه ..

وبإمكانهم - كذلك - تداول مشاكلهم مع المسلمين القادمين من بقاع شتى من المعمورة ، فهو مؤتمر إسلامي عام يضم المؤمنين

ليقرروا ما يصلح دينهم ودنياهم . .

إنَّ مفكري الإسلام ومثقفيه الذين يجتمعون هنا، والمجاهدين في سبيل الحرية ضد الاستعمار والطغيان والفقر والجهل والفساد في بلادهم يتعرّفون على بعضهم ويتداولون مشكلاتهم ويصلون لبعض الحلول، ويشدون أزر بعضهم بعضاً متعاونين متساندين .

إنَّ عليهم أن يدرسوا المخاطر التي تحدق بالأمة، ووسائل مقاومة المؤامرات التي تحيكها القوى العظمى وعملاوْها المندسون داخل البلدان الإسلامية .

إنَّ عليهم أن يعقدوا العزم على محاربة الاستغفال والإعلام والتفرق والضلال والمذاهب الهدامة، وأمراض أخرى كثيرة تهدد كيان الأمة . .

إنَّ عليهم أن يرفعوا راية الجهاد العام خفاقة في أرجاء العالم، من أجل تقديم حقائق الإسلام ومساندة قضية الحرية لكل الشعوب المستعبدة، ومن قبلها لتلك الأقليات المسلمة التي تعاني الاضطهاد من أنظمة غاشمة جائرة . . .

وعبر هذا النسق من التعاون وتبادل الرأي والشعور، تكتسب الأمة المسلمة مزيداً من القوة في جهادها ضد عدوها المشترك . . .

إنَّ فهماً أفضل لعقيدة الإسلام قد ينبع عن تحلٍ بعض الخلافات العقائدية بين الطوائف المذهبية للمسلمين .

أكثر من مليون مسلم من كل فجاج الأرض يبقون ثلاثة أيام في (منى) ذلك الوادي القفر؛ حيث لا تجد مكاناً يجذب الناظر أو يشغل وقته بممارسة أي فعل أو لشراء شيء، ليس به حتى ميدان أو حديقة تتجلو فيها، كما أنه ليس مكاناً للسكنى؛ فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا بناء في منى» . . .

في لحظات البقاء هذه يكتسب المرء - عبر مرانه خلال ما مر به في رحلة الحج - حرية إرادته من كل سند وتدعمها بإرادة (إبراهيم) القوية وشخصيته العظيمة . .

لقد هزمت كل المخاوف والأطماع والغرائز في ذروة من توهج قوة الإرادة والشعور بالمسؤولية، والقلب يملأه إحساس الانتصار في الميقات والطوفان والسعى وفي عرفات وعند المشعر الحرام ومني: الرمي، والأضحية، والاحتفال بالعيد في إخلاص عظيم.

نعم . . في هذا الوقت وعلى هذه الأرض أكثر من مليون مسلم لا يخترون الحج متفرقين - كي يستأنفوا حياتهم الخاصة - كلا! . . بل يجلسون مجتمعين في هذه البقعة يتداولون حول مشكلاتهم ومستقبلهم.

فالحج هو أن تأتي هنا في الميقات المحدد، وأن تؤدي هذه المناسك مع الناس، أما غير ذلك - كأن تذهب إلى كل أماكن الحج في ميقات الحج وليس معك أحد - فليس هذا بالحج . ، بل هو سلوك لا معنى له! . . وقد يعتبر جولة سياحية!! .

ولكن هذا الوقت - الذي يوجد فيه الناس - هو الوقت الذي يعيقه المناخ الروحي، أما غداً - عندما يرحل الجميع - تعود (منى) مرة أخرى مثل كل البقاع لا يميزها عن غيرها إلا أنها جدباء قفر من السكان.

إنك هنا لتعلم أنه: «دون الناس» فإن السعي للجنة لا يعدو أن يكون إحدى طرائق الرهبة المستقبحة، وأن: انتظار العائد المادي المؤجل أسوأ من دفعه لك في الحال؛ لأنه الطمع الذي يحتفظ بشراهته إلى يوم القيمة.

وبكلمات أخرى: إنه نفس سلوك البرجوازي الذي يفضل التأجيل على أن يدفع له في الحال لأنه يضمن له رصيداً أكبر.

والمنتقطع أناي مثل المادي، فالأخير يستعمل تقنياته، والأول يستعمل إيمانه... المادي ينفع بالعلم ليستمتع ب حياته، والمنتقطع يستعمل الإله لتلك الغاية..

كلاهما يسعى للهدف نفسه، لكن أحدهما يريد لحاضره والأخر لآخرته.

لكن إسلام إبراهيم عليه السلام و محمد صلوات الله عليه يعلمنا أن الله سبحانه يكره المنقطع الأناني:

«من بات ولا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»

صحيح أنك أديت فريضة الحج، وسموت إلى مقام إبراهيم عندما ذبحت إسماعيلك، لكن هذه ليست نهاية المطاف بقدر ما هي بداية واجبك ..

كل هذه المناسب إنما كانت لتنكر «خدمة الذات» ولتنقل «الخدمة الآخرين» ليس من أجل ذلك دعيت إلى هنا أثناء موسم الحج لتكون مع الناس.. أما أن تأتي هنا وحدك فليس هذا بالحج.

* * *

الآن

في خاتمة هذا الأداء

والجميع قد هزم الشيطان - كما فعل إبراهيم - وذبحوا الذاتية واحتفلوا بالنصر وقبل العودة إلى مكة للوداع.. يعجب الوفاء بأمريرن واجبين :

* أن يأسسوا حلقة حوار علمي ونظري «سمينير»^(١) حيث يتاح لكل شخص أن يحضر .

* وأن يقيموا مؤتمراً عالمياً شاملأ.

اليومان الزائدان في منى هما من أجل أن يختصر الحج في هذه المؤتمرات التي لا تنعقد خلف الأبواب المغلقة وداخل القاعات المضاءة، ولكن في الهواء الطلق في هذا الوادي، حيث لا يوجد سقف يقترب من الرؤوس، ولكن تحت سماء زرقاء صافية بلا جدران ولا مداخل ولا حدود ولا حرنس.. ولا مراسم! ..

هذه المؤتمرات لا يحتشد فيها رؤساء الدول ولا ممثلوهم

(١) سمينير : Séminaire: مدرسة إكليريكية خاصة بدرس فرع من العلوم العالية. «المصحح».

ولا الدبلوماسيون ولا القيادات السياسية ولا أعضاء البرلمان ولا الوزراء ولا أعضاء مجلس الشيوخ ولا أساتذة الجامعات ولا العلماء ولا المفكرون ولا أئمة الدين . . . كلا! كلا!

﴿وَإِنِّي فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ﴾^(١).

كما يقول (إيمى سizar)^(٢): (ليس لأحد الحق في أن يكون قيماً على الآخرين).

وكما يقول بروفسور (شاندل): (إن الحديث باسم الآخرين وهم غائبون كذب وعار، إذ إن الله وحده له الحق في التقرير للناس لأنهم خلفاؤه في الأرض)

هذا هو الغرض من المؤتمر الذي يعقد في (منى)، حيث القائم هو الله تعالى الذي يجتمع الناس هنا في ضيافته . . .

بعد هزيمة الشيطان والعودة من محل (الهدي) يدعوه الله تعالى الجميع ليشهدوا هذا اللقاء، وليجددوا وعدهم مع إبراهيم، ولتكون الله شهيداً على بذل الوسع في دعم عقيدة التوحيد وتحطيم كل الأصنام الباقية في العالم وتأسيس مجتمع العدل والسلام.

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) إيمى سizar: شاعر وسياسي فرنسي. زنجي الأصل. تأثر بالسريالية، وعبر عن توقف لتحرير الزنوج. دعا إلى الانعتاق من الثقافة الغربية والعودة إلى بنابع التراث الزنجي. «المصحح».

إنهم الأتباع الصادقون للنبي محمد ﷺ الذي صنع أولئك البشر المفكرين الوعيين الذي حملوا مسؤولية الرسالة، وشيدوا المجتمع النموذجي والأمة الشاهدة على قاعدة التوحيد، وساندوا أمانة الحكماء والإمامية والقسط في حياة الناس.

(منى) هي أرض الحب والجهاد والشهادة.. .

(منى) هي المكان الذي يتواتق فيه الناس مع الله . . .

إنهم أمة واحدة تتعاهد على فعل الخير ومقاومة الشر في حياة الناس، وعلى تلبية نداء الرسول ﷺ الذي حمل كتاب الله بيد السيف باليد الأخرى، متخدًا القرار الصائب بمواجهة العدو العنيد والتحالف مع الأصدقاء.

في هذا المؤتمر المنعقد بعيداً عن أقطار تغمر أراضيها دماء القتلى، يدعو رب الناس ملك الناس إله الناس . . يدعو المسلمين من كل فجاج الأرض، ومن مختلف النظم السياسية ليجتمعوا تحت سماء هذه الجبال في حديث حر ينشد التعاون للقضاء على مشكلاتهم . . وهو أيضاً اجتماع علمي، لكنه لا ينعقد في قاعات أكademie، ولا يشبه تلك الملتقىات المتكلفة لأساتذة الجامعات وحلقات العلماء وأصحاب التخصصات العالمية.

كلا . . إنها يومان تنعقد فيما حلقة الحوار العلمي مؤتمر روحي وفكري حيث يشارك فيه أي متعلم أو أمي، أستاذ أو حرفـي، قائد روحي أو مزارع بسيط، . . . كل من يريد المشاركة له حق الحوار المفتوح . . كل الرتب وكل المواقع وكل الدرجات

وكل الألوان، فقد تركوا الفوارق خلف ظهورهم عند المواقف! ..

هنا الجميع يمثل واحداً .. الإنسان .

والكل له ذات الدرجة (حاج!) .. هذا هو كل ما في الأمر .

* * *

لا يوجد في مستويات الرقي البشري مستوى أرفع من مقام (إبراهيم) الذي يُطلب من الجميع هنا أن يتمثلوا دوره ..

ومع نهاية هذه المناسك وقبل أن تعود إلى وطنك يجب أن تبقى يومين آخرين في (منى) بعد العيد مع الناس .. تجلسون وتسألون فيهما أنفسكم السؤال العظيم الخالد نفسه :

ما الذي يجب علينا أن نفعله من أجل مجتمعنا؟

لكي تهتدوا للإجابة لا بد أن يجلس كل واحد ويفكر في ما قام به أثناء الحج .

* * *

إجمال

الآن دعنا نجمل ما تعنيه بعض المصطلحات التي يجب علينا أن ندرك جوهرها فيما نقوم به من مناسك الحج :

التصوف : يبدأ في (منى) ويبقى هناك إلى الأبد ، ولا يعبر إلى عرفات أو المشعر الحرام .

الفلسفة : تأتي إلى المشعر ولكنها لا تبلغ منى .

المدنية : تبقى في عرفات ولا تصل المشعر الحرام أو منى .

الإسلام : يبدأ من عرفات في رحلة مليئة بالمسؤولية والحركة ، ويوافق إلى منى في رحلة المثل والحب واللقاءات المدهشة مع الله ، ثم الشيطان ! ..

* * *

هنا يتحدثون عنك أنت وعن مصيرك ، وليس عن موجودات العالم الأخرى ...

ف والله تعالى الذي يملك كل موجودات هذا الكون يتحدث هنا عن الإنسان الذي يضم بين جنبيه النفحة الربانية والطين اللازم أو الحما المسنون ..

هذه الثنائية موجودة في الإنسان، ولكنها لا تقوم في الطبيعة ..

إنَّ (مني) هي أرض الحب والإيمان والمستقبل ، فحينما تتصارع في داخلك نوازع الخير الربانية وهمزات الشيطان ووساوسه من أجل إسماعيلك تكون (مني) هي أرض آمالك ورغباتك .

ولكن تكون دهشتك حين يأتي يوم نصرك في يوم العيد الدامي ، وبدلًا من حفل عيد الميلاد ، هناك حفل الفداء من أجل الابن !

إنَّه عيد الفداء . . . انظر إلى قيم هذه الأمة وما ينبثق عنها من أعراف وتقاليد وتاريخ وألقاب ، إنها لا تعبأ بعلاقة الدم أو الأرض ، ولكنها تُعوّل على العقيدة والجهاد؛ فهي أمة التوحيد التي تحمل مسؤولية حرية البشرية من لدن آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

إنَّ أبناءها هم جند الإيمان الذين يجاهدون - حتى أنفسهم - وقد امتدوا على طول جبهة القتال من (بدر) إلى (مني) ..

إنهم العبيد الذين أدركوا بعمق معنى الحرية! ..

لقد حرروا أنفسهم ليس من فرعون فحسب، ولكن من
إسماعيلهم أيضاً . . .

لقد حرروا أنفسهم ليس من الأعداء فقط، ولكن من ذوي
القربى كذلك . . .

* * *

الهجوم التالي المترتب على العيد

أثناء الهجوم الأول الذي قمت به في اليوم الأول عمدت إلى ضرب الصنم الأخير، وأفسحت الطريق إلى محل الفداء، ثم تحللت من ثياب الإحرام واحتفلت مبتهجاً بانتصارك! . . .

في اليوم التالي لا بد أن تعود إلى الرمي مرة أخرى، لكن عليك أن ترمي الأصنام الثلاثة جميعاً . . .

في هذه المرة تدور راجعاً لتضرب الصنم الأول بادئاً به، ثم الثاني، وفي النهاية ترمي الصنم الأخير.

يومك الثالث هو تكرار لما فعلته في يومك الثاني . .

في اليوم الرابع قد تبقى بمنى وقد تغادرها، فإذا قررت البقاء فيجب عليك عندئذ - أن تعود للرمي كما كنت تفعل في يومك الثاني والثالث، وإذا قررت أن لا تبقى فعليك عندئذ أن تدفن بقايا سلاحك في مكان ما تحت أرض (منى) . . هذا واجب!

هذه الأيام التي تلي العيد تسمى أيام التشريق . . .
ما الذي تعنيه؟

في اليوم العاشر من ذي الحجة تكون قد ارتقىت إلى مقام إبراهيم، وبلغت من الشجاعة ما جعلك تضحي بإسماعيلك، وهزمت الشيطان في قاعدته الأخيرة ساعة هجومك الأول، وتقدمت بالقربان، ثم تحللت من الإحرام، وغدوت من جبهة القتال في (مني) متصرأً . .

لماذا إذاً تواصل القتال؟!

هناك درس آخر: لا تنس أن الشيطان باقٍ حتى بعد أن يهزم . .

كل ثورة مهما يكن مقدار نجاحها هي على خطير من «أعداء الثورة» . .

إن الأفاعي الهمامة قد تستيقظ وتبدل ألوانها وأنت فرح بانتصارك وفخور بقوتك أو مستغرق في احتفالاتك! . .

إنها قد تظاهرة بأنها صديقتك حتى يتسلّى لها الانضمام إلى صفك لتحطم حركتك من الداخل وتقطف ثمار ثورتك، ومن ثم تصبح هذه الأفاعي (أعداء الثورة) الوارثين جند العقيدة واللبسين شارة الحداد والحزن على الشهداء . .

إن النصر ينبغي ألا يجعلك تخلد إلى الاسترخاء . .

لذا بعد أن تهزم الشيطان في (مني) لا تُلقي بسلاحك من يدك .

لقد قهرت الشيطان حتى أخرجته من بابك ولكنه قد يعود
إليك من النافذة! . .

لقد هُزمَ في خارجك لكنه قد يستيقظ في داخلك . .

لقد صرخ في الحرب لكنه قد يستحوذ على السلطة في
السلم . .

لقد هلك في مني لكنه قد يبعث فيك! . . .

ما الذي أقول؟! . .

الإغواء له آلاف الوجوه

فالشيطان قد ينبعد لأنه كافر، لكنه يعود في هيئة رجل شديد
الإيمان . .

وقد يطرد لأنه مشرك لكنه يتمثل في ثياب التوحيد . . .

قد تدفنه في بيت الأوثان لكنك تلقاه منتسباً أمامك على
المنبر . .

قد تقتله في بدر لكنه يعود في كربلاء . . .

قد يطعن في غزوة الخندق بالمدينة لكنه يظهر في مسجد
الكوفة . . .

قد تمسك بيدي الصنم هبل في أحد لكنه سيرفع المصاحف
على أسنة الرماح في صفين .

يجب ألا تكون ساذجاً وتظن أن الحرب قد انتهت عندما

هزمت الشيطان في اليوم العاشر من ذي الحجة بمنى ، ومن ثم تخلع عنك زي الحرب وترتدي ثيابك المدنية وتعود إلى الزينة والعطر ، وتحتفل بانتصارك ، وتجاهل الخطر ، وتستشعر أنك حر لتعادر مني إلى مكة مستغرقاً في العبادة ، أو الاستعداد للعودة إلى ديارك ل تستأنف أعمالك من جديد .

أنت . . . !

يا جندي الإيمان السائر على درب إبراهيم ، لا تننس أن العاشر من ذي الحجة هو «عيد الفداء» وليس «عيد النصر»! . . . إنَّ التضحية بإسماعيل هي بداية الحج وليست نهايته! . .

بعد نجاح «الثورة» يا جنود التوحيد لا تلقوا بأسلحتكم جانبًا ، ولا تستغرقوا في نشوة النصر أكثر مما يجب .
إنَّ هناك خطر دائم دائِم من الجيش المهزوم . .

لقد أطليع بالقواعد الثلاث ، لكن الأصنام الثلاثة ضاربة أطنابها في (مني) . .
بعد العيد ينبغي أن تحافظ بروح البطولة وتظل مستعدًا للقتال في أي وقت . .

وعليك - بمعونة بقية الجنود - أن تعدوا معاً خطة محكمة التوقيت ومضبوطة الخطوط للقضاء على تلك المؤسسات ، واضعين في اعتباركم الحقائق التالية :

* الثورة دائمًا في خطر ، بما في ذلك أكثرها نجاحاً . .

* لا تكن فخوراً، حتى بعد أعظم الانتصارات ..

* ما زلت في خطر، حتى لو كنت إبراهيم نفسه، وحتى بعد
أن تضحي بإسماعيلك ..

الشيطان له أوجه عديدة وأقنعة لا حصر لها وحيلة مثل
الأقنعة ..

لقد حاول خداعك مرة بحياة إسماعيل، واليوم قد تنخدع له
بفخر التضحية به !

كن دائماً مستعداً للقتال ورمي الجمرات !

ما دمت في (مني) إرم رصاصاتك على الأصنام ..

إنَّ (مني) هي أرض الإيمان والحب، ومكان آمالك
وحاجاتك، وهي جبهة كل أمجادك وانتصاراتك الكبيرة، وهي
حجك وذروة كمالك ومثال حياتك ..

إنَّ (مني) هي الخطوة الأولى نحو التوحيد، وهي في الوقت
نفسه الكمين الذي يتربص فيه الشيطان ألد أعداء الإنسان . . . !

أنت دائماً في (مني) أو (مني) دائماً فيك !

أنت دائماً في خطر ما دامت الطواغيت مستعدة دائماً للتمرد.

بعد العيد وأثناء بقائك في (مني) إرم الأصنام كل يوم . . .

* * *

* كن دائماً مستعداً للجهاد في سبيل الإيمان والحرية طوال
عمرك ..

- * الجهاد في سبيل الإيمان لا يكون من أجل أن تحكم أو تستحوذ على السلطة ..
- * بهزيمة العدو لا ينتهي جهادك ..
- * احتفل بعيد الفداء لا بالنصر ..
- * أخلع زي الحرب، لكن لا تلقي سلاحك ..
- * النصر قد يتحقق يوماً لكنه يوشك أن يضيع بالإهمال ..
- * قد تكفي رمية واحدة لهزيمة العدو، لكن عليك أن ترمي بسبعين لكي تتأكد أنه مات.
- * قد يكفي هجوم واحد وسبعين رميات ل تستولي على قاعدة العدو، لكن حتى تقضي عليها تماماً تحتاج لأكثر من هجوم وترمي أكثر من سبعين رمية .. .
- * اطرح السلاح «الحصى» الذي جمعته في المشعر للقسمة .. .

كم معك؟

سبعون

هنا أيضاً «سبعة» و «سبعون»!

في اليوم الأول (العاشر من ذي الحجة) يهاجم الصنم الأخير سبع طلقات .. وفي اليوم الثاني والثالث ثلات هجمات وسبعين طلقات لكل صنم :

ست مرات \times ٧ حصيات = اثنان وأربعون حصاة + سبع في اليوم الأول الحاصل يكتمل بتسعة وأربعين طلقة أي رقم فردي !
الهجوم الأخير في اليوم الرابع (الثالث عشر من ذي الحجة)
اختياري ..

إنَّ لك فيه الخيار كما تشاء . . .

إذا كنت لا تزال تستشعر الخطر فلك أن تبقى ويجب عليك
عندئذ أن ترمي مثلما فعلت في اليومين السابقين .
وبهذا يكتمل عدد ما رميت سبعين حصاة :
 تسعة وأربعون حصاة + واحد وعشرون حصاة = سبعون
حصاة .

من أجل أن تمنع الشرك من التنكر في ثياب التوحيد عليك
أن تجاهد ثلاثة وعشرين عاماً وتهزم الكفر وتحطم أوثان
الأستقراطية وتنتصر على جاهلية قريش . .

ويجب عليك أن تحطم القواعد الثلاث المتمثلة في :
الاستعمار والرأسمالية والنفاق . والتي هزمت - من قبل - في بدر
وأحد والخندق^(١) .

(١) * بدر موقعة انتصر فيها المسلمين على مشركي قريش ٦٢٤هـ / ٣٥ م.
* أحد: موقعة بين المسلمين ومشركي قريش استشهد فيها عمُّ الرسول حمزة على
يد الوحشي الذي أرسلته هند (أم معاوية) زوجة (أبو سفيان). وكان خالد بن الوليد
هو صاحب الجيش الذي هزم المسلمين وجراح النبي ﷺ ٦٢٥هـ / ٣٦ م.
* الخندق: وقعة تسمى بالأحزاب، حاصر بها المشركون المدينة بقيادة أبي
سفيان. فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق فامتنع به المسلمون وارتدى عنه
المحاصورون وعادوا إلى مكة ٦٢٧هـ / ٥٥ م.

وعليك أن تقضي على الصنم الأخير في منتهي سنة من عمر
الإمامـة ..

وأخيراً لكي تمنع الخناس الذي انهزم في الجانب الآخر من
الخندق استدر تلقاء الصف المنتصر وسلم القيادة الإسلامية حتى
وان احتفلت بانتصار السقيفة، فإن المقتول سينتقم في كربلاء،
وينشر دماء آل النبي على ضفة نهر الفرات ..
وما أكثر الظلم الذي اقترف باسم الخلافة.

* * *

الرسالة الأخيرة

إنَّ أفعال الحج هي نقل لتلك الرسالة التي حملها لنا القرآن
بالكلمات . .

قبل أن تشرع في الحج ينصح بأن تقرأ القرآن - على الأقل -
مرة واحدة، وأن تتعلم درساً من سورةه الأخيرة . . .
لماذا السورة الأخيرة؟!

إنَّ آيات السورة الأخيرة تحذر من الخطر، بينما آخر أفعال
الحج هو الرمي . .

في خاتمة الحج أنت مقدم على رمي الأصنام الثلاثة، بينما
خاتمة القرآن تنكر القوى الثلاث.

في المرحلة الأخيرة من الحج يُحذَّر المسلم من (الخطر)،
بينما تحذرنا السورة الأخيرة من (الشر) . . يا للغرابة!! .

إنَّ القرآن يأتي إلى نهاية، بينما (الشر) لا يأتي إلى نهاية . .

والنبوة تختم ، بينما الخطر يبقى ..

في السورتين الأخيرتين من القرآن يتحدث عن «التماس الملاذ من الشر» وهي تحذير لمحمد ﷺ خاتم أنبياء التوحيد الذي أكمل نبوة إبراهيم عليه السلام ، واليومان الأخيران في الحج يمضيان في (مني) حيث يجب على الواحد منا أن يقاتل ، وحيث حذر الله إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء» . . .

أنت . . !

أيها السائر على طريق محمد ﷺ وملة إبراهيم عليه السلام ، عليك أن تفهم الإشارات وليس فقط أن تقلد الحركات . .

إلى أين ستذهب بعد (مني)؟! . .

أيها الحاج . . !

قبل أن تغادر (مني) إلى ديارك ، دعنا نجلس ونقرأ السورتين الأخيرتين من القرآن لتكشف أي خطر كان نبينا المنتصر يحذرنا منه . .

دعنا نصغي إلى ذلك الوحي ، لنعرف ما الذي أخبر الله به رسوله الحبيب ﷺ حتى ينسد الملجأ منه :

﴿فَلْ أَعُودُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ .

﴿مِنْ شَرِّ مَا حَلَقَ﴾ .

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ .

وَمِنْ شَرِّ الْفَتَنَاتِ فِي الْعُقَدِ .

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)^(١) .

هنا يشير الله تعالى إلى الأعداء الأجانب والغرباء عنك وعن بلادك الذين يجب عليك أن تحاربهم ..

ففي ظلمة الليل حيث يستحيل كل شيء إلى غموض .. يمتد ظلام الشر ويفطري وادي مني ومشهد عرفات ..

وتضيع في حلقة هذا الليل البهيم ..

تأمل المشعر الحرام ومثال الإيمان في مني ..

في الواقع أنت في مني لكنك لا تدرك ولا تبصر قضيابا هامة .. معك الحب لكن لا تعلم لمن ! ..

ومعك الإيمان ولكن لا تدربي بمن !

ضحيت بابنك، لكن ليس في سبيل الله، وإنما أمام الشيطان ! ..

الظلم في كل مكان !! ..

نعم رمي .. ولكن لم ترم الشيطان، وإنما الملائكة !! ..

وذبحت .. ولكن ذبحت إنساناً وليس كبشأ !! ..

وأدبت السعي .. ولكن ليس رغبة وإنما تجاوباً مع شد لجام العدو !

(١) سورة الفلق.

وبدأت الطواف.. ولكن لم تتجه بنيتك إلى الله وكأنك تدور في حلبة على أنغام القرود!! ..

إنَّ الطغيان في كل مكان: غاسق إذا وقب!

هناك مؤامرات خفية وأخرى مثلها جلية يقوم بنسج خيوطها الساسة الأذكياء وغاسلو الأدمغة والثراثرون والنمامون الذين يتغعون إزكاء الفتنة والفرقة والبغضاء.. ليحلوا «القبضات المرتفعة» محل «الأيدي المتشابكة»! ..

إنهم يتآمرون ليبدلوا العلائق.. .

حتى يصبح أخوك هو عدوك، ويتظاهر عدوك بأنه أخوك.. .

إنهم يقطعون كل وشائج القربى، ويلحقون الشلل بكل القرارات، ويضعفون إيمانك، ويلبسون الدين ثوب الطائفية، ويشيعون الفرقة بين الجماعة.. .

وبذلك يسلس قياد كل الطوائف للصلبية (الإمبريالية) (غاسق)، وعملائها (النفاثات).

أخيراً: الحساد.. !

تلك الفتنة التي يجب أن تفكِّر فيها بإمعان.

هذا النمط من الأشخاص ليس مثل ذلك النوع المريض الذي يكتم غيرته في قلبه، لكنه النوع الحاسد.

ليس هو بالأجنبي الطاغية (غاسق)، والذي يعمد إلى إنفاذ إرادته بالقوة الظاهرة، وفي الوقت نفسه هذا الحاسد هو دون

العميل أو (النفاثة) الذي يعمل خفية من أجل سيده أو من أجل المال . . .

كلا! . . إنه من المعارف أو زميل أو قريب أو مخادع أو دمية تترف الخيانة وتتظاهر بالصداقة . . .

وهو قاتل يزعم البراءة، أو مفسد لا تحوم حوله الشبهات . . .

أو هو ذلك الذي يصنع المتاعب لا إرادياً مدفوعاً بأشد الأمراض استعصاء على الشفاء: الحسد . . .

هذه العقدة تظلل الثورات المنتصرة، وتصدّع جند الحرية في تفانيهم وفدائهم، وتثبت الأحقاد الدموية بين الأصدقاء . . .

والمحصلة هي أن يصبح المؤمن الصادق دمية بين الكفار . .

إنَّ الكفار ليحكموا هذا الأداء بذكاء يحجب عن الناس الوعي بخططهم^(١)! . .

ولهذا ترى أن خيمة الطغيان المظلمة قد نصبَت في (منى)
بالقرب من الكمين الذي يتربص فيه العملاء! . .

لكن ماذا عن ذلك الحاسد المريض الذي لا يبدو عليه أنه العدو؟! . .

(١) هناك حقيقة يشير إليها المؤلف وهي عملية توجيه تيارات الفكر والحركة داخل البلدان الإسلامية والعمل على تطويرها لصالح دول العالم الأول (أوروبا وأمريكا) وتجنيد العملاء لهذا الغرض الدقيق الخطير والمستمر.

إنه - رغم احتمال كراهيته للعدو أكثر منك - دمية! ..

إنه - وفقاً لمصطلح الشر - في آخر المواقع؛ فهو يمثل الصنم الأخير الذي يرمي في اليوم الأول..

إنه العدو الخفي لإيمانك ورجائك! ..

* * *

هنا مرة ثانية يتواجد الثالثون:

غاسق: الطاغية القاسي .. الصنم الأول

نفاثة: العميل الذي يفسد الأخلاق والأفكار.. الصنم الثاني.

حاسد: عين الطاغية ودمية العملاء والصديق العامل في خدمة العدو.. الصنم الثالث.

مهما يكن ..

فليس من العسير جداً أن تهزم هذه الشرور..

انتظر حتى تبزغ أول أشعة الفجر.. مبددة الظلم.. ناشرة الضوء على وادي (منى)، إنها ستشعل النار في خيمة العدو وتطيع بالظلمة والجهل..

والعميل المختبئ خلف الصخور سيضطر للفرار..

وتبقى عقدة الحسد وحدها لا تمس، ولكنها سوف تدفن في قلوب أصدقاء مرضى! ..

* * *

كما يلاحظ الإمام الفخر الرازى^(١) أن سورة الفلق تشير إلى صفة واحدة من صفات الله وهي : الرب .. بينما سورة الناس تشير إلى صفات ثلاثة ..

هذه دلالة على أن هناك عدواً أخطر يحتاج إلى جهد أكبر حتى يتم التخلص منه .

في سورة الفلق يصف الله تعالى نفسه بـ : رب الفلق .. أي رب الفجر .

والآيات في السورة تصف الظلام ، وقوى الظلم في عدائها للشمس ، ولكنها ستموت بالشروق ..

أما في سورة الناس فإن الله تعالى يصف نفسه بـ : الرب ، وبـ : الملك ، وبـ : الإله وهي ذات القوى الثلاث أعداء الإنسان التي تعيش بينهم وتدعى أنها ربهم :

﴿فُلْقُ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾

سورة الفلق تشير إلى هذا العالم ، وإلى المجتمع حين تسيطر عليه قوى الظلم من الذين يعملون في السر - وعن إدراك - لغسل أدمة الناس ..

(١) الرازى : (١١٤٩ م - ١٢٠٩) فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازى : إمام مفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول من تصانيفه الكبرى «مفاتيح الغيب» في ثمانية أجزاء في تفسير القرآن و«المنظرات» ضمته مجلداته مع المعزولة وغيرهم . «المصحح» .

كما تشير إلى الذاتيين والخونة وهي تتحدث عن ثلث مصائب تحل بالمجتمع :

الظلم والظلام .. الفساد والانحراف .. حب الذات والخيانة

وفي ذلك من الذي سيفضح؟!

الحركات الثورية .. المجتمع الإنساني .. والبشرية.

أمّا سورة الناس فهي تحدثنا عن نظام إجتماعي، وبني إجتماعية ..

تحدثنا عن القوى الحاكمة التي تصنع قرار الناس.

إنها تشير إلى العلاقة التي تربط بين الناس وربهم أو أبיהם الروحي ..

إنها تخبرنا بالشر الحقيقي والعدو الطبيعي للناس ..

إنها تخبرنا من الذي سيفضح به هنا ..

ليس المجتمع البشري، ولا الإنسان؛ ولكن الناس أنفسهم ! ..

إنَّ الأصنام تُصنَّع وتُعبد، وهم يدعون لأنفسهم خصائص ألوهية متميزة ويضعون أنفسهم في مكانة بين الله والناس، وليس بين الناس والطبيعة، أو بين الناس والعالم ..

ومن ثم يصبح ذوي العقول البسيطة من الناس عبيداً لهم.

على النقيض مما يرى بعض المتعلمين، ومن يبحثون عن

الحقيقة بين ثنایا الكتب والمخطوطات أكثر من نشانها في الواقع، فإن الشرك والتوحيد لا يمثلان نظريتين فلسفيتين، ولا مناظرة تجري في معبده ..

لكنهما يعيشان ويرتبان آثارهما في حياة صاحبها وفي الطبيعة المحيطة به ..

وهما - التوحيد والشرك - في قلب حركة وكفاح الشعوب: الاجتماعي والاقتصادي، وعبر كل الحقب والأزمنة ..

وبكلمات أخرى فإن الشرك هو العقيدة التي سيطرت في التاريخ ..

نعم إنه أفيون الشعوب !!

ومن الناحية الأخرى فإن التوحيد هو الدم والعون والفطرة والمرشد للشعوب ..

إنه العقيدة التي أوذيت في التاريخ.

إنه لمن أعظم وأسوأ وأخفى مآسي الإنسانية، والتي لم تفهم بعد جيداً من قبل الكثير من المفكرين استعباد الشعوب بذات وسائلهم للتحرر! وقتل وتعذيب الناس باسم مصدرهم الوحد للحياة الكريمة ! ..

كيف؟! ..

بالخلط بين عقيدة وأخرى؛ شأن الشرك الذي يتخفى في ثياب التوحيد، والذي تمثل في أكبر منافقي التاريخ: إيليس المتنكر في صورة القديس!

التوحيد في خدمة الشرك .. والأب الروحي ممثل الشيطان .. وأخيراً الخناس المخادع عدو الناس ..

في سورة الناس تتكرر كلمة الناس عدة مرات ..

من هؤلاء الآباء الروحيين الذين يعيشون بين الناس ويملكون هذا السلطان النافذ؟

من هؤلاء الطغاة الذين يعصون الله ويستخفون بحقوق الناس؟ ..

للمرة الثانية تظهر الطواغيت الثلاثة: الثالثون! ..

التي هي ملك الله وحده كما وُصفت في سورة الناس ..

إنهم يغتصبون الواقع الثلاثة التي هي:

التوحيد: وحدة الصفات ..

الشرك: تعدد الصفات ..

التثليث: قابيل القاتل الذي يظهر بثلاثة أوجه ويحكم أطفال هابيل ..

هناك قابيل واحد، وفرعون وقارون وبلعم هم وجوهه ..

إنهم ليسوا ثلاثة أشخاص، ولكن ثلاثة أوجه ..

المدهش أنه في كل تاريخ التثليث يرمي للإله دائمًا برأس واحد له ثلاثة أوجه!! ..

في غابر الزمان كان الناس أمة واحدة متاخية، وكانوا شركاء في أنهار الأرض وغاباتها وكلّ له نصيب مساوٍ لأخيه في خيرات مائدة الطبيعة الحرة.

صيد البر وصيد البحر كان وسيلة جلب الطعام اللازم للبقاء ..

والله وحده هو المالك، والبشر كلهم متساوون.
لكن .. جاء قabil وصار مزارعاً وادعى لنفسه ملكية الأرض ..

ومن ثم استعملت الحواجز والضوابط ..
لقد خرقت الوحدة!

واستبدلت عبادة الله الواحد بعبادة الآلهة المتعددة ..

وظهر قabil بثلاثة أوجه حيث عبده الناس من دون الله.

مثلث مشؤوم: التثليث ..

إنه مقبرة كل الرسل والمجاهدين والشهداء.

مقبرة تمثل في أغلال التهديد المشؤومة التي تحاكي سلاسل العبودية التي استغلت - من قبل - لإخضاع عباد الله المغلوبين ليكونوا عبيداً للحاكم ..

إنَّ الثالثون أشبه ما يكون بالشركاء الثلاثة في شركة واحدة:
حيث يقوم الأول بالدعابة والإعلان ..

ويتولى الثاني سرقة ما في جييك ..

بينما يعد الثالث نفسه للمشاركة في الأرباح .

هذا الشريك الثالث هو الذي يتظاهر بمظهر رجل الدين الذي يهمس في أذنِيك بما يزعم أنه «كلمة السماء» :

(يا أخي ! كن صبوراً ودع هذه الدنيا لطلابها وكابد المعاناة فيها حتى تدخل الجنة في آخرتك ..

حتى وإن مت جوحاً أملاً قلبك بالتسامح ! إن الذين شغلو أنفسهم بهذه الدنيا سيعلمون أن الجزاء في الآخرة سيكون لأولئك الذين اعتصرهم الفقر والطغيان ! إنهم سيحسدونك على سعادتك تلك المرجوة في المستقبل !! لا شيء يمكن أن ينجز وكل ما يصيّنا هو قدرنا المقدور مسبقاً؛ السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه .. إن أي رفض هو معارضة لميشئة الله ، ولهذا فكن شاكراً قانعاً بما عندك ودع الحكم لك في الدار الآخرة ! كن صابراً ولا تشكو فدرك وقهرك لثلا فقد أدرك يوم القيمة ! تذكر أن حق إصدار الحكم إنما هو لله فقط وليس للناس ، وفي الدار الآخرة وليس في هذه الدنيا .

أي حكم ينبغي أن يصدر من الله وحده وهو أحكم المحاكمين ، ومن ثم فلن يقتضاها حتى لا تخجل يوم القيمة حيث ترى الله الرحمن الرحيم يغفو ويصفح عن الطواغيت الذين لا يمكن أن تعفو أنت عنهم في هذه الدنيا .

كل واحد مسؤول عن خاصة عمله .

إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر يجب عليك؛
أولاً أن تكون محقاً وعالماً وذا تأثير، وإذا استشعرت أن ذلك خطير
عليك فإنك غير ملزم بالقيام به) ..

هكذا الأصدقاء الثلاثة وثيقى الصلة ببعضهم ..

وقابيل - صاحب الأقنعة الثلاثة - هو إله التثليث الأبدي ..

هؤلاء الثلاثة لا يهم أن يعملوا تحت راية الإسلام أو تحت
راية العداء له! ..

باسم التوحيد أو باسم الشرك! ..

أولئك هم الذين باسم الإيمان صنعوا الدساتير والقوانين
ليتحكموا في الناس أبد الدهر وفي كل مكان! ..

الطواغيت الثلاثة هي وجوه قابيل الثلاثة ..

ذلك المالك الذي قتل أخيه هابيل الراعي، وأصبح هو من
بعده مسؤولاً عن أطفاله اليتامى وأضحى القاتل وريثاً للضاحية! ..

الغريب أن كل الأنبياء الإبراهيميين والذين دعوا إلى التوحيد
والعدل والوراثة الحقيقين لهابيل كانوا جمِيعاً في مراحلهم الأولى
رعاة، وكذلك نبينا محمد ﷺ آخر هذه السلسلة من الرسل كان
راعياً للغنم بقراريط^(١)، وقد قال: «ما من رسول إلاً رعى الغنم».

وهذه ستة قابيل وأبناءه الثلاثة (الذئب والثعلب والفار)

(١) قراريط مكان بالقرب من مكة.

وسعدهم الدائم في التاريخ لممارسة الاستبداد أو الاستعمار أو الاستغلال لأبناء هابيل (الناس) وسوقهم بزني راعي الغنم .

هذا يفسر لنا معنى ظهور «راع» أو «أمي» كل حين ينهض من قلب الصحراء ويترك قطبيعه ويصبح قائداً ومحرراً لضحايا سلطان قابيل ..

وهكذا يكون الرسول راعياً وليس فلسفياً أو متعلماً أو زعيمًا في أحد مراكز الحضارة أو أحد معاهد العلم أو أحد التجمعات العلمية أو أديرة الدين ! ..

إنهم ينهضون ليقرعوا بعصيهم رؤوس الذين يدعون أنفسهم «آلهة الأرض» من نوعية الذي قال : أنا ربكم الأعلى .

وهنا ندرك جمال المعنى الذي تحمله كلمات النص القرآني :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْبِنَتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ الْأَنَاسُ بِالْفِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَّافِعٌ لِلنَّاسِ﴾^(١).

يساند إنسان مسؤول قضية العدالة ويدعو في الناس بالتكافل والتآخي والجهاد في سبيل العدل وأن يكونوا على وعي بما يدور في مجتمعهم ، حتى تتحرك القوى المسيطرة في الحال بدفاع ملء القلب لتعتال هذا الفرد .. أو تغتال شخصيته .

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٥.

لكن بعد جيل أو أكثر هؤلاء القتلة أنفسهم سيفجعون على الفقيد ويصبحون ورثة رسالته ويستأنفون قيادته :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِيَأْيَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يُعَزِّزُونَ حَقَّهُ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِمَذَابِ أَلَيْمٍ﴾ . (١)

ومهما يكن الأمر ، فإذا كان النبي هو المنتصر في المعركة فإن المعارضة ستهدنه مؤقتاً، وتبدل مواقفها وتغير أقنعتها ، ريثما يتم لها الانتصار وترث كتابه وسيفه بعد أن تدور العجلة بجيل جديد .

* * *

* هناك قabil واحد بسبعة وجوه وبسبعة ألوان وبسبعين قناعاً وبسبعة آلاف اسم وبسبعين ألف حلية !

* هناك قabil واحد هو القاتل الذي اغتال أخيه !

* هناك قabil واحد هو الذي يملك وكل الناس مملوكة له !

* هناك قabil واحد هو الحاكم وكل الناس عبيد له !

* هناك قabil واحد هو الذي صنع عدوين من آخرين !

* هناك قabil واحد : يجعل المتساوين غير متساوين ! .. هو الذي قسم الناس إلى عرقين ، والمجتمعات إلى طبقتين ، وجعل من

التاريخ قطبين، وأحال الوحدة إلى تثنية.. ذلك الفعل الذي يعبر عنه القرآن بكلمة «الاستكبار».. ذلك الفعل الذي يجعل الناس ضعافاً متهالكين! ..

* هناك قabil واحد يمارس الاستكبار منطلقاً من قواعده
الثلاث ..

١ - السلطة: السياسة.. الطغيان.. (فرعون).

٢ - إراقة الدماء: الاستغلال.. الاقتصاد.. (قارون).

٣ - الخداع: الإيمان.. الاستغلال. (بلعم).

إنها طبقة واحدة حاكمة لها ثلاثة أوجه: ثلاث قوى.

* هناك قabil واحد يحيل التوحيد إلى التثليث! .. وهو يوظف لذلك كل الأساليب: التخفي أو الصراحة، الكفر أو الدين، الشرك أو التوحيد، العصا أو القانون، الديكتatorية أو الديمقراطية، العبودية أو الحرية، الإقطاعية أو البرجوازية، المذهب أو العلم، رجل الدين أو المفكر، الفلسفة أو التصرف، اللذة أو رياضة النفس، الوحشية أو التمدن، الانحطاط أو التقدم، المادية أو المعنوية، المسيحية أو الإسلام، السنة أو التشيع .. .

هذه وجوه تغدو وتروح، قد تلقى بهم من الباب، ولكنهم يتسللون إليك من النافذة! ..

على سبيل المثال: فإن الرق قد تمت معارضته، لكن آلت

السيادة للإقطاع، وأضحي الأرقاء فلاحين، ثم هزم الإقطاع بثورة عظيمة^(١)، ولكنها تبدلت إلى رأسمالية وصار الفلاحون عملاً في المصانع.

بعون من الله وقوته أغرق موسى عليه السلام (فرعون) في البحر ووارى (قارون) باطن الأرض، وسخر عصاه في مقاومة السحرة، ولكن بعد حين عاد فرعون الذي غرق في البحر للظهور مرة أخرى وخرج من نهر الأردن.. لقد سمي نفسه «شمدون»^(٢)! وحمل عصا موسى بدلاً من السوط، أما سحرة فرعون فقد أصبحوا أحفاد هارون ورفاق موسى وحملوا الكتاب المقدس بعد أن تخلوا عن حبال السحر التي كانت بأيديهم، وصار «بلعم باعورا» هو الزعيم الروحي!، وقارون استولى على الكنز وأضحي أميناً على ملة التوحيد!، ثم تعاضد ثلاثتهم: «فرعون وقارون وبلعم» وحولوا فلسطين إلى أرض الميعاد، وصار الأقباط القدماء هم الإسرائيликون الجدد!..

ثم ظهر عيسى عليه السلام ونسخ اليهودية وقضى على إمبراطورية الرومان، لكن قيصر بدل اسمه إلى البابا، وحل أحبار النصارى محل الإكليروس وكاردينالات الفاتيكان، حيث دعي القصر كنيسة! وقام «جوبير»^(٣) مقام عيسى عليه السلام.

(١) يقصد الثورة الفرنسية.

(٢) شمدون: من قضاة العبرانيين في القرن الثاني عشر ق. م. اشتهر بقوته الجباره التي تكمن في شعره. احتالت عليه «دليلة» فقضت شعره وحرمه من سر قوته وسلمته لأعدائه.

(٣) جوبير: كبير آلهة الرومان. هو زفس اليونان. له هيكل على الكاپitol وآخر في بعلبك «المصحح».

وجاء محمد ﷺ وهزم أكاسرة الفرس وأقاصرة الرومان، وأبطل عمل القساوسة والكهان وألغى مشروعية أرستقراطيي العرب والفرس، ولكن لم يلبث أن استبدل الملوك والأكاسرة بالخلفاء، وحل الأئمة والوعاظ محل القساوسة والكهان.

أما طبقات الزرادشتية^(١) الاجتماعية - من الدهاقنة والقياصرة والأرستقراطيين والقطاعيين - فقد أسمت نفسها أحفاد الإمام وأصحابه، وخلعت على نفسها ألقاب الأشراف والنبلاء ..

لقد أبدلت إمبراطورية الرومان ومملكة الفرس أسماءها فأصبحت خلافة خلفاء الرسول ﷺ وألبيت المذابح مسوح الجهاد! وصار السلب زكاة! واعتبرت معاناة الناس هي مشيئة الله! ..

أما أسرة النبي ﷺ فقد توزع مصيرها بين القتل والنفي والسجن، وضاع حق الذين اتبعوا رسالته بإحسان، وأصبحت خلافته من نصيب عائلة أبي سفيان^(٢) والعباسيين.

أما علي عليه السلام الذي اقتفى سنته وأدى أمانتها بحقها هو

(١) الزرادشتية: ديانة فارسية قديمة تسب إلى زرادشت الذي تشبه ولادته ونشاته ولادة ونشأة المسيح. ونسبت إليه خوارق كإحياء الموتى وإبراء الأعمى؛ وكان للزرادشتية تأثير كبير في الطوائف الباطنية من قرامطة وحناثيين وغيرهم. «المصحح».

(٢) أبو سفيان: (صخر بن حرب بن أمية) (ت ٦٥٢ هـ / ٣٢١ م): ثري مكي فرضي. من أشد المناونين للإسلام. قاد المشركين في أحد والخدق. أسلم يوم فتح مكة. والد معاوية مؤسس الدولة الأموية. «المصحح».

وأنصاره، وقاوم منهم من قاوم بغي الخلفاء لمدة قرنين ونصف،
إلاً أنهم جميعاً راحوا في عداد الشهداء ..

لقد تصدوا لتقاليد الجاهلية وأرستقراطية الخلفاء، وندروا
أنفسهم أتباعاً لعلی، وبدلوا أرواحهم للقضاء على النظم الفاسدة
الجائرة، وكانت شعارات حزبهم الشيعي :
الإمامية والعدالة ..

لكن فجأة.. أصبح الخليفة شيعياً !!!

وتبوأ ملوك الصفوين^(١) مكان القيادة من الشيعة، وصار بيت
الخليفة هو قصر السلطان ..
وهكذا دواليك . . . !

* * *

وفي أوروبا استطاعت الثورة العلمية أن تهزم الكنيسة، وأخذ
العلم مكانة الدين، وتحولت مدارس اللاهوت القديمة إلى
الجامعات الحديثة، ونفي المؤمنون إلى أركان المعابد القصبة
بواسطة العلماء . . .

وقد ترك (بلعم) الكنيسة وظهر في الجامعة !

الثورة الفرنسية ألغت الإقطاع كنظام، لكن (قارون) الذي

(١) يفرق المؤلف بين التشيع الصفرى والتشيع الحقيقى، فيدين الأول وينكره ويرى أنه
تشيع منحرف ظالم يجب محاربته ومحاربة آثاره، ويؤيد الثاني لأنّه يعود إلى المبادىء
الإسلامية الأصيلة المستمرة من النبي محمد ﷺ والذين اتبّعوا بِالْحُسْنَى.

هُزمَ في الريف اندفع في المدينة لينشئ البنوك!

ورغم أن فرعون قد فصلت عنقه المقصلة الثورية ودُفِنَ تحت ثرى قصر (فرساي) بنظام التصويت الديمقراطي ، إلا أنه انبعث من جديد مستعيناً بشروة (قارون) وسحر (بلعم) .. وجاء (ديغول)^(١) إلى السلطة!

لا يمكننا - أبداً - أن نتخلص من أبناء عمومتنا من أحفاد قabil الذين يعاضدون بعضهم البعض ..

فإذا هزمت أحدهم وقبضت على يده، فإن الآخر يحاول شراءك بماله، وإذا فشل هذا فسيحاول الثالث خداعك باسم العقيدة! وإذا لم تفلح أيّاً من هذه الحيل فإنهم سيحاولون الوصول إلى غايتهم مسخرين في ذلك العلم أو الفن أو الفلسفة أو الإيديولوجيا، وإذا أثبتت إحدى هذه الوسائل تأثيرها، فإنهم عندئذ يلجأون إلى النحيب والبكاء والتسلل والدعاء .. أي ببساطة - ما يشغل عليك ذهنك ولا يدعك تعي ما الذي يحدث.

إنهم سيزيفون لك الاعتقاد بأن أقدار التاريخ هي وحدها المسؤولة عما في هذا العالم من كره وبغضه وخطايا، وأن كل الحب والخير إنما هو في الحياة الآخرة! .. .

وإذا لم تُجدِ معك أيّاً من هذه الأساليب فإنهم سيحولونك

(١) ديجول (شارل) (١٨٩٠ - ١٩٧٠) قائد فرنسي ورجل دولة دعا إلى مقاومة الألمان.

رئيس الجمهورية الخامسة (١٩٥٩ - ١٩٦٩). «المصحح».

إلى مستهلك مجنون، ومن ثم تَجِدُ نفسك تنفق كل ما كسبت من أجل أن تعيش حياة الرفاهية، والت نتيجة المترتبة هي الحصار المستمر بالديون، والاستغراف في العمل طيلة اليوم بلا جدوى ومن أجل لا شيء .

هل هذا هو ما نسميه : حياتنا؟!

أن تعمل وتعمل حتى تحصل على مزيد من الرفاهية، وفي الوقت ذاته تقتل نفسك بالعمل ليلاً ونهاراً، ثم تجده تجرجر رجلك متخلفاً سنوات إلى الوراء!!!

كل قيم الإنسانية والتحرر تمت التضحية بها على الطريق الذي ينشد الرفاهية . . . لقد بيعت حياة البساطة واليسير لِيُشتري بثمنها حياة الترف . . !

وأخيراً

إن لم يُجد كل ذلك : فهناك الإعلام الطاغي بالجنس وموسيقى الجاز (الصاحبة العنيفة) وهناك الهيروبين ، والمarijوانا ، وL.S.D ، وغيرها من آلاف الطرق الشيطانية الأخرى .

بالخطأ أو الصواب يتم استيعابك حتى يبقى عقلك مشغولاً، وتمنع من التفكير في حاضرك وتُدفع في شُعب الضلال مؤمناً أو غير مؤمن ! . .

* * *

نحن يتامى التاريخ المساكين المقهورين في الأرض . .

نحن أحفاد الشهيد هابيل والمؤمنين الصادقين بالله ، وأبناء آدم الذين أعطوا المثال للنوع الأسمى ، وناصروا الإخاء والحب والمساواة وتمثلوا الطبيعة الخالصة الندية للإنسان ، وكانوا صورة حقيقة للتوحيد والوحدة والسلام . . .

نحن ذكرى الحقبة السعيدة في التاريخ حينما كان هناك المجتمع الواحد الذي يأكل من مائدة الطبيعة المشتركة . .

لكن . . .

كل ذلك قِبَر يوم استشهد أبينا هابيل ، وسفكت دماءه أخلاق الخداع ، وصار الضحية البريء لرأس المال ولثروة قابل . . . الرغبة في التأثير تبقى دائماً أملأً وأمنية في قلوبنا . .

نحن ننتظر بشوق عظيم اليوم الذي نرى فيه نبينا يساعدنا في حمل قضيتنا ! . .

التوحيد هو السراج المميز ، وهو شارة النبوة التي حملتها أكتاف رعاة الغنم عبر التاريخ .

لقد تناوبوا حمل هذه الراية من جيل إلى جيل ومن يد إلى يد :

من يد (هابيل) إلى يد (إبراهيم) ومنه إلى يد (محمد) ومنه إلى (الحسين) ثم مضت من بعد لكل مكان وكل زمان حتى اليوم الأخير . . يوم العدل !

لقد رفعتها ثورة العدل باتساع العالم ، وحملتها قيادة ضحايا

الطغيان وورثة المستضعفين في الأرض ..

وهكذا كانت تسير الراية وترسم على الأرض الخط الأحمر
القاني بدماء الشهداء .

وفي المقابل والنقيض تمضي راية الكفر التي تجسد القوة
والجهل والشرابة للدماء من يد إلى يد حتى تبلغ دائماً آلها الزيف :
الطواحيت الثلاثة ..

الإيمان والكفر ليسا عصبية، ولا تشتيت للوحدة ولا هما
تصور بسيط أو حجة من حجج المتصوفة^(١) وال فلاسفة ، ولكنه
التوجيه الذي يؤدي بالبشرية إلى سبيل الرشاد والرقة ، أو يؤدي بها
إلى سبيل الضلال والغبي ..

إنَّ معنى هاتين الكلمتين : «إيمان وكفر» واضح الوضوح
نفسه الذي نراه في الفرق بين الكلمتين «عدل .. وظلم» .

أما بقية النعوت والأوصاف فهي زائفه وخاطئة ، وقد صد بها أن
تشكل علينا وتخدعنا .

كن حذراً حتى لا يخدوك الزييف ..

إنَّ التاريخ مليء بالنفاق لدرجة أنه أباح لأحفاد قابيل

(١) التصوف: فلسفة كانت وليدة نزعات الزهد القوية التي ظهرت بوادرها في صدر الإسلام ، تساندها آيات من القرآن الكريم تحض على النسك . فكان الزهد حركة احتجاج ضد التحلل الأخلاقي ، وثم أصبحت فيما بعد عدة فرق على رأس كل فرقة «إمام» يسمى بشيخ الطريقة وتعرف باسمه . «المصحح» .

- وحدهم - حق الحديث عن العدل والإيمان! أما أحفاد هابيل فلم يستطعوا الحديث حتى عن أبيهم الشهيد!!
استمع فقط للقرآن الكريم، ولا تستمع لأولئك الذي يتحدثون عنه.

ذلك أن بعض ذرية قabil أصبحوا من مفسري القرآن الكريم، ومن ثم فعليك أن تقرأ النص نفسه وتفهم ما يقوله لك بنفسك، لأنه الوثيقة الوحيدة التي حفظها الله بمنأى عن تدخلهم.. استمع إلى القرآن لتعلم منه قصة البشرية ومعنى النبوة:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ الْبَيِّنَاتَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَبَ إِلَيْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١).

إنَّ الله تعالى لم يرسل الأنبياء لأنَّ هناك خلاف طفيف في الرأي، أو لمجرد التحيز! كلا.. لكن لمقصد عميق، ودون أي شبهة غير جعل الإيمان والكفر.. .

ولتستمع إلى الله مباشرة يوضح لك ذلك:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُوَّمَ النَّاسُ بِالْفِسْطِطِ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥. نص الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُوَّمَ النَّاسُ بِالْفِسْطِطِ وَأَنْزَلْنَا الْمِيزَانَ فِيهِ بَاشْ شَدِيدٌ وَمَنَفِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرُمُ وَرَسَلُهُمْ يَأْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ فَوْئِ عَزِيزٌ﴾. وبالحظ أن القرآن يذكر الميزان وال الحديد في نفس الآية، وتشير الآية إلى استعمالات عسكرية للحديد إلى جانب استعمالاته كقوة اقتصادية فهو في ميدان المعركة وفي الحياة اليومية.

ابحث في القرآن مرة ثانية تجده يخبرك بجلاء ووضوح، ليس بصورة نظرية فلسفية ولا بلغة معقدة ولا حتى بمصطلحات مركبة من حواش لاهوتية ..

بل نزل بكلام بسيط يستطيع أن يفهمه حتى الأمي من الناس :

﴿وَالَّذِينَ مَأْمَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّغُوتِ، فَقَتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(١).

نعم ! قاتلوا أولياء الشيطان .. الطواغيت الثلاثة الزائفه ..

يا من تريدون أن تنصروا الله ..

يا من تحمون أنفسكم من الشيطان الثابت بالحكمة والوعي ..

يا من تقاومون إغواء الشيطان وحيله بالتقى^(٢) ..

إن العدو كالعنكبوت الذي ينسج بيته من المال والسلطة ممهداً الطريق لاصطياد البشر ، ثم مص دمائهم .

لا تخف من الموت ، ولا تهرب ، ولا تؤجل المعركة ، بل تزود بالتقى وعندها لن تواجه أثراً لخطر^(٣) ..

(١) سورة النساء ، الآية : ٧٦.

(٢) التقى هي أن تقى ، وليس أن تهرب كما شاع في الفهم السليبي الذي انحرس أزاءه المعنى الإيجابي السليم.

(٣) في كل آيات القرآن يوصف الشيطان بأنه عدو خطير وفري ، إلا في سياق هذه الآية حيث ورد ذكره موسوماً بالضعف .. لماذا؟ .. ذلك لأن القرآن هنا يتحدث عن القتال ويخاطب المجاهدين الذين لا تعني لهم أنظمة الطغيان أكثر من بيت =

يا من يدين بالتوحيد، وبالمسؤولية تجاه دم هابيل ..

يا من يحمل عبء الأنبياء على كتفيه: الكتاب ..
والميزان .. وال الحديد.

أنت يا ابن آدم.

أنت أيها القائم بين الناس

أيها القدوة في: القدرة .. والحرية .. والوعي .. .

أنشد الملجم عند الله: رب الناس .. . ملك الناس .. . إله
الناس .. . وأحِبَّ الناس ! .

أيها الحاج

يا من مشى على درب الشهادة الأحمر بالعبور من عرفات
إلى منى .. .

= العنكبوت، وقد أطلق الله تعالى اسم العنكبوت على إحدى سور القرآن التي حدثنا عن قصة النبي الذي يقوم وحده بين الناس يجاهد القوى العظمى الحاكمة، وقد وصف القرآن القوى التي مثلت الشرك ببيت العنكبوت الذي نسج لاصطياد الناس ومص دمانهم وهي مع ذلك واهنة واهية، وقد أسقط الله قصور الطفانيان ومعابد السحر بالأيدي المجردة وليس بالسلاح، ولكن الذي جعل هذا التأثير لهذه المصيدة ليس قوتها ولكن جهل الناس .. إن الناس يجب أن ينالوا قسطاً من المعرفة الصحيحة مما حمله الأنبياء من الحكمة والنور **(مَنْلَى الَّذِينَ أَخْدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْبَاعَهُ كَمَنَلَ الْعَنْكَبُوتَ أَخْدَثَ بَيْتًا وَإِنَّ أَزْهَرَ الْبَيْوَتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَرَ كَائِنًا يَتَمَمُّرُكَ)** سورة العنكبوت، الآية: ٤١. **(وَتَلَكَ الْأَنْثُلُكَ نَضَرِّهَا لِلنَّايمَ رَمَّا يَقْلِلُهَا إِلَّا الْعَكِلِمُونَ)** المصدر نفسه، الآية: ٤٣. «المؤلف».

يا من خطأ على مقبرة الصنم الأخير: طاغوت العقبة ..

يا من سما إلى ذروة الحرية بالتوحيد

يا من هزم الشيطان في أرض مني .. .

أيها السائر على سُنة إبراهيم عليه السلام و محمد صلوات الله عليه وآله وسالم .. . كن يقظاً
وتزود بأقصى انتباه .. .

إنك على خطر دائم: خطر قabil والخوف من عودة الآلهة
الزادفة .. .

الرسول في خطر، ورسالته في خطر، فكن حذراً من
الطواحيت، وانشد الملاذ عند:

رب الناس .. . ملك الناس .. . إله الناس

حتى الآن هناك ثلاثة أو ثمان تمثل شيطاناً واحداً!

قابل واحد .. لكن:

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسَّاسِ الْخَنَّاسِ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسِّعُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

من .. أو ما هو «الوساس»؟!

القاموس يشير إلى ذلك الذي يهمس بالشائعات والأرجيف
أو الإيحاء بها .. .

وكذلك يعني «الحالة السوداوية» ذلك المرض الذي يقتحم
الذهن ويقلب وعي الإنسان إلى شعور باللامعنى.

إنَّ الذي يقتربه عليك يتسلل إلى لاشعورك ..
 إنَّه يظهر لك ويتحدث إليك، و تستطيع أن تستمع إليه، ولكن
 ليس بأذنيك .. .

تستطيع أن تراه، ولكن ليس بعينيك .. .
 إنَّه خناس .

ما هو الخناس؟!

القاموس يشير إلى كل ما يقودك إلى الضلال، وكل ما
 يجذبك ويستغرقك ويتبعك ويخدعك حتى إن حاولت أن تهرب
 منه يلح في تعقبك .

ما الذي يفعله الوسواس الخناس؟ ذلك الذي يشعل فيك
 الإغواء ويوحي لك بالمفترحات الشريرة!

ما هو الإغواء؟!

القاموس يحدد معناه بالذي يزيّن عمل السيئات والفساد ..

ذلك المرض الذي يقتحم على المرء حكمته ويهيله إلى
 حالة من الهذيان والاضطراب واللامعنى .

من أي شيء خلق الوسواس الخناس؟!

قد يكون من الجن، وقد يكون إنساناً ..

ما هو الجن؟!

هو قوة غامضة خفية ذات طبيعة غير بشرية تحاول التأثير في
 تصرفات الناس .

ما أوضح التعريف الذي أعطي لها، لكنها اليوم أشد ذكاء وأشد سحراً

هذه الطواغيت الثلاثة خفية، ولكنها تظهر وترى . . .

إنها تذهب لتبدل ألوانها وتعود .

قد تهزم . . ولكنها تنقض مرة أخرى

اليوم الرأسمالية والاستعمار المباشر يبدلان جلدهما ويظهران في ثوب الاستعمار الجديد، ويعود الطواغيت الثلاثة لاستلاب البشرية من جديد، وغسل الأدمغة بمعونة الخبراء والتكنولوجيا المتقدمة . . كما يقول البروفسور شاندل :

(إنَّ الخطر الأكبر على البشرية اليوم ليس تفجير القنبلة النووية، ولكن محاولة مسخ الطبيعة البشرية).

عناصر الإنسانية في البشر تدمر في سرعة هائلة بما ينتجه التسابق غير الإنساني، ويتحول الإنسان إلى آلة في مظهر بشر لم يخلقها الله ولم تنشأ في الطبيعة! ويصير الإنسان عبداً لم ير سيده ولم يعرفه، ولا حرية له سوى بذل وسعه ليكون العبد الأفضل.

لقد تمت مبادلته بالمال، لكنه هو نفسه الذي دفع الثمن! وغداً واقفاً لساعات في طابور طويل أمام أوكرار اللصوص^(١) الذين يتظرون عودته حتى تتم سرقته.

(١) إشارة إلى البنوك.

لقد أضحي الإنسان عبداً غير قابل للنمو؛ يأخذ كل ما يحتاجه بكل ما يملكه! ..

إنه مؤمن فقط بالتبادل المادي، وعقيدته تدفعه لأن يدفع أكثر مما يأخذ..

إنَّ حياته صُمِّمت له على طراز معين قبل أن يولد، وبذلك صارت عبارة عن مهمة تؤدي، أكثر مما هي حياة حقيقة..

الآن أمامه فرصة لاكتشاف العالم، ولكنه أضاع إيمانه والإنسانية.. للأبد^(١)..

إنَّ المأساة فوق مستوى التصور، وفطرة الإنسان تتغير، والشياطين الثلاثة المغوية لا تملك قوة السلاح وسلطان الذهب وخداع المسابع فحسب، بل يسخرون أيضاً قوة العلوم الخارقة، وسحر الفن المبهو، وطاقة الآلة المتفرقة لإمساء حيلهم وخططهم المحكمة..

اختفى من حياتنا المعاصرة نير العبودية الواضحة، لكن - في واقع الأمر - الناس مستعبدون بسلسل غير مرئية..

نعم هم أحرار في أن يدلوا بأصواتهم في الانتخابات لمن يريدون، لكن قبل أن يقرروا ذلك بزمن طويل، فإن الوسواس الخناس ينفث في قلوبهم.

(١) الكلام مأخوذ من كراسات شاندل (Les Cahiers).

مأساة اليوم هي إحدى نتائج الاغتراب^(١) الذي يعني أن تكون غير قابل للصداقه ولا مبالياً.

وهي حالة غير صحيحة تغطي على وعي المرء وشخصيته الحقيقة . . .

اختفت بالتدریج صور الطغيان السياسي والتفرقة الاجتماعية وطرق الاستغلال الغربي القديمة، ولكنها عادت في أشكال أبشع، كما تخبيء اليوم الأنظمة الرأسمالية تحت أقنعة الليبرالية والديمقراطية . . .

انتهى زمن السلب والنهب التي مارسها التتار وطبقها قانون جنكيز خان المسمى بالياسق، ولم نعد نرى طغيان وبربرية التعذيب التي ارتكبها تيمورلنك وهو لا كوا^(٢) . . .

ولكنها عادت اليوم في مظهر أشد خداعاً باسم التحديث والحضارة، حتى تخفي الوجه الحقيقي للاستعمار.

اختفى هذا النمط من الحكم المستبددين محترفي القتل من قدماء الاستعماريين في ثنایا العالم الثالث، ولكن نظمهم الاقتصادية والسياسية وعلاقاتهم الاجتماعية والتعليم والفن والأخلاق والحرية الجنسية والمذهبيات والإعلام الدعائي والأدب والمواضعة والجنون

(١) ترجمة لمصطلح (Aliénation)

(٢) التتار قبيلة من أشد القبائل وحشية، وجنكيز خان قائد هذه القبائل، والياسق قانون هو خليط من الأديان السماوية والأديان الوثنية والأهراء الشخصية، وتيمورلنك وهو لا كوا كلاما قائد مغولي من التتار حكما بعد جنكيز خان ومن ذريته.

الثقافي والعدمية والاستهلاك بلا حدود والتغريب، كلها تعاود الظهور في خفاء تحت ثياب الاستعمار الجديد ..

لقد ظهروا مرة أخرى، ولكن ليس على صورة الجندي في القواعد العسكرية، ولكن في الإدارات والمكاتب وفي الشوارع والأسواق! ..

وهكذا بطرائق غير مرئية لها أيدٍ خفية وعلاقات سرية تشكلت بنية الاقتصاد والنظام الاجتماعي والمعتقدات والفطرة، والروح والقيم والتوجهات وعقول الناس.

إنه الاغتراب ..

في هذه القرون الأربع عشر منذ مهبط الوحي لم يتجلَّ معنى هذه السورة الرائعة (الناس) كما يتجلَّ الآن .. .

لخمسة قرون مضت من حياة البشرية لم يكن «الوسواس الخناس» يفتك بالإنسانية بإغوائه الظاهر والخفى، ولم يكن يحطم أفرادتهم بضلالاته كما يفعل الآن .. .

آه.. ! نعم! .. . لم يكن يفعل ذلك أبداً على النحو الذي يمارسه الآن .. .

إنَّ معانِي هذا الوحي الكريم تتجلَّ بوضوح عبر أحداث التاريخ ومسيرته! ..

إنَّ علماء الاجتماع والمفكرين الذي يعيشون في انسجام وألفة مع الاستعمار الجديد والرأسمالية يعرفون جيداً أن هذه

الأنظمة (قد تشعل النار في السوق كله إذا أرادت منديلاً) ^(١).

إنهم يعرفون كيف يمسخون العلم ليبلغوا به غايتهم، وكيف يطهرون الجهل باسم الحضارة..

إنهم يعرفون كيف يوظفون الجنة والوسواس لإفساد إيمان الأمم ومعتقداتها وإرادتها ووعيها، ويتركونها خالية الوفاض فارغة القلب، ومن ثم تتهيأ للدخول في حالة الاغتراب، حيث ينظر المرء إلى ذاته بسلبية وسوء ظن، وحيث تكون عملية مسخ الناس محكمة تؤدي بهم حتماً إلى أن يكونوا مجرد مستهلكين مقلدين ولا شيء سوى ذلك ^(٢).

* * *

اليوم.. هناك ثلة من أهل الوعي - العاملين من أجل الإنسان - الذين لا تحدّ نظرهم التصورات التقليدية الطائفية، ولم تسبق إلى عقولهم المشكلات المحلية أو التحizيات التاريخية أو المهنية أو التعليمية أو الأحوال السائدة..

وهؤلاء لم يقنعوا بدور المراقب للعلميات السياسية المتقلبة، كما لم يكتفوا بإصدار التقويمات السطحية لما يقع للناس.

(١) غالباً هذه عبارة مقتبسة من نص مسرحي شهير.

(٢) تحدث المؤلف عن هذه الحالة ياسهاب في مؤلفه «العودة إلى الذات» الذي ترجمه المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا، والكتاب سيصدر عن دار الأمير بحلة جديدة هذا العام. «الناشر».

ومع كل ذلك وفوقه، استمرّوا أمناء على الإنسانية
وحقوقها . .

أولئك هم الذين يدركون ما فعله الاستعمار من نهب لموارد
الشعوب الطبيعية في العالم الثالث، ومن تمكين للعملاء الطغاة من
السيطرة على مقاليد الأمور في هذه الأقطار . .

كل هذه مأسى حقيقة جاءت من الأجانب، إلا أن المأساة
الكبرى تتمثل - مع ذلك - في ما لحق بقلوب الناس من تبدل،
وهو ما أسماه الله تعالى: صدور الناس .

وهذه المأساة الكبرى لا تقترب منها أي مأساة أخرى، ولا
تبليغ مبلغها من الأهمية حتى، ولا تلك المأساة المتمثلة في خطر
حكام الشر الخارجي، المشار إليه بكلمة «غاسق» في سورة الفلق،
وكذلك خطر «الحاسد» المتجسد في الفساد والغيره المضطربين
المرتكبين من بعض الناس . ! . .

إنَّ أفعى مأساة تهدى سكان العالم اليوم هي أن غرابة الإنسان
المعاصر أصبحت غير إنسانية، بمعنى أن الوسواس لم يعد يدمر
الجسد فحسب، بل الروح أيضاً، وهو ما يفرز المفكرين ذوي
الوعي والمسؤولية في هذا العصر؛ إذ إنَّ المفكر يعرف الناس
بالقدر ذاته الذي يعرف به الوسواس، ويعرف وبالتالي، ويفهم مدى
قوة الاغتراب . . .

فهو يرى الإنسانية تذبح كلما أسيء إلى حقوق الإنسان . . .
وهو يرى مفترفي الشرور وصناع الأوثان الذين لا تتيسر

للكثيرين رؤيتهم بعد أن غيرا وسائلهم من سلاسل العبودية المادية إلى التسلل في الخفاء، أو الكمون داخل القوى الفاعلة والواسعة في القلب، وكل ذلك في هدوء وستر.. يلجون إلى العقل ويربكونه ثم يغيرون الشخصية ويمسخون شخصاً في شخص آخر وهذا هو الاغتراب!..

نعم! الخطر يرقد هناك في مكمن كأسوا ما يكون....

ليس خلف الصخر أو في شعاب الجبال، ولكن في أعماق قلبك أو ضميرك ..

إنَّ الكمين لم ينصب من أجل اقتناص حياتك ومالك، ولكن من أجل إيمانك وإنسانيتك ومعرفتك وحبك ونصرك وجهادك وميراثك من تاريخك وطريقك، حتى لا تكون مثل إبراهيم، ولا تبقى في السبيل الذي يقربك من الله تعالى.

عدوك ليس دائماً مسلحاً أو في شكل عسكري، وليس بالضرورة أن يكون أجنبياً معروفاً.. فقد يكون أنظمة، أو مشاعر أو خواطر، أو ملكية، أو أسلوباً في الحياة، أو نوعاً من العمل، أو الاستعمار، أو غسل الأدمغة باسم الدين، أو الاستغلال، أو العلاقات الاجتماعية، أو الدعاية ووسائل الإعلام... .

وقد يكون الاستعمار الجديد، أو البوروكراتية، أو التكنولوجيا، أو التسيير الذاتي.. وفي بعض الأحيان هو الاستعراض والقومية والعرقية.. وفي أحيان أخرى النازية البرجوازية والعسكرية!..

وقد يكون هو المتعة (الأبيقرية)^(١) أو هو الأفكار المثالية، أو هو المادة (المادية) أو هي الفن والجمال (الرومانسية) أو هو العدم (الوجودية) أو هو الأرض والدم (العنصرية) أو هو البطل والسلطة المركزية (الفاشية) أو هو الفرد (الفردية) أو هو المجموع (الاشتراكية) أو هو الاقتصاد (الشيوعية) أو هو الحكمة (الفلسفة) أو هو الشعور (الغنوصية) أو هو السماء (القدرية) أو هو الجنس (الفرويدية)^(٢) أو هو الغريرة (البيولوجية) أو هو الآخرة (الإيمان) أو هو الخرافات، أو هو الفائض الاقتصادي

هذه أوثان الشرك الجديد والحضارة الجديدة، تضاهي الالات والعزى وأسف ونائلة^(٣) لقريش الجديدة.

كيف إذاً تدرك معنى العبادة الخالصة والمحبة الخالصة لله تعالى؟

ما هو مدى عظمة معنى عقيدة التوحيد وجلال نبوته؟

الناس اليوم أقدر على استعمال العقل عن طاعة الله تعالى؛ لأسباب ترجع إلى نفوذ العلم الحديث الذي جرف هؤلاء الناس إلى منحدر إهمال العقيدة، وبذلك أنكروا الله تعالى، وخرجوا على ريبة الإيمان.. وفي المقابل لم ينجزوا شيئاً بذلك العصيان الله

(١) نسبة إلى أبيقر. فيلسوف يوناني دعا إلى الاستمتاع باللذات المعنوية؛ كان من أبرز شخصيات العصور القديمة ومن أثري مفكريها. «المصحح».

(٢) نسبة إلى فرويد: طبيب نمساوي، مؤسس علم التحليل النفسي. «المصحح».

(٣) أصنام عبدتها قريش في الجاهلية أمر النبي(ص) بسحقها بعد فتح مكة «المصحح».

ورفض عبادته، سوى أن الشرك الجديد له آلهة أكثر حقاره بكثير من أصنام الشرك القديم (أصنام عصر الجاهلية)!

العرب القدماء كانوا يعبدون أصناماً صنعت من الذهب ورصعت بالجواهر، وكانت أصنامهم رمزاً للقوة والجمال والوفرة والخير والإحسان.. وبذلك كانت موقرة ومقدسة، أما الشرك الجديد فهو اليوم أشدّ وضاعة من أعضاء جسد الإنسان السفلي.. وقد بلغت الآلهة الثلاثة الزائفة الأبدية اليوم أعظم ما بلغت من الطغيان..

حيث لم يعد فرعون فرداً، وإنما نظاماً..

ولم يكن قارون واحداً، ولكن طبقة.. .

أما (بلعم) فقد أفلع عن كلام الإيمان، وصار يتحدث عن العلم والتكنولوجيا والفن والأدب! ..

من العجيب أن يتحدث القرآن في السورة قبل الأخيرة «الفلق» عن شياطين ثلاثة لها خاصية واحدة فذة، بينما في السورة الأخيرة «الناس» يتحدث عن شيطان واحد له ثلاثة شخصيات: الرب، الملك، الإله... وهذا أشد خطراً.. .

الشياطين الثلاثة هم تعبير عن القهر وغسل الأدمغة والخداع والاغتيال والخطايا الجسيمة... وهي الأشياء التي تسيء للإنسان وحقوقه وحرি�ته وتستعبد الناس وتستبيحهم فقراء وجهلة، وبطريقة أو بأخرى تضغط الناس وتستبيحهم تحت وطأة ثقيلة من هذه المأساة..

أما أكبر المآسي اليوم فهي محاولة القوى العظمى المعادية للإنسان المثابرة على إحداث شلل للقيم الإنسانية عن طريق إفراغ أفئدة الشعوب؛ من أجل استغلالها لمصلحتها.. بعد أن علمها التاريخ أنها - لكي تأخذ بزمام الأمر الاقتصادي والسياسي - لا بد لها من تحطيم تلك القيم التي يرعاها الناس، ثم مسخ طبيعتهم البشرية ..

بكلمات أخرى: لا بد من تغريبهم (Aliénation).

هذا الشيطان هو أشد سوءاً من أسلافه ..

على الرغم من أنهم جمِيعاً لهم القدرة ذاتها على إثارة المتابع في أي مكان ..

إنَّ نظام الثالوث «الخناس» هو تحطيم الفطرة البشرية، وهو الخطر نفسه الذي يهدد ضمير الأفراد المسؤولين.

هذا هو عدو الإنسان المبين، يذهب ويجيء في كل مكان بثلاثة أوجه، وفي كل مرة بقناع مختلف! ...

«الوسواس» هو السُّم القاتل الذي يحقن به الجسم البشري .. برأوس ثلاثة ومئة وجه .. للخناس.

لم يستطع الشيطان إغواء آدم وإخراجه من الجنة إلاً بعد أن تمثل له في صورة ثعبان.

«الوسواس» هو الذي أنجب الشياطين الثلاثة ..

«والخناس» هو ممثل هذه الأصنام الثلاثة.. واغواهه أشد دماراً ومسخاً..

* * *

يعلمنا كتاب الوحي الكريم في السورة الخاتمة أن الوسوس أكبر خطراً من الأصنام الثلاثة، وأن الوعي الرباني هو أن نقطع الطريق على الليل، ونزيح سدوله بالفجر الذي نقاتل فيه القوى الثلاثة التي استعبدت الإنسانية..

لمقاومة القوى الشيطانية للخناس يجب التماس الملاذ في التوحيد..

ولتحطيم بناء الشرك في وعي الإنسان والمجتمع لا بد من الاعتصام بالقوى الثلاث:

الربوبية.. والملك.. والألوهية

الله العلي القدير

وبذلك نستطيع أن نقيم مجتمع هايل! ..

مجتمعنا يقوم على المساوة والوحدة بين جنس الإنسان..

يجب أن نبني مجتمع القدوة الذي كانت تنشده نبوة إبراهيم، وحملنا مسؤوليته النبي الخاتم محمد ﷺ.

لقد فهمنا أبعاد المأساة، ونحن مسؤولون عن حلها..

ورثنا سنة إبراهيم، ومن ثم يجب علينا أن نعلمها للأجيال الجديدة المثقفة التي تجاهد في سبيل العدالة الاجتماعية.

نعم! .. بمعية القرآن والنبي وأل النبي ﷺ والحج أعطينا
مسؤولية عظيمة.

* * *

ظلم الشر محيط بالعالم ومتحكم فيه ..
والساحرات الماكرات أقوى من ذي قبل ..
والوسواس الخناس أمضى وأشد مسخاً ..

* أنت أيها المعتصم بمقام إبراهيم وبوحي النبي الخاتم ..
إنك مكلف بمواصلة حمل الرسالة وأدائها ..
* أنت أيها الإنسان الوعي، وخليفة الله في الأرض،
ورثت محمد ﷺ ..

عليك أن تجعل الرسول قدوتك وزعيمك، وتكون أنت
نفسك قدوة للآخرين ..

* أنت أيها المكلف ببناء الأمة ..
لقد بنيت عقيدتك على أساس: الكتاب .. والميزان ..
والحديد.

* أنت يا من سترسخ العدالة الاجتماعية في الأرض ..
قاتل العدو، وانتصر للبريء ..
* أنت أيها المجاهد ..

اصفع إلى بكاء الناس وأنين المضطهدین، وإلى صوت الذين
يتغذون من ظلام الوسواس الخناس ..

* * *

كان «توبينبي»^(١) يرى أن الحضارة الإنسانية مهددة بأعداء مؤبدين: (النشاط المحموم الغبي من أجل الاستهلاك، ثم الاستهلاك، ثم الاستهلاك) . . .

«ماركوز»^(٢) حذر من أن الإنسانية أصبحت (ذات بعد واحد كأنها آلة) . . .

«إراك فيروم»^(٣) مثل «ديجون»^(٤) كانا يبحثان عن مدينة (الشخص الوعي) . . .

«كامو»^(٥) رفع صوته أن: (الطاعون صار وباء في طهران وفي مبعد الحضارة) وأن: (أطفال أبرياء يموتون من أمراض غامضة) . . .

«جون أسلوت» كان يتحدث عن الأمير المسلح الذي يعاني من المرض الذي لا شفاء منه . . .

(١) أرنولد توبينبي: مؤرخ وفيلسوف إنجليزي، وصف نفسه بأنه مؤرخ ينظر في ما وراء التاريخ. ولد عام ١٨٨٩ وكان مجال بحثه هو الحضارة.

(٢) هربرت ماركوز ولد في برلين عام ١٨٩٨م، والإشارة هنا لكتابه الشهير: الإنسان ذو البعد الواحد. الصادر في عام ١٩٦٤.

(٣) إراك فيروم ولد عام ١٩٠٠م بفرانكفورت وعاش في ألمانيا الغربية، ويعتبر من فلاسفة علم الاجتماع والتحليل النفسي وقد عمل في عدد من الجامعات الأمريكية، وقدم إسهاماً متميزاً في دراسة ماركس وفرويد والمقارنة بينهما، كما أن له جهداً هاماً في مجال البحث في علم النفس الديني.

(٤) ديجون لتروي: من فلاسفة الإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد. «المصحح».

(٥) ألبير كامو: (١٩١٣ - ١٩٦٠م) وهو روائي فرنسي ومنظر اجتماعي وسياسي وقد وضع الخطوط الأساسية لنمط من الوجودية الفردية المؤسسة على الأحادية الإنسانية.

ذلك النحات الوعي الذي صمم التمثال في ساحة مدينة نوتردام في شكل رجل تتتساقط أطرافه، وقد وصف الكتابان «إليوت»^(١) و«جويس»^(٢) هذا التمثال الذي يحمل اسم «تريزي» والمزدوج الطبيعة والمؤخوذ من أقاصيص إغريقية قديمة بأنه: (رمز للإنسان المعاصر) . . .

«إيجون أنسكو»^(٣) وصف الحالة المأساوية بالذي خرب روحه الخناس، ومسخه في صورة وحيد القرن . . .

«كافكا»^(٤) يصف الرجل الذي يفترض أنه يمثل الله^(٥) وقد أعطى روحه، ثم أظهره كيف لحق به التغيير التام.

نعم! . . . إن صورة (دوريان فري) ليست في صورة (كاندل) ولكنها صورة الرجل المفترب^(٦).

* * *

إغتنم انبات نور الفجر واهرب.. أنت أيها الضحية المدرك للأساة! .. إن ظلمة الليل ناشرة أججحتها السوداء على المكان كله.

(١) إليوت: كاتب أميركي معاصر.

(٢) جويس: كاتب بريطاني معاصر.

(٣) إيجون أنسكو: كاتب رومني ولد سنة ١٩١٢ م في جنوب رومانيا.

(٤) كافكا: (١٨٨٣ - ١٩٢٤ م) اشتهر برسائله في الفلسفة الإنسانية والأدب والتي نشرت بعد موته وأحدثت ضجة. «المصحح».

(٥) خليفة الله.

(٦) إشارة لرواية الكاتب الإنجليزي (أوسكار وايلد) التي تبدل فيها صورة جميلة لإنسان بصورة أخرى بشعة.

إنَّ الساحر الماكر يوسموس في صدور الناس . .
 إنَّ الحاسدين دمى في أيدي السحرة . . والليل والأصدقاء
 يساعدون العدو . .

إبحث عن ملاذ عند إله الفجر لقتل الظلام بمشرق الشمس
 عند عرفات . . ثم ترقب : إنَّ آلهة الزيف عادت لترتدي بذكاء قناعاً
 من زحام الجماهير . . متقلدة أسلحة خفيفة . . أنت يا وريث
 هابيل . . إثار لاغتيال أبيك . .
 قابيل لم يمت . .

أنت يا وريث آدم . . يا من سجّدت له الملائكة . . الشيطان
 ينتقم الآن !

أهرب من شره ذي الثلاثة أوجه ، الألوان السبعة ، والسبعين
 ألف حيلة ! . .

الذي يوسموس في صدور الناس . . التمس الملجاً منه عند
 الله إله الفجر . . رب الناس ، ملك الناس . . إله الناس . .

وأنْت أيها الحاج . . إيق في منى بعد عيد الفداء ، وارم
 الأصنام الثلاثة سبع مرات في كل يوم :
 كل يوم مثل يوم الأضحية . .

كل شهر مثل ذي الحجة . .

كل أرض مثل منى . .

الحياة مثل الحج . .

العودة

إنقضى زمن البقاء في مني ..

إنتهت مناسك خلف أسوار مكة .. قريباً من حدودها! ..

بقي أمامك طواف واحد وسعي آخر يتاح لك أن تؤديهما في
أي وقت قبل اكتمال ذي الحجة ..

انتهت مناسك الحج، وهذا هو كل المطلوب منك أن
تؤديه ..

أنت أيها الحاج المغادر .. العابر من الفصل الأخير للحج ..
لبيت دعوة إبراهيم ..

وفرت من الدائرة الفاسدة لحياتك اليومية الفردية ..

وجئت في الوقت المحدد للمبقيات .. وأصغيت للوحبي
الكريم ..

وخلعت عنك ثيابك، ولبست ثياب الموت الأبيض ..

تركت بيتك ووطنك وجئت ضيفاً على بيت الله وأرض
الجهاد ..

لقد عاهدت الله عندما صافحت يمينه في الأرض ودخلت
إلى محيط الطواف .. وأفنيت النفس في لجة نهر الحب ...
أنكرت الذات وغسلت نفسك وبذلت وسعك بحثاً عن الماء
في قمة الجبال .. ثم هبطت من مكة إلى عرفات ..
ومن فصل إلى فصل تمضي من المشعر إلى منى ..
ورجعت إلى الله بالرجوع إلى مكة ...

إكتسبت الوعي تحت شمس عرفات المشرقة ..
وجمعت أسلحتك في جنح ظلام المشعر الحرام ..
وفي الوقت ذاته عبرت إلى حدود مني في صحبة الآخرين ..
وانهزم الشيطان ساعة هجومك الأول، وسموت إلى ذروة
الشرف .. تلك المرحلة التي تعلو على الشهادة ..
وأخيراً ..

ضحيت بكبش في خاتمة هذا الجهد .. !

إلى أين وصلت بعد هذه الرحلة العظيمة المقدسة، وبعد
التسامي إلى مراتب سمو الإنسان، وعبر أخطر وأفزع دروب
الخلق: الطواف (الوحدة) .. والإيثار .. والجهاد .. والشهادة ..
وقتال إبليس .. وهزيمة أرض الحب ..؟

ما الذي فعلته؟! .. تضحي بكبش .. لماذا؟! .. ما هي

الفلسفة في ذلك .. ! ما السر في ذلك؟ .. ماذا يعني أن تقتل كيشا
في ختام الحج؟ ..
لا أستطيع أن أقول ...

لكن فلندع الله سبحانه يجيب عن التساؤل:

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعَزَّ﴾^(١) ..

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾^(٢) ..

* * *

أيها الحاج ..

إلى أين أنت ذاهب الآن؟ .. عائد إلى بلادك .. وإلى
حياتك .. وإلى عالمك؟ هل ستعود من الحج على الدرب ذاته
الذي جئت منه؟ .. كلا لا يمكنك ذلك البتة!

لقد أديت دور إبراهيم في العرض الرمزي ..

إن أداء هذه الشخصية الفذة وتجسيده لها كأنك هو وكأنه
أنت، فهو الأداء الجيد.. إذا أحسنت الأداء في الحج فإن العرض
سوف ينتهي وأنت لم تؤذ عمل إبراهيم بعد.. وكم من مؤذ لم
يمنع البقاء للشخصية المحسدة، ومات! ..

لقد أديت دور إبراهيم.. ليس مجرد أداء، وإنما عبادة
وحب ..

(١) سورة الحج، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٨.

لا تعد لأداء دورك بعد أن أديت دور إبراهيم! . . .

لا ترك بيت الناس! . .

لا تعزل نفسك! . .

لا تبدل ثياب إحرامك بثيابك السابقة. . .

غادر مني إلى مكة، وخذ معك إسماعيل! . . .

أنت الآن مثل إبراهيم الذي كان أعظم مقاتل في تاريخ البشرية للأوثان. . . أنت مثل إبراهيم مؤسس ومرسخ التوحيد في هذا العالم وحامل مسؤولية القيادة في شعبه والقائد المتمرد الذي كانت روحه تعاني وقلبه يحب وأفكاره تضيء. . .
الفأس بيده.

والإيمان يرتفع في قلب معقل الكفر. . .

والتوحيد يتألق في وسط الشرك. . .

إبراهيم - قاهر الأوثان - يجيء من بيت (آزر) صانع الأوثان ويحطم الأوثان والنمرود. لقد قاتل ضد الجهل والطغيان والسلبية، وتمرد على صمت المعاناة وعلى «الأمن» المؤسس على القهر، وصار قائداً لقومه ومؤسسًا لحركته وحياته واتجاهه وأمله وغايته وعقيدته الموحدة. . .

أنت الآن مثل إبراهيم. . .

قاتل الآن مثل إبراهيم. . .

قاتل ضد النار.. نار الطغيان والجهل..

وبذلك قد تساهم في إنقاذ شعبك..

النار هي قدر كل المسؤولين من الناس، وهي واجبك في
القيادة والخلاص..

لكن...

الله جعلها محرقة للنمرود..

ولكنه زرعها حديقة لإبراهيم وأتباعه..

لن تحرق، ولن تغدو رماداً..

ولكن ذلك يعلمك الاستعداد للقفز إلى النار في سبيل الله

ثم..

ثم لن تكون منها.. دع نفسك في النار لتمتنع الاحتراق عن
الناس في المرحلة الأشد إيلاماً في الشهادة..

أنت الآن مثل إبراهيم..

ضجّ بإسماعيلك.. ضع السكين على عنقه بيديك.. خلص
أعناق الناس.. من الذبح.

الناس دائماً يضحّي بهم على أبواب قصور السلطة ومعابد
التعذيب!..

ضع السكين على عنق ابنك، وبذلك ستأخذ السكين من
أيدي القتلة..

لكن الله سيدفع فدية إسماعيلك ..

لن تقتل إسماعيلك ولن تفقده ..

هذا كله ليعلمك أنه يجب عليك الاستعداد للتضحية بحب إسماعيلك بذات يديك في سبيل إيمانك (في المرحلة الأشد إيلاماً من الشهادة) ...

والآن أيها الحاج العائد من طواف الحب، وأنت في مقام إبراهيم ..

لقد وصلت الآن إلى النقطة التي بلغها ..

عندما وصل إبراهيم إلى هذه النقطة كانت حياته ملأى بالجهاد :

حطم الأواثان، وقاتل النمرود، وصبر على ناره، وجاحد إيليس، وضحي باسماعيله، وهاجر، وتشرد، وتوحد، وتعذب ..
الдорب من مرحلة النبوة إلى مرحلة الإمامة هو الانتقال من الفردية إلى الجماعية، وهو الذهاب من بيت (آزر) إلى حيث يبني بيت التوحيد (الكعبة) ..

في خواتيم حياته، وقد اشتعل الرأس شيئاً، وتقدمت به السن بنى إبراهيم بيت الله، ووضع الحجر الأسود، وكان إلى جواره مساعدته إسماعيل يحمل إليه الحجارة ..
يا للروعة ..

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة: أحدهما نجا من النار،

وآخر نجا من الذبح، وكلاهما خليفة الله في الأرض، وكلاهما مسؤول أمام الناس . . .

إنما مهندساً أقدم معبد للتوحيد في الأرض، وأول بيت وضع للناس: البيت العتيق. بيت الحب والعبادة . . . البيت الحرام . . رمز خصوصية السماء .

أنت في مقام إبراهيم . .

أصبحت مكان وقوفه آخر خطوة في صعوده إلى المعراج في أقرب الطرق إلى الله . . أنت باني الكعبة . . ومهندس بيت التحرير . . ومؤسس التوحيد . . وعدوا الأواثان. وعدوا الملاً من زعماء القبائل . . والمقاتل ضد الطغيان والجهل والكفر . . الآن ابن بيتك . .

ليس لنفسك، ولا حتى ليكون سقفاً لأولادك، ولا لإسماعيك . . كلا ولكن بيتك للناس، ومؤوى لأولئك المشردين الذين لا مأوى لهم من الذين جرحا وعذبوا أو كانوا من ضحايا الطغيان وليس لهم مكان يأوون إليه ولا جهة يذهبون إليها . . فالنمرود يطاردهم حيثما ذهبوا . .

لقد أضحي الحرم سراجاً منيراً في ظلمة الليل، وصوتاً مدوياً شق صمت الطغيان الرهيب . . إنه آمن وظاهر ومفتوح للناس . . عيال الله .

كل مكان عداه غير آمن، وغير مشرف . . بعد أن صارت الأرض ماخوراً كبيراً للبغاء، إنها أيضاً مسلخ حيث غدا كل شيء ممنوع سوى البغي والتفرقـة . .

أنت واقف الآن بمقام إبراهيم، ومقدم على أداء دوره، لكي
تحيا مثله، وتكون مهندس كعبة إيمانك.

خلص أفراد شعبك من حياتهم الفارغة.

أنفخ روح جديدة في أجسادهم بدلاً من روحهم الآسنة،
لتغيير حياتهم التي تشبه المستنقع العميق بعد معاناتهم الطغيان
والجهل والظلم..

حثّهم على أن يقفوا على أقدامهم، وأعطّهم اتجاهًا وهدفًا
ونادٍ فيهم حتى يأتوا للحج والطواف..

بعد الولوج في الطواف انبذوا الذاتية، وطهروا النفس،
وتبيّنوا شخصية إبراهيم. لقد عاهدتكم الله على اتباع طريقه والله على
ذلك شهيد..

* * *

لكي تكون مثل إبراهيم:

* أجعل أرضك حرماً آمناً، إنك في الأرض الحرام..
* بدل زمانك واجعله كالأشهر الحرام كأنك دائماً في مقام
إبراهيم..

* إجعل الأرض مسجداً حراماً..

* فقد جعلت الأرض كلها مسجداً لله..

* وانظر!.. هل الأمر كذلك؟.. إن الأمر ليس كذلك.

الشهادة أعظم من الحج

لقد علمنا (الحسين) درساً أعظم من شهادته، إنه عدم إتمام الحج! والتوجه نحو الشهادة. الحج تلك السنة التي جاهد جميع أسلافه وأجداده وجده وأبيه من أجل إحيائها. إنه لا يتم هذا الحج، ويختار الشهادة. لا يكمل مراسيم الحج ليعلم كل حجاج التاريخ ومصلّي التاريخ والمؤمنين بسنة إبراهيم أن الطواف حول بيته الله سيكون كالطواف حول بيت الأصنام إذا لم تقم الإمامة ولم يكن القائد، وضاع الهدف، وافتقد الحسين، وكان يزيد.

ففي اللحظة التي قطع فيها الحسين حجّه وتوجه نحو كربلاء، فإن كل من استمر بالطواف في ظل غياب الحسين، فإنه تماماً كمن كان يطوف حول القصر الأخضر لمعاوية^(١).

فالحجّ سنة إبراهيم محطم الأصنام.

(١) انظر خطبته: بعد الاستشهاد.

في بيت الناس أو في بيت الله، فما هو الفرق؟ ما الخبر هذا العام؟

عاصفة من البشر تطوف في تدافع وحرارة، الوجوه قد لونها الشوق، والقلوب قد انخلعت عن العشق، لبت دعوة الله، فحرارة الإيمان وهدير الإسلام والخوف من الله والوحشة من عذاب الآخرة والخوف من عقاب النار وسوق العبادة، دفعت الأمة إلى الدوران المقدس.

ومن بين الوجوه: أصحاب النبي، السابقون في الإسلام، أبطال الجهاد وفاتحو بلاد الكفر، محطمو بيوت أصنام الأرض، حماة التوحيد، حفاظ القرآن، المتعصبون للسنة وعلماء الدين الحنيف؛ الكل يطوفون ويجدّدون العهد مع إبراهيم. متخلين عن الدنيا الدنيئة وعن هذا العالم الترابي وعن كل وضيع على سطحها، تعلقت قلوبهم بالله، يطوفون والجنة تترافق أمام أعينهم، وتغامزهم الحور العين، وتصفر لهم الملائكة من تحت العرش، وجبارئيل ينشر أجنبته تحت خطوات طوافهم!

من هذا الذي شق العاصفة المتراءضة لطواف المسلمين وخرج من بينهم غضبان ثابتًا هكذا، تاركا خلفه مدينة الحرم والأمن والقداسة؟

وحيث المسلمين كلهم يستقبلون الكعبة، إلى أين يتوجه يا ترى؟ ولماذا لا ينظر خلفه ليرى تلك الدائرة التي تطوف بالناس حول بيت إبراهيم وبصوت النمرود. ويهرولون بين الصفا والمروة

سعياً، ويتحركون من عرفات - التي هي بداية التاريخ وأول لقاء بين آدم وحواء على الأرض - يتوجهون في ظلام الليل إلى المشعر الحرام، ويدعونهم للنوم في أرض حرام الشعور - المحرم دخولها على عبادة الليل والجهل - حتى إذا بان الفجر وطلع الصباح، حركوا قطيع أغنام الله نحو منى - أرض أصنام التثلث المشئوم - ليمازحوا إبراهيم، ويخدعوا الله، ويلعبوا لعبة الرمي مع الثلاثة من معبوديهم منذ آدم وحتى آخر الزمان. ويلقوا سبعة حصيات جميلة ملونة بأطراف أصابع مداعبتهم نحو الوجوه البيضاء للثلاثة من آلية أرضهم وزمانهم مداعبة وعربون محبة لهم! ويدبحون الخراف كرمز لمصيرهم الذليل، حيث هم أغنام الله، وأولئك الممثلون الدائمون للإله ينعمون دوماً من صوفهم وجلدتهم ولحمهم، فأولئك هم ضحاياهم الدائمون، ويدبحونهم في كل مكان من أجل أنفسهم حيث الألسنة معقودة. وتجري دمائهم الحمراء في عروق القصر الأخضر ومسجد ضرار وبيت مال قارون. وفي الختام يحلقون رؤوسهم رمزاً لخضوعهم لعبودية الجمرات الثلاث. ورمزاً إلى أن آلة فعل الجحود هي الجهل وعيid المصالح الذين تلطفخت أيديهم بدماء الحقيقة، وأولئك هم الذين يهينون لشهادة الإنسان بسبب غيابهم. حيث يرقد الطاغية خلف أقنعة تقواهم وقدسيتهم، إنهم الحجاج الذين يذبحون بأيديهم - دوماً وفي كل مكان بوسوسة من الأصنام الثلاثة - يذبحون إسماعيل عند أقدام النمرود، فيحتفلون في يوم التضحية بالإنسان بذبح إسماعيل الزمان. عندها يختلفون الكعبة خلفهم، ويتوجهون نحو قبلة الذل والحياة،

ويشترون جنة الآخرة بثمن جهنم الدنيا، ويستلقون على الرماد
الحار لمطبخ الزعماء سكارى من خمر العافية، غارقون في لذة
اجترار بقايا وفاتات موائد النهب .

الدكتور علي شريعتي

الفهرس

٥	مقدمة الناشر
١٥	لمحات من حياة الدكتور علي شريعتي
٥١	الفرو المقلوب
٦٠	مدخل
٦٤	الخروج عن مألفات حياتك
٦٩	الموسم
٧٠	التوجه تلقاء الله
٧٥	أدخل إلى الميقات فرداً
٨٢	النية
٨٤	الصلاوة عند الميقات
٨٧	محظورات الإحرام
٩٤	الكعبة

١٠٣ الطواف
١١٠ البيعة والحجر الأسود
١١٧ مقام إبراهيم
١٢٨ بين الطواف والسعى
١٤١ التقصير
١٤٤ الحج الأكبر
١٤٨ عرفات
١٦٢ المشعر
١٨٦ مني
٢٠٣ جبهة القتال - رمي الجمرات
٢٠٦ القرابان
٢١٦ التضحية بإسماعيل
٢٣٢ الحوار بين الأب والابن
٢٣٨ رموز التثليث - الأصنام الثلاثة
٢٤٨ الرب .. الملك .. الإله
٢٥٦ العيد
٢٥٨ أيام آخر في مني
٢٦٦ إجمال
٢٦٩ الهجوم التالي المترتب على العيد

٢٧٧	الرسالة الأخيرة
٣٢٠	العودة
٣٢٨	الشهادة أعظم من الحج